
الفيصل
مجلة ثقافية شهرية ـ العدد ٢١٣ ـ ربيع الأول ١٤١٥ هـ ـ (أغسطس / سبتمبر) ١٩٩٤ م
ALFAISAL MAGAZINE ISSUE (213) AUG./SEP. 1994
بواعث الإبداع:
القلق أم الطمع؟
الدماغ: سبر أغواره
وحل أسراره
مسلمو الصين
هل تجاوزوا محاولات طمس الهوية؟



شرح مختصر المنتهى

لعضدالدين الإيجي (المتوفى سنة ٧٥٦هـ - ١٣٥٥م)

ألف أبو عمرو عثمان بن عمر بن الحاجب (المتوفى سنة ٦٤٦هـ) كتاب "منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل"، ثم اختصره في كتاب "مختصر المنتهى"، والمعروف بعنوان "مختصر ابن الحاجب"، وهو يعد من أشهر كتب أصول الفقه الإسلامي وأجودها، لذا فقد اهتم العلماء به اهتماماً كبيراً مابين نظم واختصار وشرح، ذكر حاجي خليفة في "كشف الظنون" ١٨٥٣/٢-١٨٥٧ من الشروح له قرابة الثلاثين شرحاً، منها شرح عضد الدين عبدالرحمن بن أحمد الإيجي. والذي قال فيه سعدالدين التفتازاني - أحد شرّاح المختصر - : "يجري من الشروح مجرى العذب الفرات من الماء الأجاج".

وهذه النسخة من الكتاب تعد من أقدم النسخ وأنفسها، حيث كتبت سنة ٧٧٦هـ، أي بعد عشرين سنة فقط من وفاة المؤلف. وعليها الكثير من الحواشي والتعليقات التي تزيد من قيمتها.

وهي من مقتنيات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية برقم ١٢٧٤٠

إعداد: إبراهيم باجس عبدالمجيد

في العدد القادم:

- واقع الدراسات العربية - الإسلامية في فرنسا (ندوة)
- محمد حسن فقي : الإباء العنيف
- التشويش على ذبذبات العقل العربي!
- علي شلش ومختارات من شعر إليوت



رئيس التحرير

د. زيد بن عبدالمحسن الحسين

الدماغ: استعمله وإلا خسرته!



باستطاعة الدماغ أن يخزن معلومات تملأ نحو عشرين مليون مجلد، وتقل الطاقة التي يستخدمها الدماغ كلما ارتفع ذكاء المرء. هاتان معلومتان من بحر متلاطم من المعلومات والأسرار عن الدماغ. والعلماء يحذرونك: (استعمله وإلا خسرته!) (ص ٣٥).

المستقبل .. كيف يراه مسلمو الصين؟



عرف الصينيون الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بنحو خمس سنوات، وقد تعرض مسلمو الصين عبر التاريخ لكل صنوف القمع والتعذيب، ولكن تعد الفترة التي تعرف بالثورة الثقافية أحلك تلك الفترات، فما حالهم اليوم بعد سنوات من نهاية تلك الفترة، وبأي عين ينظرون إلى المستقبل؟ (ص ٧٥).

اللباس في صدر الإسلام



يهتم كل مجتمع إنساني بلباسه الخاص، وزيه، ذلك لارتباطه بثقافته وتراثه، وقد تميز المجتمع الإسلامي بتنوع اللباس، نتيجة لتنوع الثقافات التي تمازجت في إطاره، ولاختلاف البيئات التي ينتمي إليها المسلمون. وتحفل السنة النبوية المطهرة والمعاجم اللغوية بأسماء متعددة للباس، تعكس تنوعه في المجتمع الإسلامي. «دائرة المعارف» تلقي الأضواء على هذا الموضوع، وتوضح كيف كان اللباس في صدر الإسلام ص (١١٥)

إطلالة



الأقلية

تقول بعض الإحصائيات السكانية: إن الأقليات الإسلامية في العالم، تصل نسبتها إلى ربع عدد المسلمين. بينما تشير إحصائيات أخرى إلى أنها تمثل ثلث مسلمي العالم. وبغض النظر عن هذا التضارب، وأيًا كانت نسبة هذه الأقليات وعددها، فإن الواقع يقر بأنها كثيرة العدد، قليلة التأثير، على الرغم من انتشارها منذ أزمان بعيدة، في دول متعددة لها دورها وثقلها في توجيه السياسة الدولية وقيادة العالم.

ويرتبط وجود الأقليات الإسلامية في أركان المعمورة بجوهر الدين الإسلامي، ومفهومه للهجرة. فالإسلام دين جاء للناس كافة ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن هنا فإن كل مسلم مكلف بأن يبذل جهده في إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة ونشر دين الله، وبناء على ذلك فإن كثيرًا من علماء المسلمين هاجروا إلى بلاد بعيدة تاركين الأهل والديار لأداء أمانة التبليغ، وإن كانت الدعوة ليست السبب الوحيد لهجرة بعض المسلمين. وقد كان من ثمرات الهجرة والفتوحات أن انتشر الإسلام في أصقاع الأرض، ونتيجة للظروف والتحولات السياسية الدولية أصبحت هناك قطاعات كبيرة من المسلمين تعيش مجزأة في وسط مجتمعات غير إسلامية عُرفت فيما بعد بالأقليات الإسلامية.

وتتعدد الأقليات في العالم، وتتنوع أصولها وجذورها، ويندر أن نجد أقلية لاتؤثر فيها عوامل الزمن والبيئة المحيطة، وقد تذوب في المجتمع الذي تعيش فيه، لأنها لاتملك مقومات الحفاظ على شخصيتها وهويتها، وإزاء ذلك نجد أنفسنا مندفعين للموازنة بين أقليتين: أولاهما تحمل الرسالة السامية الداعية إلى كل ما فيه خير البشرية، والأخرى هي اليهودية التي تسيطر على الاقتصاد، وتسخر السياسة لخدمة أهداف الصهيونية العالمية.

وفي إطار الموازنة يوضح الاستقراء الدقيق للواقع أن الأقليات اليهودية في العالم أكثر نجاحًا وتحقيقًا لأهدافها ومراميها، فقد كان لها دور كبير في زرع الكيان الصهيوني في قلب العالم الإسلامي، باستغلال صلاتها القوية مع صانعي السياسة الدولية وقتذاك، إذ استطاع يهود الشتات، بخبثهم ومكرهم، أن يصوروا الباطل على أنه حق، وأن يقنعوا الرأي العام الغربي بَمزاعمهم ودعاواهم في حقوق مشروعة لهم في أرض فلسطين، عبر السيطرة على وسائل النفوذ ـ المال والإعلام ـ، والتأثير في مراكز صنع القرار، إلى جانب عملهم الدؤوب في تثبيت الصورة الذهنية السيئة التي انطبعت لدى الغربيين عن العرب والمسلمين، نتيجة للدعايات المغرضة التي حملوا لواءها، بدعم ومؤازرة ممن يعاونهم للأسباب والأغراض نفسها. وقد دفع تحكم القوى اليهودية والصهيونية في وسائل التأثير في الرأي العام، وقدرتها على تشكيله وفق أهوائها، صانعي السياسة في أمريكا وأوربا على حد سواء إلى محاولة التقرب منها، واسترضائها بالوسائل والسبل كافة، حفاظًا على مصالحهم وتأمينًا لمستقبلهم السياسي، مما أدى بهم إلى إصدار القرارات ووضع السياسات والبرامج التي تحقق مصالحها وغاياتها، ومن البدهي أن تكون هذه السياسات والقرارات على تناقض تام مع مصالح العرب والمسلمين، متسمة بالإجحاف لهم، والتجني عليهم.

والأقليات اليهودية لم تمتلك هذه القدرات الهائلة في تشكيل الرأي العام، ورسم السياسة الدولية وتوجيهها وفق ما تبتغي، بين يوم وليلة، وإنما هي نتاج جهد كبير بُذلَ على مدى سنوات طويلة، تفقدوا خلالها أحوال المجتمعات ونفسياتها وثقافاتها وتاريخها، وطبيعة الصراعات التي تحتدم بين طبقاتها وفئاتها، والتيارات الفكرية التي تموج فيها. وفي ضوء كل ذلك وضعوا الوسائل والأساليب الكفيلة بقيادتها إلى مواقع التأثير، وإدارة دواليب الحكم من وراء الستار. ولم تتورع هذه الأقليات ـ ولاتزال ـ عن اتخاذ أردأ السبل ، وأكثرها منافاة للفطرة السوية لتحقيق غاياتها وأهدافها، إذ لاتردعها قيم صالحة ولا تمنعها أخلاق سامية عن الممارسات الدنيئة، لأن أساسها ومرتكزها الاستعلاء العنصري، والاستغلال. والقيمة الرئيسة لها أن الغاية تبرر الوسيلة، ويعد تخريب الآخرين من غير اليهود وتدميرهم غاية أصيلة لها، إن لم تكن أولى غاياتها وأكبر مراميها.

والأقليات اليهودية تقوم بهذا الدور الفاعل في رسم سياسات مجتمعاتها، وتوجيهها وفق مصالحها ومبتغاها، في حين أن الأقليات الإسلامية غالبًا ما تقع فريسة لواقعها الذي يبتعد عن جوهر الدين والعقيدة الصحيحة، مما ينتج عنه تعدد التيارات والمناهج وبعدها عن النبع الصافي ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٣). وهذا التفرق والتشرذم يصب في النهاية في مصلحة القوى التي تقوم بإذكاء نار الفتنة خدمة لمصالحها.

وتقود الموازنة بين حال الأقليات اليهودية والأقليات الإسلامية إلى الحيرة والدهشة بسبب ما فيها من مفارقة واضحة، إذ يتبوأ دعاة التخريب والتدمير والممارسون للتكبر والاستعلاء على غيرهم من الأجناس والأعراق، أعلى السلم الاجتماعي، بينما يقبع المسلمون في قاع ذلك السلم بعيداً عن مراكز التأثير، على الرغم من أن دينهم يحثهم على العمل، ويدعوهم إلى بذل الجهد، وتلمس وسائل الكسب المشروع، كما يضع هذا الدين تصوراً متكاملاً للحياة، يقوم على قيم الحق والعدل والمساواة، نابذًا الاستعلاء والتكبر، مؤكدًا أن الناس

بميزان العطاء

سواسية كأسنان المشط، فكان انتشاره في العالم كله على أساس هذه القيم النبيلة والمعاني الإنسانية السامية، التي تجعل المسلم يجمع بين الوسيلة والغاية، فيخضعهما للمنظور الإسلامي الذي يقر بأن الغايات الشريفة لابد لها من وسائل مشروعة، وبالتالي يرفض المبدأ الميكيافيللي الشهير. كذلك ينشأ المسلم في ظل المنهج الإسلامي إنسانًا صالحًا له قيمه الثابتة والراسخة التي لاتتبدل مع تغير الزمان والمكان. وهو ليس كغيره من أتباع الديانات الأخرى، تحكمه حدود الدولة ومفهوم المواطنة القاصر، وإنما يسكنه شعور عميق بأنه صاحب رسالة سامية في هذه الحياة، عليه أن يبلغها للناس كافة، ووسيلته الأولى في التبليغ هي السلوك القويم، وحُسن التعامل وتجسيد القيم الإسلامية على أرض الواقع، دون الحاجة إلى رفع الشعارات وتدبيج الخطب.

وكان تَمَثُّلُ هذه القيم الفاضلة من قبل المهاجرين الأوائل والتجار في سلوكهم ومعاملاتهم مع الأقوام الأخرى من أسباب انتشار الإسلام بينها، ودخولها في دين الله طواعية، فإذا كان حالهم كذلك بجهد تلقائي وإمكانات محدودة، فكيف يصبح الأمر مع توافر الإمكانات الحديثة من مراكز بحثية وجامعات ومعاهد تخطط وتنفذ السياسات والاستراتيجيات.

في اعتقادي أن السبب الرئيس في محدودية دور كثير من الأقليات الإسلامية في وقتنا الحالي، يعود إلى غياب الفهم الصحيح للإسلام . فلم تعد هذه الأقليات تطبق المفاهيم القرآنية على أرض الواقع كما فعل الرعيل الأول، مع أنه واقع كثير من مجتمعات المسلمين ـ مع كل أسف ـ . فعظمة القيم الإسلامية لن تبدو للآخرين ما لم تتجسد في السلوك والمعاملة، إذ إن المسلم الذي لايطبق تعاليم الإسلام لن يستطيع إقناع أحد بعظمة تلك التعاليم، مهما حَسُنَ قوله وقويت حجته وجمل بيانه، بل قد يكون المردود سلبيًا، لما بين القول والفعل من فجوة وتناقض.

ويتبدى غياب الفهم الصحيح للإسلام في سلوكيات وممارسات متعددة لكثير من الأقليات الإسلامية، لعل أخطرها تحويل الاجتهاد ـ الذي هو مرتبة من العلم والنظر يتبارى فيها أولو العلم والفقه، ومن خلال التباري يحدث اختلاف التنوع الذي يروي الأمة بأنهار من الاجتهادات يصحح بعضها بعضًا ـ، إلى تنازع وتناحر بعيدين من مفهوم الاجتهاد الصحيح، مما ترتب عليه انقسامها إلى طوائف تتخذ كل منها مساجد ومراكز خاصة بها، لايؤمها إلا أعضاؤها. ولو أدرك هؤلاء حقيقة الإسلام لعرفوا أن الاجتهاد القائم على ضوابط العلم الشرعي وأصوله ومقاييسه، والذي يستنبط الحكم من الكتاب والسنة، فيه خير عميم للمجتمع، لأن الاجتهاد مع الاتفاق على الأصول قد يتبعه حل للمشكلات ومعالجة للواقع، أما الاختلاف المذموم فهو الذي فيه شقاق في الدين وعقم في الرأي، وتناحر وعصبية، مما قد يمثل مدخلاً للأعداء للنيل من الإسلام وتشويه صورته، وبخاصة أن هناك منظمات وفرقًا ومذاهب تمارس الاستقطاب في صفوف المسلمين تحقيقًا لمآربها ومصالحها، متخذة الإسلام ستارًا لها.

ومن أسباب ضعف الأقليات الإسلامية كذلك تغليبها الانتماءات العرقية والإقليمية على انتمائها للإسلام، وفقدانها القدرة على تحقيق التوازن والمواءمة بين مقتضيات الحفاظ على هويتها الإسلامية، وضرورات التفاعل المؤثر مع مجتمعها، الأمر الذي أدى إلى انزوائها في مناطق شبه مغلقة، واقتناعها بأدوار هامشية في مجتمعات تشهد تطورا مُطَّرِدًا في المجالات المختلفة، ولا تعترف إلا بمبدأ «البقاء للأقوى».

ومع هذا لاننكر وجود عوامل خارجية ضاغطة، من أهمها الصراع العقدي الذي يجعل الإسلام هدفًا تُصَوَّبُ إليه السهامُ لمحاولة تحجيم قدرته على الانتشار والتأثير في تلك المجتمعات التي تعيش فراغًا روحيًا، وتجد في الإسلام ملاذًا، فها هو المُنَصِّر لورانس براون يقول: «إن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وحيويته وقدرته على التوسع والانتشار»، ومن هذا المنطلق وظفوا أساليبهم ووسائلهم الإعلامية والفكرية لتذويب هوية الأقليات الإسلامية، وإذا كانت الماركسية في آسيا الوسطى قد سَخَّرَتْ وسائل القهر والاضطهاد والتهجير القسري لاجتثاث الإسلام، فاجتثت دولاً، فما بالك بأقليات محدودة الموارد والإمكانات.

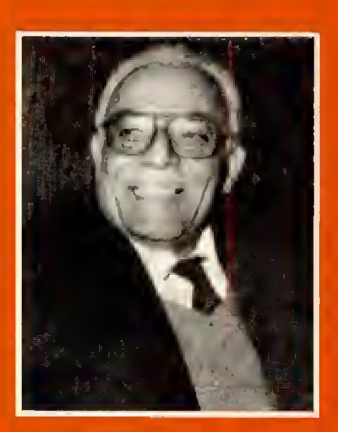
وفي اعتقادي أن تجاوز هذا الواقع غير المرضي لن يكون إلا بإزالة العوامل الضاغطة كلها، وهذا يتطلب تعاون الدول الإسلامية فيما بينها، واستثمار علاقاتها الدولية، وصلاتها مع الدول التي توجد فيها أقليات مسلمة حتى يتم تحسين ظروفها، وتصحيح صورتها النمطية المشوهة، ورفع الظلم عنها.

ومن جانب آخر فإن الدول الإسلامية مطالبة بمَدِّ يد العون للأقليات المسلمة، إذ إن عليها أن تدرس أوضاع هذه الأقليات، وتدعم المؤسسات والمعاهد الدينية التي تحفظ هويتهم. ولابد أن يكون ذلك عن طريق إنشاء الأوقاف، وإحياء هذه الفكرة الأصيلة التي ستشكل موردًا ثابتًا لهم، بدل أن يمدوا يدهم في كل مناسبة يحتاجون فيها إلى بناء مسجد أو مركز أو تطوير مرفق من مرافقهم. كما أن على الدعاة واجبًا تجاههم يتمثل في ضرورة الانطلاق من أجل جمعهم وتوحيد صفوفهم وإزالة الفوارق بينهم، بنشر الفهم الصحيح للإسلام، وإزالة الشوائب والبدع والخرافات، ومعاونتهم على تحديد علاقتهم بالمجتمع الذي يعيشون فيه من خلال ضوابط القيم الإسلامية، وهي إنسانية بطبيعتها تتيح لهم التواؤم مع أي مجتمع يعيشون فيه مهما اختلفت البيئات والنظم. ولابد كذلك من إعدادهم للقيام بواجب الدعوة، وتقديم الصورة الحقيقية للإسلام.

ولعل المملكة العربية السعودية في مقدمة الدول التي أسهمت إسهامًا كبيرًا في إنشاء المراكز والمؤسسات الإسلامية ودعمها وتمويلها، في مناطق متفرقة من العالم، حتى إن هناك مدنًا صغيرة وأماكن نائية يفاجأ المرء بموقعها وحجمها قد امتد إليها هذا الاهتمام.

د. زيد بن عبد المحسن الحسين

التصوّف اليهودي، واللامعقول!



د. حسن ظاظا

الصلوات اليومية الثلاث المفروضة على كل يهودي ويهودية بعد سن التكليف (١٢ سنة) تبدأ هكذا: اسمعْ ياإسرائيل! الرب إلهنا .. الرب واحد ! فحبّ الرب إلهك بكل قلبك، وبكل نفسك، وبكل قوتك... إلخ (التوراة، سفر التثنية ٦: ٤، ٥). ومن الطبيعي أن حب الله - في هذا الإطار - أمر يستهوي المؤمنين، لكن الحبّ إذا انقلب شغلا شاغلا، وهاجسا ملازما، وعشقا أنانيا جنونيا، قد يدفع بهذا المسكين الولهان إلى نوع من الوثنية العاطفية، تتركه هائمًا في سراديب الذهول، ودهاليز اللامعقول. والتصوف اليهودي يقدم لنا - في رحلته الطويلة عبر الأزمنة والأمكنة - معرضا طريفا من صور المجاذيب والمهاويس والمجانين، ومن المنافقين والمشعوذين والدجالين، ومجموعة ضخمة من آلاف الكتب، أكثرها مستور مكتوم، وبعضها معروف معلوم، وصل أثره في الفكر اليهودي إلى منافسة التوراة والتلمود في التكريس والتقديس. وكان من الممكن أن أريح نفسي فلا ألمس أمرا من أخصّ خصوصيات أصحابنا في خلاياهم السرّية، وحلقاتهم المصمتة، لولا أن الصهيونية كانت تستعين بهم في إقناع المترددين بالهجرة إلى فلسطين لأن زمن المسيح (المخلّص) قد اقترب، وأن الطريق إلى الجنة يبدأ من فلسطين، وأنشأتْ من أجل ذلك «كرسي أستاذية للتصوف» في الجامعة العبرية بالقدس، اختارت له واحدا من أعلم أعلامهم، وأثبتهم قدماً في فهم التصوف في أديان الشعوب جميعا، وأوسعهم إحاطة بخفايا التصوف اليهودي، وأشدهم تحمسا للسياسة الصهيونية، هو البروفيسور جيرشُوم شولم المولود في برلين عام ١٨٩٧م - وهي سنة انعقاد المؤتمر العالمي للصهيونية لأول مرة في مدينة بال بسويسرا - والمتوفى في القدس عام ١٩٨٢م. تسلّم مهامّ تدريس التصوف اليهودي عام ١٩٢٧م فشغل كرسي الأستاذية لهذه المادة حتى عام ١٩٦٥م، وكان قد اختير عضوا في الأكاديمية الإسرائيلية ورئيسا لشعبة العلوم الإنسانية منذ عام ١٩٦٠م، ثم وكيلاً للأكاديمية عام ١٩٦٢م ، ورئيسا لها من ١٩٦٨م إلى وفاته في فبراير ١٩٨٢م، ولم يكن اختيار الجامعة والأكاديمية له من قبيل التقدير لعلمه، وهو أعجوبة في غزارته وعمقه، بل لأن الأوساط المهتمة بالتصوف في الشرق والغرب كانت تعرفه وتثق به، من اليابان والصين والهند، إلى العالم الإسلامي، والعالم اليهودي والمسيحي في أوروبا وأمريكا، وإسرائيل طبعا. وساعده على ذلك إتقانه لكثير من اللغات التي كان يؤلف بها، ومعرفته لأدقّ مصطلحات التصوف وأسراره في كل أمة، وهو في نظري شخصية صهيونية تستحق اهتمام الباحثين.

هذا هو الذي سَوَّغ أن أطرق هذا الموضوع. وأبدأ بكتاب مازال يثير جدلا كثيرا حول تأليفه، وعنوانه «كتاب الخليقة» وبالعبرية (سفر يصيرَه)، وهو كتاب مختصر، يرجّح الخبراء أنه يرجع إلى القرن الثالث أو الرابع بعد الميلاد، ولايتجاوز نصه، في أطول نسخة ١٦٠٠ كلمة، وينسبه اليهود إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو خطأ ضخم، يتضح من لغته العبرية المتأخرة، ومن تأثير النظرية الفيثاغورية في خصائص الأعداد وعلاقتها بالعالم الروحاني، واتصالها بنظرية الوجود والعدم، التي يشرح بها المؤلف أن الخالق - جلّ وعلا - خلق الخليقة بتسليط إرادته على الأرقام، المتحابّة والمتنافرة!، ومن النسخ التي عُثر عليها في هذا الزمن الأخير، نسخة خطيةَ وجدت في القاهرة، في مخزن للمخطوطات الخاصة باليهود كان ملحقا بمعبد لهم في منطقة الفسطاط، ومثل هذا المخزن يسمى بالعبرية «جنيزَه» حيث توضع المخطوطات المستبعدة لخطَورة موضوعاتها، أو لكثرة ماوقع فيها من أخطاء الناسخين، ولايمكن إعدامها بالإحراق أو الإلقاء في مقالب القمامة، تكريما للحروف العبرية. وجنيزة الفسطاط أغنى وأشهر هذه المستودعات، وقد تمّ نشر «كتاب الخليقة» عن تلك المخطوطة عام ١٩٤٧م. ويقول المؤلف - المجهول - إن الله - تعالى عن ذلك علوا كبيرا - خلق العالم بتأليف الأرقام الحسابية من واحد إلى عشرة مع حروف اللغة العبرية الاثنين والعشرين، فمن عشرة حسابات ربانية بين الأعداد والحروف خُلق الكون كله! ثم يدخل في تأكيدات الواثق مما يقول، على الرغم مما يتسم به من هُراء.

يمكن للبشر أن يخلقوا كائنا حيًا لو فهموا أسرار «يصيرة»!

ويبدو أن هذا الكتاب قد حُرّمت قراءته، إلى أن جاء علامة اليهود في العصور الوسطى سَعْدِيَا الفيومي، سعيد بن يوسف، فكتب عليه شرحا باللغة العربية، وبالحرف العربي أيضا، وسماه: تفسير «سفر يصيره» لأبينا إبراهيم، كما فسره متصوف يهودي من العصور الوسطى هو شَبَّاني دونولو. أما الشاعر اليهودي الأندلسي يهودا هاليفي أشعر من كتبوا باللغة العبرية في العصور الوسطى، فقد أشاد بهذا الكتاب في كتابه «الخُزَري» إلى حد أن زعم أنه يمكن للبشر أن يخلقوا كائنات حية لو فهموا أسراره! وإمكانية هذا الخلق الذي يتم على يد الراسخين في العلوم الباطنية تسمى (جُولِمْ). وهي من المصطلحات التي تلوكها ألسنة المجانين والدجّالين في المجتمعات الصوفية اليهودية، وتركت للخيال الأوروبي في الأدب والفن فرصة يشطح فيها كما يشاء، ويحاول إبراز الفرق بين إنسان من مخلوقات الله و(جُولِم) من مخلوقات الإنسان، وكثر هذا في الأدب الألماني خاصة في القرن التاسع عشر، قرن الرومانسية.

وكلمة (جولِمْ) لم ترد في عبرية العهد القديم إلا مرة واحدة ووحيدة (المزامير ١٣٩: ١٦)، ففي تسبيحة لداود يقول مخاطبا الله تعالى: «رأتني عيناكَ مُصنَعَةً (جولم) وفي سجلك كُتِبَت كلّ الكائنات، وصُورت أعمارها، قبل أن يكون منها شيء». ووثب الصوفية اليهود على هذه الكلمة فاستغلوها في خرافات السحر، حتى قالوا بإمكان خلق البشر كما يفعل الله! ثم استعملها كتّابُ التلمود (السنهدرين - أي مجلس القضاء والشورى -) للدلالة على جسم آدم أبي البشر في المرحلة الأولى من خلقه، قبل أن يكون بشرا سويّاً ناطقا (السنهدرين ٣٨ب) واستعملت المشنا لفظة جُولِم للدلالة على الإنسان البدائي، الجاهل، غير القادر على الفهم. والكلمة ليست عبرية الأصل، بل آرامية، معناها عند الآراميين: السفينة التي لم يتم بناؤها بعد. فيأتي أولئك الدجالون من المتصوفة، ويدّعون أن أحدهم أخذ كتلة من صلصال من النوع الذي منه خُلق آدم، وصنع منها صورة إنسان، وقرأ عليه بعض العزائم السحرية، وكتب على جبهته لفظة «الحياة» بالحروف العبرية، فبدأ يتنفس ويتحرك، وينمو ويقوى، حتى ضاق منه صانعه، فكتب على جبهته لفظة «الموت» فهوى جثة هامدة! وينقل البروفيسور شولم في كتابه «الرموز الصوفية» أن الله تعالى بدأ بخلق آدم على هيئة تمثال عملاق من صلصال كالفخار، وقبل أن يبعث فيه الحياة أودع فيه من علمه ماشاء، ثم نفخ فيه من روحه - هكذا يقول مدراش (أي تأويل) صوفي من القرن الثاني أو الثالث بعد الميلاد - ويرى بعض الباحثين في علم النفس الاجتماعي أن فكرة (الجولم) عند اليهود ليست إلا صورة رمزية للأمة اليهودية كلها في الشتات، حيث تتكون من عناصر كثيرة لكن بلا حياة، ولافكر خلاق، تنتظر انبعاث الروح فيها، والروح عندهم هي الصهيونية.

لماذا يختلف التصوف اليهودي عن أي تصوّف آخر؟

وقد تعود اليهود منذ عصور بداوتهم الأولى على أن كل مشكلة تعرض لهم لايمكن أن تُحل إلا بمعجزة، وقد يكون بينهم رسول يدعوهم إلى الله، دون أن يصدقوه أو يؤمنوا به حتى يؤيده الله بمعجزة، أو بعدد من المعجزات، فيؤمنون ثم يعودون سريعا إلى كفرهم، في انتظار رسول آخر، ومعجزات أخرى، فموسى عليه السلام دمّر من أجلهم مصر كلها، ثم فلق لهم البحر ليعبروا، وأغرق في هذا البحر عدوّهم فرعون وجنوده، ولكنه - وهو على جبل الطور يتلقى التوراة من ربه - عاد إليهم فوجدهم صنعوا لهم إلها آخر، على شكل عجل من ذهب، له خوار، فهذا أول (جولم) نراه عبر تاريخهم. كان الإيمان بالسحر في قلوبهم أقوى من الإيمان بالله! ومن هنا كان التصوف اليهودي ذا مظهر يختلف عن أي تصوف آخر، فهو مخزون متراكم من معتقدات سرّية باطنية يتقبلها (المريد) عن سلسلة من شيوخ التأويل الباطني، وهو لون من الثقافة الخاصة جداً، تسمى عندهم (القَبّالة). وهي - ككل أسلوب باطني في التدين - كانت تظهر وتقوى في الأزمات التي يتورط فيها اليهود جميعا. فبدأت بوادرها مع انهيار مملكة داود وسليمان أمام بختنصر الكلداني، وتدمير عاصمتهم (أورشليم) وإحراقها، وأخذهم أسرى إلى أرض بابل، حيث ظهر فيهم أنبياء متصوفون وصهيونيون، أشهرهم حزقيال، ودانيال، ونحميا، وعزرا، لكن (القبالة) التي نعرفها في التصوف اليهودي تأخرت خمسمائة عام في انتظار أمة أخرى وخراب آخر بأيدي الرومان، سنة ٧٠ ميلادية ومأأعقبها. والقبالة هي مجموع التيارات الصوفية الغيبية الباطنية التي ازدهرت بعد الشتات الروماني. حيث انطوى اليهود على أنفسهم تحيط بهم الكراهية والهزيمة وعدم الثقة في كل مكان، فعكف أتقياؤهم على نصوص التوراة، يتلمسون فيها أي أمل في الخلاص، ويمعنون في استبطان معانيها ومايمكن أن تبوح به من الخفايا المكنونة التي يستحيل على المفسر المنهجي العادي الوصول إليها، لاحتياجها إلى رياضات تعبدية دقيقة على يد شيخ من شيوخ الطريقة، مشهود له بالفتوحات والكرامات. وانتهى الأمر إلى أن ظهرت أربعة مناهج في تفسير التوراة. أولها وأبسطها يسمى بشاط (بباء ثقيلة يكتبونها فاءً) وهو منهج الشرح البسيط للنص، من خلال معناه اللغوي المباشر، وثانيها يُسمى دراش (أي الدراسة) وهي محاولة استنباط مافي النص من معتقدات وشرائع، ومناقشة ذلك، وتقليب مايتسع له من احتمالات. وثالثها يسمى (رمزْ) وهو التفسير الرمزي الاستنباطي للنصوص، فمثلا أول حرف أبجدي تبدأ به التوراة في لفظة (بريشيت) التي معناها العربي (البدء، أو البداية) هو حرف الباء، وقيمته العددية (٢). ويسأل المفسّر: لماذا لم تبدأ

التصوّف اليهودي، واللامعقول!

أول كلمة في التوراة بحرف الألف، وقيمته العددية (١)؟ فيجيب بأن الكون الذي نعيش فيه هو (الثاني) في الوجود، بعد الله، والله واحد، فاحتجز الألف للدلالة على ذاته العلية... وهكذا، ورابع هذه المناهج اسمه (سُدْ) أي الأمر المسدود، والسرّ، والوصول إلى تفسير التوراة حسب هذا المنهج يحتاج إلى توفيق سماويّ وفطنة داخلية ونور رباني في القلب، ثم إلى تبحّر في الرياضيات، وأسرار الحروف، وعلم الفلك، وتاريخ ما مضى وماسيأتي من أحوال البشر. وهذه المناهج الأربعة، بالحروف الأولى من أسمائها تجتمع في اللغة العبرية (بَرْدس) ومعناها (الفردوس، الجنة)، وكأن المفسر الذي أتقن هذه المناهج الأربعة قد حاز بعلمه هذا مفاتيح الفردوس!.

منزلة النبي إلياس في عالم التصوف اليهودي

وهؤلاء المؤوّلون المتصوفون ينكرون ظاهرة التطوّر، وأثر الزمن، في القبالة. إذ يعتقدون أن التوراة تحتوي على الحقيقة الأبدية السرمدية، الأزلية بأزلية الله، الدائمة بديمومته، منذ آدم إلى مالا نهاية، وأن إشراقات (القبالة) ليست إلا أنوارا تكشف ومضات من هذه الحقيقة. ويذكرون دليلا على ذلك إشارات في التلمود تتحدث عن «خفايا التوراة» وبلغة التلمود «سِتْري توراة» وكذلك «ألغاز التوراة» أو كما يقول التلمود «رَامزي توراة»، ويصف هؤلاء المؤولين بأنهم «أصحاب السرّ» أو «أهل اليقين»، وهذا اليقين عندهم هو «الحكمة الباطنية»، والحائزون لها هم «العارفون» بعلم إلهيّ صوفي (لَدُنّيّ) يقوم على ثلاثة عناصر هي: ١ـ الحقيقة، ٢ـ اليقين، ٣ـ الحكمة. والذين قطعوا في ذلك أشواطا يعجز عنها غيرهم يوصفون بأنهم «أهل المَرْكبة»، فما هي تلك المركبة؟ هي عربة سماوية صعد بها إلياهو (النبي إلياس) حيًّا إلى السماء، وجاء وصفها في نصوص العهد القديم، وللنبي إلياس منزلة خاصة في عالم التصوف اليهودي، لغزارة ماحُكي من معجزاته في تلك النصوص، فقد تنبأ بالغيب أكثر من مرة، وأتى بالكثير من المعجزات، أنزل المطر على جبل الكرمل في عهد آخاب ملك إسرائيل، متحديا أربعمائة كاهن وثني هاجوا وماجوا في حفلة استسقاء فلم يفلحوا في الحصول على قطرة واحدة من الماء، ثم أتى هو بغيث عميم كريم، مما جعل الناس يفتكون بكهنة الكفر الذين كانت الملكة (إيزابلا) اللبنانية الوثنية زوجة آخاب تضعهم تحت حمايتها. وتنبأ بقتل آخاب في معركة حربية، وبقتل زوجته وبقاء جثتها في الطريق تأكلها الكلاب، وأحيا صبيًا ميتا كان ابنا وحيدا لامرأة فقيرة، وتلقى الوحي على جبل الطور حيث كلّمَ الله موسى، وجعل حديدة فأس تعوم على وجه الماء في مدينة أريحا، واتخذ له تلميذا ليكون نبيا من بعده، هو إليشعْ (الْيسع)... ومالايكاد ينتهي من العجائب المروية عنه، إلى أن انتهى به المطاف إلى ضفة الأردن، فقال له إلياس «ماذا أصنع لك قبل أن أفارقك؟ فقال (الْيسع) ليكن لي في روحك سهمان. قال: لقد سألت أمراً عسيرا. إن أنت رأيتني عندما أوخَذُ من عندك يكُنْ لك ذلك، وإلا فلا. وفيما كانا سائرَيْن وهما يتحادثان، إذ (مركبة) نارية وخيل ناريّة قد فصلت بينهما. وطلع إلياس في العاصفة، نحو السماء! والْيسع ناظر، وهو يصرخ: يأبي.. يأبي! يامركبة إسرائيل وفرسانه! ثم لم يره بعد، فشدّ ثيابه وشقّها شطرتين، ورفع عباءة إلياس التي كانت قد سقطت عنه، ووقف على شاطئ الأردن. وأخذ عباءة إلياس التي سقطت عنه وضرب الماء، وقال: أين الربّ إله إلياس الآن كذلك؟ وضرب الماء فانفلق هنا وهناك، وعَبَرَ اليَسَع ورآه بنو الأنبياء الذين في أريحا تُجاهه فقالوا: قد حلّتْ روح إلياس على الْيَسَع، وجاءوا للقائه، وسجدوا له على الأرض، وقالوا: إن مع عبيدكَ خمسين رجلاً ذوي بأس يمضون ويبحثون عن سيدك، فعسى أن يكون حمله روح الربّ، وطرحه على أحد الجبال، أو في أحد الوديان. فقال: لاتبحثوا !» ـ (العهد القديم ـ سفر الملوك الثاني ـ الفصل الثاني ٩ ـ ١٦).

ودخلت مركبة إلياس لهذا المعراج الذي حمله حيًا إلى السماء، في المصطلح الصوفي اليهودي إلى الآن، واستغلها كثير من هواة اللامعقول من الصوفية لشطحاتهم وزياراتهم المزعومة إلى السماء. مع أنهم يعتقدون أن إلياس ينزل إلى الأرض كما يشاء ثم يعود إلى الصعود، وله يوم معين يهبط فيه إلى الأرض احتفالا بعيد الأنوار (الحانوكاه) في ذكرى طرد جيوش أنطيوخوس الرابع (إيبفانس) خليفة الإسكندر الأكبر، وملك بلاد الشام في ذاك الوقت من مدينة أورشليم ـ القدس، وإعادة تطهير المعبد اليهودي بها وتدشينه وفتحه للحجاج اليهود عام ١٦٥ قبل الميلاد، ويكون النبي إلياس في زعمهم محملاً بالحلوى والهدايا ولعب الأطفال مثل (بابا نويل) عند المسيحيين. ولذلك حددت له الهيئة الدينية اليهودية في العصر المسيحي تاريخًا يتاقب عيد الميلاد، حتى لايُفْتن أبناء اليهود بأعياد النصارى، فيتفكك تماسكهم بتراثهم ودينهم. وهكذا تحولت مركبة إلياس في خيال أولئك الصوفية الباحثين عن اللامعقول إلى نوع من الحافلة (الأوتوبيس) ينطلق به من شاء منهم إلى ماوراء الواقع كما يشاء، وأصبحت (المركبة) من الرموز الباطنية التي كثر التأليف فيها بعنوان: «مَعَسيه مركابه»، أي وقائع المركبة، كما سُمّي الصوفية المنتمون إليها «يورْدي مرْكابه» أي نزلاء المركبة، ومنهم من يوصفون أيضا بأنهم الذين عرفوا الرضوان «يودعي حِنْ» بالعبرية، كما سمّاهم شيخهم موسى بن سخمان (١١٩٤ ـ ١٢٧٠م) من أشهر علماء اليهود في الأندلس، المتبحرين في الفقه والشريعة وفي علوم الباطن، على طريقة الكثير من فقهاء الشريعة الإسلامية المعاصرين له.

ويبدو أنه كان بطل «التعايش السلمي» بين علماء الشريعة وعلماء الحقيقة كما تعود المتصوفون أن يسمّوا أنفسهم. وأشهر كتب التصوّف اليهودي عنوانه (زُوهَر) أي الازدهار والإشراق، وهو مجموعة من التعليقات الصوفية على سِيَر الرسل والأنبياء والحكماء، تقع في

خمسة مجلدات ضخمة: ثلاثة منها تحتوي على النص الأساسي للزوهر، والمجلد الرابع عنوانه «مراجعات في الزوهر» والخامس يحمل عنوان: «الزوهر الحديث». وهي روايات تبدأ من أعالي العصور الوسطى؛ انزلق كثير منها إلى كتب الصوفية المسلمين، ولاشك أن بحثا مقارنا في هذا الاتجاه لن يخلو من فائدة وأهمية، لاسيما أن الزوهر قد دخل في عداد الكتب الدينية المقدسة عند اليهود، كثرت عليه الشروح والحواشي والهوامش والتعليقات، وصار بعض اليهود يتبركون به كتبركهم بالتوراة والتلمود.

وعلى غرار الزوهر ظهر كتاب كبير آخر في التصوف اليهودي اسمه «بَاهير» أي الباهر المتألق، يرجع تأليفه إلى القرن الثاني عشر الميلادي، ولغته عبرية، ويسير على طريقة (المدراش) أي يختار نصا من العهد القديم، ويحاول تفسيره، لكن على منهج جماعة صوفية تسمى نفسها «هياكل النور»، وينسب مؤلف الكتاب بعض نقوله إلى مجموعة من أشهر شيوخ التلمود، وأحيانا يخترع أسماء رواة وهميين! ويكثر استعمال القصص القصيرة في هذا الكتاب، وبعض هذه القصص - أو الأمثال - شديد التعقيد.

ويبقى النبي إلياس في كل هذه التيارات القبالية الصوفية دعامة أساسية، ينتسبون إليه، ويتقمصون روحه، ويستلهمونه، ولكن هناك شيخ من مشايخ هذه الطرق بنى على علم إلياس الذي تلقاه مباشرة عن الله، فلسفة ونظرية جديدة في التصوف، هو لُوريا، واسمه الكامل (إسحق لوريا إشكنازي ١٥٣٤ - ١٥٧٢م) ولد لأسرة يهودية محترمة في ألمانيا وبولنده، وكان أبوه قد هاجر إلى أورشليم - القدس، حيث تزوج بيهودية شرقية (سفردية)، ثم مات أبوه وهو طفل صغير، فهاجرت به أمه إلى مصر حيث كان لها أخ في القاهرة. وكانت مصر تعجّ بالصوفية المسلمين والمسيحيين واليهود، ووجد من المتصوفين اليهود رجلا يرتضيه شيخًا، هو داود بن سليمان بن أبي زمرة، ثم خليفته بصلئيل إشكنازي. وسكن جزيرة صغيرة في نيل القاهرة، وراح يدرس تراث أهل الباطن السابقين (القبالة) وبخاصة ماكان منها متصلا بالذات الإلهية، وسأل نفسه: قبل خلق هذا الكون لم يكن شيء غير الله تعالى، وكان بذاته يملأ الكون كله، ثم شاءت إرادته أن يكون بين يديه خلق آخر، وهكذا (انكمشت) ذاته - تعالى عن ذلك علوا كبيرا - ليهيء لمخلوقاته عالماً في مُلكه. دار هذا في خَلَده في عصر (انكماش) اليهود من إسبانيا بعد قيام الحكم الكاثوليكي فيها على أنقاض الدولة الإسلامية، التي عاش فيها اليهود آمنين، ولم تكن مضت خمسون سنة على تلك المأساة منذ مولده، وهكذا ظن بالمقارنة أن الله تعالى قبل الزمان والمكان انكمش ليترك فراغا للخليقة، كما أن نظريته في الرضا، والتفاؤل، والثقة بأن هذا كله مقدمة لأمر عظيم هو مجيء المسيح المخلّص المنتظر! وتبعه في ذلك قباليّون آخرون أشهرهم حاييم فيتال، وموسى كورد، وفيرو. ووصلَنا من أولهما مخطوط عثر عليه في (جنيزة القاهرة) لأن إسحق لوريا لم يكتب شيئًا. وعندما سئل في ذلك قال: كنت آخذ القلم لأكتب، فأفاجأ ببحار زاخرة من علم النبي إلياس تموج أمامي، وتشلّ فكري ويدي وقلمي! وكان يقول بأن الرياضة الصوفية يجب أن تتم بفرح - لا ببكاء - لأن الفرح عنوان الرضا بالاقتراب من الله. وكان موته المبكّر - في الثامنة والثلاثين من عمره - مؤكدا لفكرته هذه، في حين كان اليهود: ﴿ أحرص الناس على حياة يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ (البقرة:٩٦)، وكانوا هم أنفسهم يتبركون بالكبار الطاعنين في السنّ، ويرون أنهم يشبهون في ذلك المعمرين من الأسلاف مثل آدم ونوح وإبراهيم وموسى وغيرهم. وفي انتظار المسيح المخلص المنتظر، عكف الكثير من تلاميذ لوريا وحاييم فيتال على الاستنباطات والتأويلات والحسابات الفلكية لمعرفة موعد مجيء هذا المخلّص، وكان منهم ناثان الألماني المقيم بغزة، وماكاد يظهر المهرّج اليهودي «شباي صبي» في أوائل القرن التالي، ثم يدّعي أنه هو مخلّص اليهود حتى تبعه ناثان وقام بالدعاية له - وبمشاركته في أرباح العملية أيضا - إلى أن أنشأ شباي في اليهودية دينا جديدا هو (الدونمه) الذي يتستر أتباعه بالإسلام في المظهر، ويبطنون نوعا من التعصب الصهيوني في الباطن، وماتزال فئة قليلة من أتباع هذا السلوك موجودة في تركيا إلى الآن.

تعود اليهود على أن كل مشكلة لاتحل إلا بمعجزة

تسلّم راية اللامعقول الصوفي في شمال أوروبا وشرقها في غضون القرن الثامن عشر يهودي إشكنازي هو إسرائيل بن إليعازر، المشهور باسم بَعَلْ شمْ طُوب، أي (صاحب الاسم الطيب). وجميع المتصوفين حوله في «الجماعة المقدسة» وكان هو رئيسهم وحمل لقب «صدّيق» وهو المعلم والمرشد والآمر المطاع، وكانت ألقابه تُختصر بحروفها العبرية الأولى في لفظة (أدمور): أدونيو = سيدنا، مورينو = معلمنا، ربينو = كبيرنا. وكان شيخ الطريقة هنا يسجل خواطره، ثم أظهرها منشورة في كتاب عنوانه: أخبار يعقوب يوسف، عام ١٧٦٠م. وتلقته الجماعة، وعاملته معاملة الأحاديث النبوية، وجعلته مثالا يُحتذى في التأليف من بعده، فظهرت عشرات بل مئات من خواطر هؤلاء المرشدين، وكانت صورة جديدة من الفكر الصوفي، عرفت عند مؤرخي الفكر اليهودي باسم (الحسيدية) . وفي اللغة العبرية تؤدي كلمة (حَسيد) معنى الإيمان وكثرة العبادة والتقوى مع كثير من الحزن الوقور. وحتى لاتتهم الحسيدية بالإلحاد ركّزت اهتمامها بالتوراة والزوهر، وخصوصا هذا الأخير بشطحاته القباليّة، وبهلوانياته التلمودية. وكانت الحسيدية تتوجه إلى الطبقات الدنيا من اليهود، فتبعث فيهم سرور الانتماء لعبادة جماعية، وحماسة التأييد لشيخهم الصدّيق، وغرور التحليق في آفاق من العلم لايعرفها الحاخام العادي، ولايعترف بها.

«مجانين الله»!

وإذا كان لوريا يقول بأن الكون بكل ماخلقه الله فيه هو (غير الله)، وأنه أراد أن يربط هذا الكون بالزمان والمكان، فإنه - كما نقلْنا من تعاليمه - قد أخلى في ملكه اللانهائي (فراغًا) لهذا الكون الذي شاء أن يخلقه. أما الحسيدية فتقول إن الله موجود في كل الوجود، والزوهر

التصوّف اليهودي، واللامعقول!

يقول صراحة بأنه ليس من مكان ولا لحظة ولا ذرّة إلا والله فيها، فهناك وحدة وجود بين الخالق والمخلوقات. وبسرعة أثارت هذه المناقشات معارضة من أصحاب الشريعة ممثلين في (الحاخام) ضد الصوفية أتباع (الصدّيق). وصدرت قرارات بتكفير الحسيدية. وكان حامل لواء هذا التشدد الشرعي الحاخام إلياهو زَلْمانْ بن سَالومُون المشهور بين يهود أوروبا الشرقية بلقب «علامة فلْنيوس، في ليتوانيا» وبالعبرية «جَأُوْنْ فيلنا» في القرن الثامن عشر، وكان اليهود يحجون إليه من كل مكان، وبسببه اشتهرت

وراثة على النظام الملكي، في أسرة «إسرائيل بن إليعازر - بَعَلْ شمْ طُوب» وكان منهم (أمراء) يوزعون على تجمعات اليهود في كل أوروبا الشرقية، ثم قامت في الحسيدية أسر منافسة أشهرها أسرة «دُب ميير الواعظ» التي استمرت من ١٧٧٤ إلى ١٩٠٣م. وأسرة «كـيْـل ميخال الواعظ» التي استمرت من القرن الثامن عشر حتى أواسط هذا القرن العشرين الحالي. وكذلك أسرة «مناحن ناضوم تويرسكي» في تشرنوبيل، ودامت من أوائل القرن التاسع عشر الميلادي إلى أواسط القرن العشرين، وأسر كثيرة في كل مكان، بعضها هاجر إلى فلسطين أو إلى أمريكا تحت ضغط المطاردة النازية الهتلرية لليهود.

مكاسب الصهيونية من المعارضة الحسيدية

والذين رحلوا إلى فلسطين شجعوا أعدادا كبيرة من أولئك البؤساء «مجانين الله» على السير معهم، مع أنهم لايشاركون الصهيونية في تطلعها إلى الحداثة، وماكان يحلم به هرتسل زعيم الصهيونية العالمية، من مجتمع يهودي حرّ ومتقدّم، يشارك العالم المعاصر في عمله وفنه وقوانينه ونظمه، وفي

العربي ثالثا، أملاً في أن ترحل هذه الجموع اليهودية الفوضوية عن الأراضي الشيوعية بأسرع مايمكن: من روسيا وأوكرانيا وبولنده ورومانيا وبلغاريا وبلاد البلطيق. وقد تم للشيوعية ماأرادت، وظهرت في فلسطين (مستوطنات حسيدية) وحيّ كامل في تل أبيب، فضلا عن قاعدتهم الدينية والفكرية في حي «مئه شعاريم» أي المائة باب، في قلب مدينة القدس، يناصبون الصهيونية العداء، ولكنها تصبر عليهم لأنهم يؤثرون ببياناتهم وخطبهم في الطبقات الفقيرة من يهود العالم، فينزحون إلى فلسطين مخدوعين، ويندمون حيث لاينفع الندم. ثم إن وجود هذه التجمعات الغريبة، الرافضة لأي تطور، الغيورة على تراث تلقته من شيوخها بدون تفكير، يقدم للسياحة في إسرائيل صورة طريفة، وصفقة مُربحة من كل زائر - غير يهودي - يأتي للحج في الأرض المقدسة، عند قبر المسيح، أو في كنيسة الميلاد ببيت لحم، أو في الناصرة التي إلى اسمها ينسب النصارى. ثم إن وجود الحسيديّة في النظام الصهيوني يقدم دليلا على وجود معارضة - أي ديمقراطية - في داخل النظام الصهيوني، ويكبح من جماح اليساريين والتقدميين، ويمكن الحاخام - حتى المتفاني في الولاء للصهيونية - من أن يبدي هيبة الشريعة على الملأ، وأمام العالم، بحيث تبدو الدولة الصهيونية، وكأنها إحياء لما علق بأذهان الناس عن حكم داود وسليمان، الذي يقرأون عنه في كتبهم المقدسة. فمكاسب الصهيونية من هذه المعارضة الحسيدية أعظم بكثير من خطرها، مما يكفل لها البقاء مابقيت الصهيونية في فلسطين، والحسيدية أيضا تُمثّل مشكلة صعبة الحل أمام المقاومة العربية الفلسطينية مسلمة أو مسيحية. فالحسيدية تضمر للصهيونية تهمة الفسوق والمروق، والكفر أحيانا، فما بالها أمام هذه الجموع من (الجوييم) مسلمين ومسيحيين، وهم عندها - بطبيعة الحال - أشد كفرا من بيريز ورابين - لأنهم مختلفون دينيا وعنصريا ولغويا، وهم - وهذا هو الأهم - ليسوا من شعب الله المختار، مهما ادعوا أنهم من ذرية إبراهيم. ومن هنا كان عائد التصوف اليهودي على الصهيونية جديرًا بإغضائها وتسامحها، وجديرا منا نحن بالاهتمام بهذا الموضوع.

لازال هواة اللامعقول من صوفية اليهود يستغلون مركبة إلياس في زياراتهم المزعومة إلى السماء

العاصمة الليتوانية باسم «أورشليم الثلج»! وكان يرفض أي صلح أو تفاهم مع الحسيدية الذين اشتهروا في عصره بلقب «مجانين الله!» وكان شيوخهم المرشدون يتزيون بقلنسوة خاصة من الفراء، ذات حافّة عريضة تزينها ثلاثة عشر من أذناب حيوان الصيد القطبي المسمّى زِبْلين، وخالفوا عامة الأمة في بعض أحكام الذبح الشرعي وفي بعض الأدعية والصلوات والحفلات، لاسيما وجبة جماعية يسمونها «الوجبة الثالثة» حيث تتخللها الدروس الدينية، والخطب الحماسية. وتحولت زعامة الحسيدية إلى

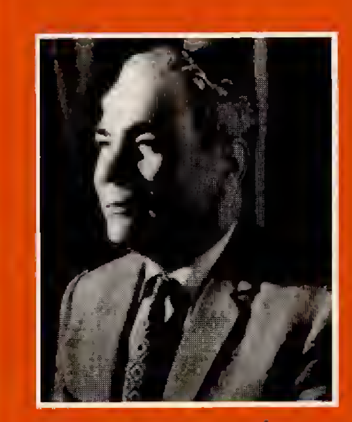
مصادر ثروته أيضا. هاجر الحسيديون خوفا من القتل بأسلحة الألمان ومن رقابة الشيوعية في شرق أوروبا على ظاهرة الإفراط في التديّن، حتى بين المسيحيين والمسلمين، ومن الخوف الموروث إزاء اليهود لمهارتهم في التسلل بين القوانين الاقتصادية الماركسية، وبعدهم عن أي ولاء للحكومات الشيوعية، لأنهم نشأوا على ولاء مضادّ هو الولاء للتوراة والتلمود والزوهر وأرض الميعاد. وهذا مايفسر لنا إسراع كل النظم الشيوعية في الاعتراف بالصهيونية أولا، وقيام دولتها في فلسطين ثانيا، وحماية بقائها وإرهابها للعالم

شعرنا

بين أصالة العرب ورطانة الغرب

العرب أمة شاعرة، ومازال الشعر مهوى أفئدة كتابها ومقصد نقادها، ويحاول الكاتب أن يكون شاعرًا بكل وسيلة، فإذا أخفق تحول إلى النثر وأصبح كاتب قصة أو ناقدا، كالدكتور طه حسين الذي بدأ شاعرًا ثم تحول ناقدا، ومثل أفلاطون الذي أراد أن يكون شاعرًا فلما أخفق هاجم الشعراء.

ولذلك وجدنا أكثر الدراسات النقدية العربية اهتمت بالشعر، أكثر من اهتمامها بالنثر، ولما رفض الرواد أن يكونوا كتاب قصّة، فضلوا كتابة المقالات الأدبية أو الفكرية أو الاجتماعية، وتحول بعضهم إلى نقاد بعد أن أخفقوا مبدعين في الشعر.



بقلم: أ.د. يوسف عز الدين

ومازالت قضية الشعر شغل أكثر النقاد المعاصرين، وقد ساعدهم التطور الكبير للشعر منذ العصر الجاهلي حتى اليوم على تتبع مسيرته، لأنه كان يأتي عفو القريحة الوقّادة مصورًا بصدق حياة العرب وأحاسيسهم ، ثم دخلت الفلسفات في ثناياه. وكان الشعر يصف الواقع العربي بما فيه من حيوان وجماد ونبات. ومايسيطر عليه من عادات وتقاليد، ويصف البيئة من أطلال وصحراء ورياح، ثم دخل في عوالم بعيدة كل البعد عن الواقع عندما دخلت الفلسفة فيه حشرًا.

بدأ التطور والتجديد منذ العصر الإسلامي بمفاهيمه السامية واصطلاحاته الجديدة ومُثُله الكريمة التي جاءت إلى البشرية كلها، فخرج من سلطان القبيلة وثوب العشيرة إلى مُثُل إنسانية واسعة، فكان الإسلام سبيلاً عميق الأثر في التجديد والتطور.

واستمر التجديد في العصر الأموي فدخلته رقة الغزل، وسهولة النسيب، وسلامة العبارة، وحرارة الوجدان. واحتكّ في العصر العباسي بمُثُل متعددة وفلسفات وآراء أجنبية كاليونانية والهندية والفارسية، فتأثر بها أسلوبًا ومعنى، واختلفت صوره الفنية، وتغيّر اتجاهه الحضاري، فترك بعضهم أو أكثرهم المطالع الغزلية وذكْرَ الأطلال، واختلف المضمون متأثرا بما ترجم من أفلاطون وأرسطو، وأخذ النقاد بعض آراء اليونان في العنصر الجمالي والمحاكاة والتقليد، وحشر بعض الشعراء أسماء أعلام اليونان في أدبهم ليقال إنهم يعرفون أدب اليونان.

الأدب العربي والشعر الحديث

وفي القرن التاسع عشر الميلادي بدأ الاحتكاك بالأدب الغربي، وبدأ بعض النقاد يترجمون الأدب الفرنسي، فتأثر به مطران خليل مطران والأخطل الصغير، ثم بدأت اللغة

شعرنا بين أصالة العرب ورطانة الغرب

الإنجليزية تغزو الفكر العربي بتياراتها وفلسفتها، وأثّر الرومانسيون كالشاعرين وردز ورث Words Worth وكولرج في القصائد الغنائية، ثم دُرِّستْ مختارات الشعر الإنجليزي في المدارس فأُعجب بها عدد من الشعراء، وأخذوا يقلدون مافيها من المعاني، فظهر الفكر الإبداعي (الرومانسي) عند أحمد رامي وصالح جودت وناجي، وظهرت تياراته في شعراء مجلة (أبوللو) مع الحفاظ على الأصالة العربية، فكانوا حلقة تجديد متصلة بالبارودي وإسماعيل صبري وأحمد شوقي، وكان لهم تجديد في المعاني والخيال والصور والمعالجة الذاتية والتعبير الفني عن الحياة الحضارية الجديدة التي تغلغلت في حياة الشرق.

وكانت التيارات الجديدة تقابل برد فعل من قبل الرافعي والمنفلوطي وبعض الشعراء المحافظين خوفًا على ضياع الذوق الفني العربي الأصيل، وهاجم العقاد والمازني وغيرهما التيار القديم والقادة والروّاد في (الديوان)، وهاجما زعيمهما الشاعر عبدالرحمن شكري الذي كان خيرهم علما وأجملهم شعرا وأعمقهم


عبد الرحمن شكري

فهما للتجديد بعد أن فضحهم بما أخذوه من الأدب الغربي. لأنه فاقهم في دراسة الأدب الغربي عندما ذهب إلى إنجلترا ودرس الإنجليزية إضافة إلى دراسته في مصر.

عمود الشعر والفلسفة

أصبحت قضية الشعر الحديث ونقده معقدة بعد أن دخلت التيارات الغربية وفلسفَاتها في شعر الشعراء.. وساروا في ظلالها دون فهم لجذورها التي أدتْ إلى ظهورها والعوامل المؤدية لبروزها.

فكم من هؤلاء درس الدوافع النفسية التي أدت إلى إنتاج هؤلاء الأدباء في الغرب، وبخاصة بعد الحرب العظمى وماجرته من تحلُّلٍ خُلُقي؛ والعمل الأدبي ماهو إلا إخراج طاقة مترسبة في اللاشعور من جرّاء الحرمان من الميول الفردية، التي حالت الظروف دون تنفيسها، وظهرت هذه الطاقة في نظم قصيدة أو كتابة قصة ليخفف الكاتب أو الفنان من الكبت النفسي، وأصبح نظم الشعر أداة للتخفيف من الحرمان الروحي، وحلّق الشاعر في خياله حالمًا بالحب والمجد، ينسى معاناته الروحية وينفّس عما رسب فيها ويُشبع وجدانه وروحه.

وشعراء الغرب يؤكدون على الذات والنرجسية وحب الشهرة والزهو الفني، لهذا حكم فرويد على الأدباء فقال: إن الغريزة الجنسية هي المسيطرة على إنتاجهم، ويُصعدها الأديب في إبداعه، ويرى الإبداع تعويض الفنان عن كبته لرغباته عندما كان طفلاً، وعن هؤلاء نقلنا التيارات الغربية المتناقضة دون أن ندرسها ونحصي مافيها من عقد نفسية وعُصَاب روحي، فلابد إذن أن نقوم بإحصاء لهذه التيارات المتناقضة، ونضع القوعد التي تسُود هذه الآداب للتخلص من الضار منها

والاستفادة من الصالح، فقد وضع العرب القدامى قواعد النقد الشعري بعمود الشعر الذي قال عنه المرزوقي في ديوان الحماسة بأنه يجب أن يتكون من: شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة، كثرت سوائر الأمثال، وشوارد الأبيات، والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم، والتئامها على تخيّر لذيذ من النظم، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما، حتى لامنافرة بينهما، فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر.

والسؤال الآن: أما تزال مُثُل عمود الشعر ضرورية للشعر الحديث؟

وهل الشعراء فقهوا هذا العمود ودرسوا آراء الآمدي وابن قتيبة والجرجاني قبل نقدهم ونظمهم؟

أم يجب أن نُغيِّر إلى هذه المفاهيم الغربية ونقلد الغرب بما فيه من أدران وشذوذ نفسي وجمال وإبداع؟

الواقع أنني أجبت على هذا السؤال في كتابيّ «تطور الشعر العربي الحديث» و «قول في النقد وحداثة الأدب» وقد شرحت المعاني الغامضة في فهم التطور والتجديد والشعر عند العرب والغرب.

قواعد النقد الحديث

بالرغم من مرور فترة طويلة على الأدب الحديث، وكثرة ماكتب فيه - بداية من محمود سامي البارودي وشوقي حتى عصرنا - فلم تتوضح القواعد النقدية في الأدب العربي، ولم تتبلور فكرة النقد عندنا لاستمرار تدفق آراء الغرب، وعدم الاستقرار الذهني والروحي عند المبدعين. مع أن النقد العربي القديم وُضعت له القواعد وقُعدتَ الاتجاهات العامة فيه كما رأينا في قول المرزوقي، وإن خرج بعض الشعراء عليها في كل العصور، إلا أن الشعر يبقى محافظًا على الرواء اللفظي والموسيقى، وجمال المعنى، وصور الخيال

الجميلة، وحفظ أصالة الشعر، والذوق المرهف حال دون الإسفاف.

فلابد لنا من إحصاء أدبي نقدي لكل شاعر، ومن ثم نخرج بالنتائج التي وصل إليها العرب، وأن يكون هدف الإحصاء الأمور التالية:

١- لغة الشعر الحديث وما المفردات الفنية التي استعملها الشاعر في إبداعه.

٢- هل من الضروري أن تدخل الفلسفة وكل أفكار الغرب في الشعر المعاصر: وماأثر الفلسفة في بروز المعاني؟ وأثر الوضوح والسهولة والغموض والتعمية في جمال الشعر.

٣- ماأثر الموسيقى في التفريق بين الشعر والنثر في العصر الحديث؟.

٤- ما الفرق بين النثر والشعر؟.

٥- هل الشعر رفاهية فنية وصفة روحية أم رسالة اجتماعية وخلقية؟.

إن المعرفة اتسعت، ووسائلها تقدمت، وطرق البحث العلمي سهلت، ومع هذا التقدم والسهولة فقد أساء إلى التجديد نَفَرٌ بإضاعة المعاني والموسيقى وجمال العبارة ووضوح القصد، فمن الضروري أن يتفرغ ناقد ذكي صبور لدراسة الشعر كما قام النقاد القدامى بدراسة واسعة وعميقة للشعر، وبعد أن يدرس آراء النقاد العرب مع نقاد الغرب مثل هازلت وسنت بيف وغيرهما من نقاد الأدبين الإنجليزي والفرنسي يوازن بينهما مع النقد العربي المعاصر، على أن يكون قد فهم النقد العربي القديم عند قدامة بن جعفر والآمدي والجرجاني وابن رشيق وغيرهم من النقاد ليكوّن لنفسه رأيا واضحا عن أساليب النقد في الغرب وعند العرب.

كيف يكون الشعر؟

الشعر جزء من عواطف الشاعر وفكره ولاشعوره الكامن في العقل الباطن.. وعندما تتدفق الأحاسيس على الشاعر ويسيطر الإلهام، يأتي دور العقل الذي يوجه الإبداع. وتنثال عليه حركة النظم نابضة بالحياة، متأثرا بحياة مجتمعه وحضارته، ولكن من منظور جديد وأسلوب حديث، فنرى الشعر قد اختلطت فيه دوافع إنسانية وتأثيرات اجتماعية متعددة، ودوافع ذاتية بحتة، وعلى الناقد الحديث فهم كل ذلك ليضع قواعد جديدة للنقد المعاصر.

إن حرية الشاعر الفردية تعكس لنا أثر المجتمع والحضارة، لأنه يحس بالمشكلات قبل غيره، ولو انفرد بذاتية مطلقة، وتتكوّن الصور الاجتماعية والإنسانيةً متدفقة مع الإحساس الفردي والعواطف الذاتية والرغبة الفنية.

التجديد الحديث والديوان

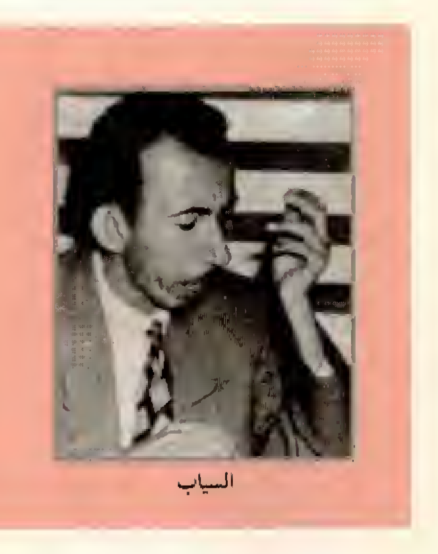
تُعد آراء العقاد والمازني في (الديوان) من أبرز ماكُتب في الفكر النقدي الحديث، فقد أراد العقاد أن يكون مجددا متأثرا بصديقيه عبدالرحمن شكري والمازني، وأراد أن يشتهر، فشن هجوما عنيفا على قادة الأدب والشعر، ونال شوقي بعبارات خرجت عن مألوف النقد المحايد، إذ كان متأثرا بالمدرسة الإنجليزية ونقدها بالدرجة الأولى مع أنه لم يقدر على التخلص من مدرسة شوقي في التجديد، ولم يصل إلى ماوصل إليه شوقي من خيال مُجنح ومعان سامية وأسلوب مشرق جميل وثقافة عالية.

ومن قراءة شعر العقاد نجد شعره بلا رواء عذب، ولايجري في ثناياه الماء فهو لايروي المتعة الفنية والإحساس الروحي الجميل، وإنما شعره أقرب إلى شعر العلماء، والصناعة اللفظية سيطرت على أكثره.

ولم يوفق في أن يُكسب شعره الرقة والعذوبة والسهولة حتى في شعره الغزلي فقد قال:

الحب ما الحب إلا أنه بدل
من الخلود فما أغلاه من بدل
نُزهَى به حين يُزهى الخالدون بما
نالوه من أبَد باقٍ ومن أزَل
داموا وقد حسدونا في سعادّتهم
على السعادة بين الموت والقبل

وبالرغم من أن الأبيات من البحر البسيط الذي يكون عادة حلو الموسيقى، عذب الجرس، جميل الوقع، فلم يقدر العقاد على الاستفادة منه، والقصيدة مفككة العرى لاتماسكَ في نسيجها، وخلت من وهج العاطفة، وهبطت في برود عاطفي وفني. لذلك لما أحس بالعجز الفني اضطر إلى شرح الفكرة نثرًا.. لأن العقاد لم يتذوق الشعر الإنجليزي وإنما تأثر بترجمة الشعر، ولو أحس بالموسيقى الغربية وتمتع بها لكان شعره أكثر شفافية وعذوبة، ولم نجد في ألفاظه الجرس والإيحاء اللفظي الذي نجده في الشعر العربي، لأن الشعر الإنجليزي الذي تأثر به كان مترجما، ومتى ترجم الشعر يفقد الكثير


السياب

من الموسيقى والإيحاء اللفظي، وقد استفاد من الأدب الغربي فائدة جيدة نزار قباني وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة ويوسف عزالدين، لأنهم فهموه وجرت في حياتهم معانيه. أما العقاد فقد استفاد من الإنجليزية بواسطة ترجمة عبدالرحمن شكري له، كما ظهرت آثار الأدب الفرنسي في أدب خليل مطران والأخطل الصغير وطه حسين وغيرهم.

إن الاختلاف بين الشعرين العربي والغربي واضح لأن كلاً منهما له قاعدة فلسفية تختلف عن الأخرى، وظهر هذا الاختلاف في الشعر والنثر كما ظهر عند النقاد العرب حتى في

شعرنا بين أصالة العرب ورطانة الغرب

النص الواحد، ففي قول الشاعر كثيرّ عزة:

ولما قضينا من منى كلّ حاجة
ومسّح بالأركان مَنْ هُو ماسح
وَشُدَّت على دُهْمِ المهَاري رِحَالُنا
ولم ينظر الغاديِ الذي هو رائحُ
أخَذْنَا بأطراف الأحاديث بَيْنَنَا
وَسالتْ بأعنَاقِ المَطِي الأباطحُ

رآها ابن قتيبة في الشعر والشعراء جميلة الألفاظ أنيقة الكلمات لكنها لن تصل بك إلى نتيجة أو طائل، لكن هذا الحكم لم يُرض أبا هلال العسكري في كتاب "الصناعتين"، أو عبدالقاهر في "أسرار البلاغة" ولا ابن جنيّ في كتاب "الخصائص"، وقد أثنى هؤلاء على الأبيات بصورة مطولة.

هذا الاختلاف أحد قواعد النقد الأدبي

خليل مطران

التي يسير عليها المبدع، وقد تأثر كاتبا (الديوان) في العصر الحديث بشعر الكنوز الذهبية وبعض الكتب الإنجليزية فأرادا أن يكون الأدب العربي على غرار الأدب الغربي، لأن الكنوز الذهبية فيها أجمل الشعر وأعذبه، وكان فهم عبدالرحمن شكري أكثر من فهم العقاد؛ لأنهما درسا اللغة الإنجليزية، وكان العقاد يستفيد من عبدالرحمن شكري كما قال الدكتور رمزي مفتاح؛ لأنه كان يترجم له الشعر الإنجليزي، ودراسة العقاد الإنجليزية كانت متأخرة لم يحس فيها بإيحاء الكلمة وهمس الألفاظ، وبقي الأثر العقلي في شعره وفُقد ماؤه ورواءه.

ووجدنا الأصالة عند بعض الشعراء الذين جاءوا بعد الحرب العالمية الثانية فكان نظمهم جيداً وأحاسيسهم صادقة وجاء بعدهم جيل لايملك ثقافة الغرب ولايعرف الأصالة الشعرية إلا في قراءة الجرائد والمجلات. فضاعت مثله في التجديد ولم يحتفظ بالقاعدة العربية الفنية الأصيلة، فما فهم الجديد وما استوعب القديم، فجنحت أقلامهم إلى الغموض في العبارة والتعمية في الجملة لضعف الأداة الفنية وقصور الألفاظ والكلمات المعبرة عن إحساسهم المتدفق وعواطفهم الجامحة وآرائهم الواسعة، ولو أنهم حفظوا من عيون الشعر العربي لرهفت أحاسيسهم وصُقلت مواهبهم؛ لأنهم يملكون طاقة هائلة فنية وقريحة وقادة، لكن الألفاظ تعوزهم، والكلمات تخونهم لقلة ماحفظوه، وشحّ محصولهم اللغوي، فجرَّهم ذلك كله إلى الغموض اللفظي والتعمية الفكرية والرمز الباهت.

إن التوهج العاطفي والإحساس الدافق يحتاجان إلى وضوح في التعبير وجمال في الرمز وصدق في الأسلوب. لأن الشعر إحساس عميق الجذور بعيد الغور، ولابد له من أداة لغوية كبيرة لاستخراج هذا الإبداع العاطفي، لأن النفس الإنسانية التي صقلتها التجارب، وعمقت فيها الأحاسيس في اللاشعور أو العقل الباطن لايقدر على التعبير عنها إلا الشاعر المبدع المتمكن من لغته، وله إحساس مرهف ورفعة ذوق ليفهم جمال الطبيعة في خفقة الزهرة وابتسامة الندى وفرحة القلب وحزن النفس، فقد خلق الله وأبدع وصوَّر أجمل الصور وأحلاها، وهي بحاجة إلى قابلية فنية وإطار لغوي جميل ليرسم هذا الجمال ويُصوّر إبداع الطبيعة والنفس الإنسانية.

الشعور إحساس عميق يعبر باللفظ الموحي والعبارة الرقيقة السهلة، والعقلُ يوجه هذا الإحساس نحو الإبداع، ويجمع بين سموّ المعاني وحلاوة الجرس؛ لأن الموسيقى الخلابة والكلمات الواضحة الموحية تسعد النفس ولو كانت غامضة في مجازها معقدة في البيان والمعاني، وهذا ماعناه الشاعران الانجليزيان وردز ورث وكولرج عندما نظما القصائد الغنائية Tyrical Ballads وهو يتفق تمام الاتفاق مع عمود الشعر الذي ذكره المرزوقي ونقاد العرب.

الخلاصة:

الشعر هو الموسيقى والمعنى واللغة، فالموسيقى يجب أن تكون عذبة جميلة والمعنى يجب أن يكون ساميا، واللغة يجب أن تكون سلسة سهلة.

وتختلف لغة الشعر عن لغة العلوم لرقتها وشفافيتها، وعلى مقدار مااختزن اللاشعور من ألفاظ، وعلى مقدار مارسب فيه من تجارب، سوف تظهر في شعر الشاعر عند الإبداع، وتسمو المعاني عند النظم الجيد، ووضع الكلمة في مكانها المناسب موهبة تصقلها التجارب اللغوية ومقدار مايحفظ الشاعر من الشعر. والشعر ليس لغة وحسب، إنما هو اختيار دقيق لهذه اللغة وانتقاء لكلماتها لأنها أداة الفن الشعري ومقوماتها الناضجة. وعلى مقدار بُعد الشاعر عن الجافي والمهجور يسمو شعره وتحلو ألفاظه وتوحي الكلمات بما يهمس في خاطر الشاعر ومايريد أن يوصله للمتلقي من إبداع..

الخصائص العامة للتشريع الإسلامي

د. شوكت محمد عليان

اتَّسم التشريع الإسلامي بجملة من الخصائص، نوجز أهمها في مايلي:

١- إن أساس مايرتكز عليه التشريع الإسلامي في جوهره وأصله الوحْي الإلهيّ، فهو ليس بشري الطابع، وإنه مهما تشعب وتنوع في أحكامه فمصدره الله تبارك وتعالى.

٢- التشريع الإسلامي تناول كل شأن من شؤون الحياة، فهو ليس مقتصراً على الأمور الدينية، إذ يترتب عليه قصر الدين على العبادات، وإبعاد الإنسان عن أمور الدنيا، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وابْتَغِ فيما آتاكَ الله الدارَ الآخِرَةَ ولاتَنسَ نَصيبَكَ مَن الدُنيا﴾ (القصص:٧٧) فكتاب الله الكريم لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا وبين فيه حكمها، وألزم الناس به، وحذّرهم من مخالفته، وأحكامه تتميز بالعمومية والشمول المطلق لكل جوانب الحياة، والتي أهمها العقيدة والأحكام المتعلقة بها، والأحكام المتعلقة بتهذيب النفوس، وإصلاح شأنها، والأحكام المتعلقة بعلاقات الأفراد بالسلطة الحاكمة وعلاقة السلطة برعاياها، ومن الطبيعي أن يدخل في ذلك الجرائم والعقوبات، وكافة الحقوق والواجبات.

٣- التشريع الإسلامي يعتبر أتم وأكمل التشريعات السماوية ﴿اليومَ أكْمَلْتُ لكُم دينكم وأتْمَمتُ عَليكُم نِعمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الإسلامَ ديناً﴾ (المائدة:٣) وهو يخاطب عموم الناس دون استثناء أحد كائنا مَنْ كان ﴿وما أرسلناك إلا كافّة للناس بَشيرا ونذيرا﴾ (سبأ:٢٨) ﴿وماأرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾ (الأنبياء:١٠٧).

٤- أحكام التشريع الإسلامي ليست قاصرة على درء المفاسد، بمعنى أنها ليست رد فعل لما يقدمه الناس فحسب، بل هي تملك زمام المبادرة أيضًا، فهي فعل بجانب كونها رد فعل، يعني أنها إيجابية من حيث مصدرها، فهي آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر ﴿كُنتُم خَيرَ أمة أُخرِجَتْ للناس تأمُرُونَ بالمعروفِ وتَنْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ﴾ (آل عمران:١١٠).

٥- التشريع الإسلامي يعتمد على حقائق لاتتبدل وأصول لاتتغير، ومبادىء عامة، وقواعد كلية، تنسجم مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وتتفق ومختلف ألوان البشر، وأحكامه صالحة لكل زمان وفي كل مكان، ولكل ما جدَّ ومايجدّ من أحداث.

٦- التشريع الإسلامي عادل مستوف لما يعني الخلائق من وجوه المصلحة الّتي يعلمها الله لهم، فهو ديني الطابع باعتبار أن مصدره الوحي الإلهي، وبذلك يجب أن تخضع سائر المعاملات للأحكام الشرعية، وتنضبط بضوابطها، وكما ترتبط أعمال الإنسان بالثواب والعقاب الأخروي، فإنها يجب أن ترتبط بالعقاب الدنيوي، وتأخذ الجزاء وفق النصوص الواردة، مقدرة كانت أم غير مقدرة.

وعلى ذلك فالتزام الأفراد والحكومات تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية إنما يأتي من واقع الإيمان بهذه الشريعة الإسلامية،

الخصائص العامة للتشريع الإسلامي

فهي جزء منها ولايتم إسلام المرء إلا بالتزام أحكام التشريع الإسلامي وتطبيقها في كافة شؤون الحياة وعلى عموم رعايا الدولة الإسلامية.

٧- التشريع الإسلامي يقوم على أساس الرحمة في العدل بين عموم الناس في تحقيق المصالح ودرء المفاسد، وتأكيدًا لذلك فقد روعي في تشريع العقوبات مايلي:

أ- المساواة بين الجريمة والعقوبة، لأن العقوبة شرعت للضرورة، وهذه الضرورة ينبغي أن تقدر بقدرها، لأنها ليست أصلاً في الإصلاح وتحقيق المصالح، فهي طارئة عليه، فمن المنطق أن لايتوسع فيها، قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سيئة سَيِّئَةٌ مِّثْلُها فَمَن عَفَا وأَصْلَحَ فأجره على الله﴾ (الشورى: ٤٠)، وتظهر المساواة في عقوبة القصاص سواء في عقوبة القتل أو الجروح العمدية. والقصاص أن يُفعَلَ بالجاني مثل فعله بالمجنيِّ عليه، وتظهر المساواة كذلك في عقوبة التعزير والحدود.

والذي تنبغي الإشارة إليه والتنبيه عليه، أنه ليست المساواة المعنية هنا المساواة المادية فحسب، بل المساواة المعنوية أيضًا، وهي لاتظهر إلا بالتأمل والتفكر والتدبر في كيفية المعصية، والضرر الذي تحمله الجريمة والعقوبة المقدرة لها، وقد تكفّل الشارع ببيان عقوبات الحدود مفصلة محددة ليس لكائن من كان الزيادة عليها أو الإنقاص منها، فالمساواة بين الناس في إقامة العقوبات الشرعية خير رادع للأقوياء الذين قد تسول لهم قوتهم الإجرام لما يظنونه أو يرجونه من محاباة لهم بسبب قوتهم، فيفلتون من العقاب.

ب - قوة الردع والزجر، بحيث تكون مخيفة كافية لتأديب الجاني وردعه عن العودة إلى فعل الجريمة مرة أخرى، وتكون رادعة لغيره، وعظة وعبرة لكل من تسول له نفسه فعل الجريمة، لأن الإنسان إذا علم أنّ العقوبة التي تنتظره فيما لو أقدم على فعل الجريمة عقوبة شديدة صارمة، فإنه يُحدث نفسه في التراجع عنها خوفا منها، فيجب أن تكون العقوبة مخيفة، وقد قيل: العقوبات موانع قبل الفعل، زواجر بعده.

ج - حماية المجتمع من الجريمة مع عدم إغفال مصلحة الفرد، ففي عقوبات الحدود مثلا جعلت الشريعة الإسلامية رعاية مصلحة المجرم، تقف عند حد التأكد من بلوغه وعقله واختياره وعدم وقوعه في حالات الضرورة أو الإكراه أو الجهل.

فإذا ارتكب إنسان جريمة من جرائم الحدود وهو مختار بالغ عاقل غير مضطر ولامكره استحق العقوبة المقررة، فمن حق المجتمع أن يُصان وتُحفظ مصالحه، ولايتم ذلك إلا بإمضاء العقوبة على مرتكبي الجرائم.

وفي جرائم التعازير تظهر مصلحة المجرم عند تقدير العقوبة تبعًا لشخصية المجرم وظروفه وميوله وسوابقه، لأن هذه الجرائم لاتبلغ في خطورتها مبلغ جرائم الحدود والقصاص، ولذلك روعي فيها جانب المجرم.

قال الدهلوي(١) والمظالم على ثلاثة أقسام:

تَعَدٍّ على النفس.

وتَعَدٍّ على أعضاء الناس.

وتَعَدٍّ على أموال الناس.

فاقتضت حكمة الله أن يزجر عن كل نوع من هذه الأنواع بزواجر قوية تردع الناس عن أن يفعلوا ذلك مرة أخرى، ولاينبغي أن يجعل هذه الزواجر على مرتبة واحدة، فالقتل ليس كقطع الطَّرف، أو كاستهلاك المال، والدواعي التي تنبعث منها هذه المظالم لها مراتب، فمن البديهي أنَّ تَعَمُّدَ القتلِ ليس كالتساهل المنجَر إلى الخطأ.

٨- التشريع الإسلامي قواعده كلية، تستطيع كل أمة في مختلف أنحاء المعمورة أن تستنبط منها القوانين واللوائح والنظم التي تكفل لها تحقيق مصالحها، وتنظم علاقتها على أتم وجه وأكمله، وإن رائد هذه القواعد خير الإنسانية، ومن ثَمَّ فهي تتسم بالعموم والشمول والكمال، فقد أتتْ بما لم يكن سبق في سالف الشرائع الأخرى من الأحكام، مع احتوائها لخير ماتضمنته الديانات الأولى، وتحاشيها لكل ماكان في تلك الديانات ملائمًا للأجيال السابقة، ولم يعد ملائمًا للتطور مع الحياة المتجددة، ولامنسجمًا مع روح الإسلام السمحة الرحيمة في كل مادعت إليه، أمرًا ونهيًا، ترغيبا وترهيبا.

٩- التشريعات السماوية السابقة على الإسلام كلها كانت خاصة، بمعنى أن كل رسول كان يخص بدعوته جماعة معينة لاتكلف بها جماعة أخرى، وإن القَدْرَ المشترك بين هذه الرسالات جميعا هو تصحيح عقيدة التوحيد أولا، ثم معالجة الأمراض الخلقية والاجتماعية ثانيا.

وقد دل الكتاب والسنة على عمومية هذا التشريع، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الذي نَزّلَ الفُرقانَ عَلَى عَبْدِه لِيَكُونَ لِلعالمِينَ نَذيرا﴾ (الفرقان: ١)، وقَالَ صلى الله عليه

وسلم: «كانَ كُلُّ نبي يُبعَث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى كل أحمر وأسود»(٢).

فالتشريع الإسلامي وحده الذي جاءت هدايته شاملة لجميع الناس، ويعالج كل القضايا، ويمكن تطبيقه في كل زمان وفي كل مكان ، كما يمكن استنباط حكم لكل حادثة تَجدُّ، وهو واف بكل مايحتاج إليه البشر، لأنه قائم على تنظيم جميع العلاقات، بين الإنسان وخالقه، وبين الإنسان ونفسه، وبين الإنسان وغيره في شتى مجالات الحياة المختلفة، فهو قائم على كليّات وقواعد عامة للتشريع، يمكن أن يُستنبط منها أحكام لكل القضايا، وعلاجٌ لجميع المشاكل، وقد كانت هذه القضايا أساس الاجتهاد في التشريع الإسلامي، الأمر الذي نشأ عنه وجود المذاهب الفقهية، وتناولها لكثير من الأحكام التي نشأت عن أحداث مستقبلية لم تكن موجودة قبل عصر المذاهب، وبالتالي لم يكن لها أحكام صريحة من نصوص الكتاب أو السنَّة.

ومن مظاهر عالمية التشريع الإسلامي أنه ينفي التمييز العنصري في تكاليفه، لأن البشرية كلها ترجع إلى أصلٍ واحد، وإنَّ اختلاف الألوان واللغات إنما هو للتعارف والتحابّ ولاشيء وراء ذلك، ﴿ياأيها الناسُ إنّا خلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأنثى وَجَعلناكُمْ شُعُوبًا وَقَبائلَ لتعارَفُوا إنَّ أكرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣).

ومن مظاهر عالمية التشريع الإسلامي أنه احتضن الرسالات والديانات كلها، وقرر مع وحدة الإله وحدة العقيدة ووحدة الدين الذي أرسَلَ اللهُ به رسله جميعًا، أما التشريع الذي ينظم حياة جماعة بعينها فهو الذي يتطور في الرسالات الإلهية على أيدي الرسل تبعًا لحاجات الناس، وقد استبقى الإسلام الصالح من المبادىء والتشريعات والنظم في الرسالات السابقة، وأكملَ ماكان بحاجة إلى إكمال أو مَزيد منها وأتمَّهُ ﴿اليومَ أكْمَلْتُ لَكُم دينَكمْ وأتْمَمتُ عَليكُم نعمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الإسلامَ دينا﴾ (المائدة:٣).

ومن مظاهر عالمية التشريع الإسلامي أنه يجعل العدل المطلق في مجالات الحياة المختلفة أصلاً من أصول الحياة في المجتمع، العدل في تسوية البشر جميعًا من حيث النشأة والجنس والحقوق والواجبات، والعدل في إقامة فُرَص الحياة والعلم، والعدل دون حاجز من جنس أو لون أو طبقة أو كائنًا ما كان من الحواجز، والعدل في الحكم والتقاضي دون تأثير من مودَّة أو قَرابة ونحوها، هذا من حيث المبدأ، أما وسائل تحقيق ذلك فهي غير محدودة في التشريع الإسلامي، لأنها قابلة للتجدد حسب مقتضيات الأحوال وظروف كل بيئة، وقد تركت دون تحديد للأخذ بالأصلح من تجارب البشر.

ومن مظاهر عالمية التشريع الإسلامي أنه لايبت الصلة بينه وبين من لايؤمنون به ماداموا لايحاربونه ولايمنعون دعوته أن تبلغ الناس، ولايفسدون في الأرض، بل يفسح للداخلين في سلطانه مجال الحياة كاملاً، ويفسح لمن لاسلطان له عليهم مجال التعاون العالمي في الخير والصلاح، قال تعالى: ﴿ لايَنْهاكُمُ اللهُ عن الذينَ لم يقاتلوكم في الدين ولم يُخْرجُوكُمْ من ديارِكُمْ أنْ تَبروهُمْ وتُقْسطُوا إلَيْهمْ إنَّ اللهَ يُحبُّ المُقْسطين﴾ (الممتحنة:٨).

فهو يوفرَ العدالة المطلقة لجميع المقيمين في أرضه بصرف النظر عن عقائدهم وألوانهم ومواطنهم قال تعالى: ﴿ وإذا قُلْتُم فَاعْدلُو ولَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ (الأنعام:١٥٢)، ﴿وإذا حكَمْتُم بَيْن النَّاسِ أن تَحكُمُوا بالعَدْل﴾ (النساء:٥٨).

١٠ـ التشريع الإسلامي جاء تلبية لتحقيق مطالب الجسد، حيث جاءت أحكامه بأمور الدين والدنيا على حد سواء ﴿وابْتَغِ فيْما آتاكَ الله الدارَ الآخرةَ ولاتَنْسَ نَصيْبَكَ منَ الدُّنْيا﴾ (القصص:٧٧)، والتكاليف الشرعية إنما أُقيمت لإصلاح الروح وتطهيرها وليس لإرهاق البدن وتسخيره ﴿مايُريدُ الله ليَجْعل عَلَيْكُم منْ حَرَج ولكن يُريد ليُطهِّركُم﴾ (المائدة:٦)، كما أن التكاليف الشرعية روعي فيها رفع الحرج، بتشريع الرُّخَص كقصر الصلاة الرباعية في السفر، والجمع بين الصلاتين في وقت واحد تقديما وتأخيرا، والفطر في رمضان بعذر السفر أو المرض. والتخفيف عن الجاني ماأمكن، وذلك بدرء الحدود بالشبهات، وجعل دية المقتول خطأ على العاقلة، وغير ذلك، كشرع الكفارات فهي جوابر للنقص الذي وقع فيه الجاني بارتكابه الجناية، وجعلها الله تعالى ماحية للذنوب.

ومن مظاهر رفع الحرج قلة التكاليف التي كلف الله تعالى بها عباده، إذ في كثرة التكاليف من الحَرَج مايُضعف النفس ويورثها الملل والانقطاع عن الأعمال النافعة، وقد تفضل الله تعالى برفع ذلك كله، قال صلى الله عليه وسلم: (إن لربك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فاعط كل ذي حق حقه).

١١ـ التشريع الإسلامي يقوم على أسس عقلانية، ولايُسلِّم بالغيب إلا في دائرة محدودة، لاتُخلُّ بالعقلانية الحرة، ولابروح البحث العِلمي المجرد عن التفسير

الخصائص العامة للتشريع الإسلامي

الغيبي الذي لايقوم عليه دليل من التجربة العلمية والتفكير السليم.

ومن هنا نقول: إن أساس الاعتقاد بوجود الله هو التفكير الحر لا التسليم المستند إلى التقليد، يؤكد لنا هذا المعنى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إنّ في خَلْق السَّمَوَات والأرْض واخْتلاف اللّيْل والنَّهَار لآيَات لأولِي الألْبَاب﴾ (آل عمران:١٩٠)، وقوله جلّ شأنه: ﴿إنّ في ذَلكَ لآيَات لأولِي النُّهى﴾ (طه:١٢٨)، وغير ذلك من نصوص القرآن الكريم التي تخاطب العقل البشري وترفع من شأنه، وفي قوله تعالى: ﴿ومَاأنْزَل عَلَيْكُم منَ الكتَاب والحكْمَة..﴾ (البقرة:٢٣١) يقول الزمخشري(٣) في تفسير هذه الآية: المقصود بها الكتاب والسنّة، وحيث إن السنّة متجددة بتجدد العمل التشريعي من جانب الخلفاء الراشدين والصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فإن معيار السنن الجديدة هو الحكمة، أي عقلانية التشريع الجديد، وقيامه على أسس تقرّ بها العقول السليمة لا عن أهواء مجردة.

وفي قوله تعالى: ﴿يُؤتي الحكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ومَنْ يُؤْتَ الحكْمَةَ فَقَدْ أُوتيَ خَيْرًا كَثيْرًا﴾ (البقرة:٢٦٩) يقول القرطبي: إن الحكمة مصدر من الإحكام، وهو الإتقان في قول أو فعل، فكتاب الله تعالى حكمة، وسنة نبيه حكمة، وأصل الحكمة مايمتنع به من السفه، فقيل للعلم حكمة لأنه يمتنع به، وبه يعلم الامتناع من السفه، وهو كل فعل قبيح، وكذا القرآن والعقل والفهم(٤).

ومن هذا يستفاد أن حرية الإنسان لاتتحقق إلا على يديه بترفعه عن الانتهازية المتهافتة، وهذا هو السر في تخبط السياسات العالمية في ظلمات المصالح الاستغلالية دون أن تقيم وزنًا لأهمية التعاون الإنساني المجرد من أنانية المادية، ومايتطلبه تطور العلوم، وتفجر الطاقات الجديدة من ضرورة إقامة السلم على أسس عقلانية جديدة متجردة من أغلال الأنانية الضيقة والمصالح المادية المباشرة، وشتان بين شرع يدعو للحكمة، وشرع يُملي على الشعوب المستضعفة والطبقات المستهان بها مصالحه الخاصة دون مراعاة مصالح الآخرين، ويقر في العلاقات الدولية الأمر الواقع مهما كان منافيا للعدل، وشرع يدعو لإزالة ماينافي العدل من الأمر الواقع(٥).

ومن مظاهر العقلانية في التشريع الإسلامي أنه ينسجم والفطرةَ الإنسانية ﴿فطْرَةَ اللّه الّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاتَبْديْلَ لخَلْق اللّه﴾(الروم:٣٠) أي لاتبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، وقال صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يُعرب عنه لسانُه، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكرا وإما كفورا»(٦).

وفي رواية لأبي هريرة «مامنْ مولود يولد إلا على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يشركانه..»(٧).

والفطرة مافطر الله عليه الإنسان ظاهرا أو باطنا، فمشْيُ الإنسان على رجليه فطرة ظاهرية ـ جسدية ـ ومحاولة مشيه على يديه خلاف الفطرة، واستنتاج المسببات من أسبابها، والنتائج من مقدماتها فطرة باطنية ـ عقلية ـ ومحاولة استنتاج الشيء من غير سببه خلاف الفطرة العقلية، والجزم بأنّ مانشاهده من الأشياء حقائق ثابتة هو في نفس الأمر فطرة عقلية، وإنكار قوم ثبوت ذلك خلاف الفطرة العقلية، فتعين أن يكون مرادنا من الفطرة هنا هو الفطرة الباطنية العقلية، وهذا يعني أن الأصول التي جاء بها الإسلام هي من الفطرة، وتَتْبعها أصول وتفريعات هي من المقبولة لدى الفطرة، فالعادات الصالحة الموروثة في البشر مثلا هي من المقبولة لدى الفطرة وليست من الفطرة، وعلى ذلك فوصف الآية الكريمة الإسلام بالفطرة، أي إنه جاء على مافُطر عليه البشر عقلا، فهو مقصود بالفطرة، فلأجل تلبُّسه بدلائل الفطرة أطلق عليه لفظ الفطرة، كأنه هو الفطرة نفسها، كما يقال فلان عدل. وهذا من أعظم ماتميَّز به التشريع الإسلامي عن غيره من التشريعات، فلم يوصف تشريع سابق بأنه الفطرة أو بأنه ينسجم مع الفطرة، كما لم يوصف أحدها بالعمومية والشمولية والدوام، والاستقرار والثبات.

الهوامش:

(١) حجة الله البالغة، ج٢، ص١١٢، الطبعة الأولى، ١٣٥٢هـ.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١، ص ٤٣٩، الطبعة السلفية.

(٣) الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج١، ص ٢٦٨ و٣٣٤، محمود بن عمر الزمخشري.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ج٣، ص ٣٣٠ للقرطبي (بتصرف يسير).

(٥) نصوص قانونية وشرعية، ص ٧٩ ـ ٨٣، للأستاذ الدكتور صلاح الدين الناهي، ط ١٩٧١م.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص ٥٧٢، لابن كثير، ط: دار الفكر، عمّان.

(٧) الشريعة، ص ١٩٤، للآجري.

الأدبُ الشعبيّ العبريّ

مصدر لقصص الأطفال الإسرائيلي

عبدالتواب يوسف

كان الأدب الشعبي في كل الدنيا من المصادر الرئيسة لحكايات الأطفال، ولعل نموذج ألف ليلة وليلة، بجانب ماجمعه الأخوان "جريم" في ألمانيا، و"جاكوب جاكويز" و "أندرولانج" في إنجلترا، و "أسبيو نورسن" في النرويج، و "أندرسون" في الدانمرك، و "كريلوف" في روسيا، و"شارل بيرو" في فرنسا، من أجمل ماقُدم للأطفال في هذا المجال، بل إن كثيرين ـ منهم "ماري لو هوايت" ـ يرون أن ثلاثة أرباع قصص الأطفال مأخوذة عن الأدب الشعبي، وأن الربع الباقي أكثره مكتوب بنفس طريقة الأدب الشعبي وعلى منواله. ودراسة الأدب الشعبي العبري الذي كانت حكاياته تُروى للأطفال اليهود عبر التاريخ تكشف لنا عن النماذج التي كانوا يتلقونها جيلا بعد جيل، ولسوف نتجول في هذا التراث، ذاكرين مصادره حتى لا نُتهم بأننا نأتي بشيء من عندنا وننسبه إليهم.

وفي هذا الأدب الشعبي حكايات عن أنبياء الله، ونحن نؤمن بهم جميعا، لذلك سوف ننأى بأنفسنا عنها، لأننا لانحب أن ننسب إليهم ـ عليهم السلام ـ ماداب اليهود على روايته، رغم مافيه من إساءات واختلافات.. ولعل أشهر الصفات التي لصقت باليهودي عبر التاريخ، هي لفظة (التائه) .. وهو حقًا تائه على مدى الدهر، منذ خرجوا من مصر، لكي يضلوا طريقهم في سيناء، وليس المقصود هو هذا فحسب، بل لقد خرجوا على تعاليم نبيهم موسى، ودينهم، وتاهوا وضلوا حين عبدوا عجلا ذهبيا، أي أن اليهودي تائه واقعيا، ومعنويا، ولعل هذا اللون من القصص هو أكثرها انتشاراً في أدبهم الشعبي، بل وأدبهم المكتوب، وهم سعداء بتكرار هذه الفكرة المسيطرة عليهم، لأنهم في النهاية السعيدة يعثرون على الطريق، وعلى ضالتهم المفقودة، التي قد تكون "فلسطين" أو "المهجر الأمريكي" أو "الكنز"، وبعضهم يتجاوز ذلك إلى الوصول إلى شط الأمان والإيمان.

وإذا كنا قد وضعنا أيدينا على هذه النماذج التي نوردها هنا، فإن ذلك لايعني بالقطع أن كلّ أدبهم الشعبي على الصورة نفسها، لكن وجود هذه النوعية على نطاق واسع يؤكد خصائصهم النفسية والاجتماعية والخلقية، ولسنا بذلك نتجنى عليهم، أو نختلق مانسبه إليهم، أو نلصق بهم ماليس فيهم، لكننا هنا نقدمماابتكروه كجماعة، وما ألفوه كأمة، وارتضوا به لأنفسهم منهجًا وطريقًا في الحياة، والحقيقة أن هذه الحكايات واضحة الدلالات، لاتحتاج منا إلى شرح أو تفسير أو تبيان، لأنها تلقي الضوء على أسلوب تفكيرهم.

وهذا النبع الذي يستقون منه حكايات

الأدب الشعبي العبري مصدر لقصص الأطفال الإسرائيلي

أطفالهم - كما فعلت كل شعوب الدنيا - يبقى وباستمرار المصدر الأساس، وإذا فسد ما فيه، فإننا لانتوقع قط أن تجري منه مياه صافية عذبة، ولن يتأتى له إلا أن يفيض بكل ماهو موجع وسام.

الحكاية الأولى :

الميراث الكبير

(عن ميدراتي: حكايات عبرية)

كان أحد أثرياء بني إسرائيل يعيش في مكان بعيد عن القدس، وقد أرسل ابنه إليها ليتعلم، وأثناء غيبة الابن مرض الأب فجأة، وعندما أحس باقتراب منيته كتب وصية، وفيها ترك كل مايملك لواحد من عبيده، حدده بالاسم، واشترط أن يختار الابن شيئا واحدا من ثروة أبيه ليتملكه.

ومان ودَّع الأب الحياة حتى سارع ذلك العبد إلى القدس وفي تصوره أنه سوف يرفل في ثروة الأب، وأبلغ الابن بما حدث، وأراه وصية أبيه، وأحس الشاب بحزن عميق يجتاحه، واجتاحه الأسى لرحيل والده، وبكى طويلا ذلك الرجل الذي ستظل ذكراه دائما باقية.. وبعد أن توارت مظاهر الحزن بدأ الشاب يفكر في مصيره، وفي الموقف الذي أصبح فيه، خاصة وقد كان يتوقع أن يكون هو الوارث الوحيد لأبيه.

مضى الشاب إلى أستاذ له، وكان هذا الأستاذ مشهودًا له بالحكمة، وأطلعه على الوصية، وهو يشعر بمرارة شديدة إزاء تصرف أبيه، وتفريطه في ثروته لذلك العبد، ولم يعر ابنه اهتماما، بل لم يظهر نحوه أية مشاعر طيبة.

قال المعلم: لاتقل كلمة واحدة ضد أبيك، فهو رجل ذكي حكيم بل غاية في الذكاء، وهو بحق يحبك كل الحب، والدليل القاطع على ذلك هذه الوصية.

صاح الشاب: هذه الوصية؟! .. هذه الوصية بالذات؟!. طبعا، أمر مالي لايعنيك ولايهمك.. أين هي الحكمة في هذه الوصية التي تمنح العبد كل شيء بينما تحرم الابن من كل حقوقه الطبيعية القانونية؟

قال الأستاذ: هذا غير صحيح.. فلا هو فعل هذه، ولا تلك.. لقد تصرف كأب محب لابنه، وحفظ لك ممتلكاتك، إذا كان لديك قدر من الإحساس والفهم لما فعل.

صاح الفتى وهو في أقصى حالات الدهشة: كيف؟!

قال الأستاذ في لهجة رقيقة: اسمعني إذن، وسوف تبدي إعجاباً شديدا بما فعله أبوك، إنه عندما أحس أن نهايته قد اقتربت، وأنه ماضٍ إلى المصير الذي سوف يذهب إليه جميع الناس إن عاجلاً أو آجلاً، فكر على النحو التالي: سوف أرحل عن هذه الدنيا وابني بعيد عني، ولن يستطيع إزاء ذلك أن يضع يده على ماأملك، وما سأتركه له، وعندما يتأكد عبيدي من وفاتي سوف يستولون على كل شيء، ولكي يحوزوا أموالي وأرضي سوف يخفون نبأ رحيلي عن ابني الحبيب، فلا يتلقى فيَّ العزاء، فما كان منه إلا أن خص ذلك العبد بثروته لكي يحافظ عليها أولا من عدوان الآخرين، وينتقل إليك الخبر بأسرع مايكون، ثم ترك لك اختيار شيء واحد من أملاكه، وعلى ذلك لم يجد العبد مفرا من أن يسرع بإبلاغك بما حدث ليؤكد ملكيته لكل شيء كما تقول الوصية.

صاح الشاب: وماجدوى كل ذلك بالنسبة لي؟ هل يرد لي ذلك أملاكي التي حرمت منها ظلما؟

قال الرجل الطيب: آه.. إني أرى الحكمة في تصرف المسنين، ألا تعرف أن مايملكه العبد كله هو ملك لسيده قانونًا؟ ثم ألم يترك لك الأب الحق في اختيار شيء واحد من ممتلكاته؟ .. لماذا لاتختار هذا العبد بالذات - كشيء واحد - من ممتلكات أبيك، وبامتلاكك له تمتلك كل ثروته؟ هذا هو ماقصده أبوك.

وأبدى الشاب إعجابه الشديد بذكاء أبيه وحكمة معلمه، واستعاد ثروته.

وعندما نحلل الحكاية نجد أن المحور الأساس فيها هو "المال"، وليس ذلك بجديد على اليهود، عبر تاريخهم الطويل، الأب وهو يموت لايفكر إلا في وصول المال إلى ابنه، والعبد لايفكر إلا في الاستيلاء عليه، والابن لايفكر في موت أبيه بقدر مايعنيه الحصول على ميراثه، والأستاذ لايفكر إلا في حل واحد نابع من معرفته بقانون سائد، هو أن العبد وكل مايخصه ملك لسيده.. وقد يعجبنا ذكاء الأب وحكمة المعلم، لكنه ذلك الذكاء الذي ينحصر في أمور الثروة والمال، إنها كل اهتمامهم، وموضع تفكيرهم ومحور حياتهم، إنها البطل في القصة، وأبطالها الأربعة: الأب، العبد، الابن، المعلم؛ جميعهم يركزون على موضوع الثروة، ولاشيء غيرها، والمال ولاشيء سواه، والمشكلة الإنسانية إزاء المال الذي هو من زينة الحياة الدنيا، هو هل المال حلال أم حرام؟ ثم هل هو هدف في حد ذاته أم هو وسيلة لهدف آخر؟.

ومنذ قديم الزمان، وحكايات شعبية عربية

تسفه قيمة المال، وترفض أن تجعله هو الحياة، بل وترى أن الفلوس تخرب النفوس، وتفسدها، بعكس ماتفعله هذه الحكاية من الأدب الشعبي العبري، التي تكشف عن رغبة عارمة في امتلاك المال، بكل السبل: الحلال، والحرام.

الحكاية الثانية :

الأبوة والبنوة

كل الديانات، والأخلاقيات، تنادي بألا يجحد الأبناء فضل الآباء، وأن عليهم - أي الأبناء - أن يعملوا على رعاية والديهم، وفي القرآن الكريم: ﴿ولاتَقُل لهما أفٍّ ولاتَنْهَرْهُما وقُلْ لهما قَوْلا كَريما واخْفِضْ لهُما جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَة وقُل رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَاني صَغيْرا﴾ (الإسراء:٢٣-٢٤)، ترى ماذا يقولون هم؟!

يُحكى أن طائرا كان عليه أن يعبر بحرا تهب عليه العواصف، وعليه أن يحمل أبناءه، لينقلهم واحداً بعد الآخر.. البحر واسع جداً والريح عنيفة للغاية، وكان على الطائر الأب أن يحمل أولاده، واحداً بعد الآخر، بين مخالبه القوية، وعندما كان في منتصف الطريق مع أول الأبناء تحولت الريح إلى عاصفة شديدة، فقال الأب لطفله:

- ياولدي، انظر كيف أناضل، وأخاطر بحياتي من أجلك.. هل - عندما تكبر - سوف تفعل الشيء نفسه معي، وتعينني على الحياة في شيخوختي؟

أجاب الطائر الصغير: كل ماأرجوه ياأبي أن تصل بي إلى بر السلامة، وعندما تكبر سوف أفعل كل ماتطلب مني وأستجيب لجميع أوامرك.

عند ذلك أسقط الطائر الأب ابنه في البحر ليغرق، وقال:

- هذا مايجب علينا أن نفعله مع الكذابين من أمثالك.!

وعاد الطائر الأب إلى الشط، ليحمل طفله الثاني، وطرح عليه السؤال نفسه، وتلقى الإجابة نفسها.. فألقى به في البحر وهو يصيح:

- وأنت أيضًا كذاب!!

ورجع إلى الشاطيء، وحمل طفله الثالث بين مخالبه، وانطلق به، وعندما سأله السؤال نفسه، قال الابن:

- ياأبي العزيز، مما لاشك فيه أنك تصارع بكل قوة، وتخاطر بحياتك من أجلي، ولاشك أني سوف أخطيء إذا أنا لم أردَّ لك جميلك عندما تصبح عجوزًا، لكنني لاأستطيع أن أربط نفسي بمثل هذا الوعد، ومع ذلك فإن في مقدوري عندما أكبر، ويكون لدي أطفال، أن أناضل وأصارع من أجلهم كما تفعل معي الآن.

عند ذلك قال الطائر الأب:

- أحسنت ياطفلي.. أحسنت القول.. وكنت حكيما فيما قلت.. سوف أحافظ على حياتك وسأحملك إلى الشط سالما.

* * *

هذه الحكاية مأخوذة عن مذكرات

The Memoirs of Gluckel'

of Hameln

ترجمة: Marvin Lowenthal

نشرته دار: Harper & Brothers,

New York

البعض يرون في الحكاية دعوة للمستقبل على حساب الماضي، ولنا أن نقارن بين ذلك وبين المثل العامي «اللي مالوش قديم، مالوش جديد».

... هل رأيتم قسوة كهذه؟!

أب، يقتل اثنين من أطفاله، لتصوره أنهما يكذبان، مع أنه يطرح عليهم سؤالاً مضللا، في موقف بالغ الصعوبة، وعندما لايجيبان بما يتفق مع وجهة نظره يلقي بهما في البحر لكي يغرقا.. ويحافظ على حياة الثالث لأنه وعد بأن يهتم بأبنائه عندما يولدون.

والغريب أن للقصة مقدمة تقول: "إن علينا أن نواجه آلاما عظاما من أجل أبنائنا، ولكن على هذا الأساس يبنى العالم، ومع ذلك فإنه يجدر بنا أن نفهم أنه إذا صنع الأبناء الكثير من أجل آبائهم فلسوف يُرهق الأبناء من ذلك ويسأمون..".

ولنا أن نقارن هذه الحكاية بما يروونه في أدبنا الشعبي العربي(١) عن جد، وابن، وحفيد.. وعندما يضيق الابن الشاب بأبيه الجد العجوز الذي كف عن العمل في شيخوخته يسأله أن يترك الدار، وكانت الدنيا تمطر، فطلب الحفيد من أبيه الشاب أن يأتي بشيء لجده يتقي به المطر، ووافق الأب، ودخل الصغير لفترة طالت وعندما استعجله الأب وجاء كان يحمل نصف حِرام (بطانية)، وعندما سأله أبوه عن سر تأخره، أجاب:

- كنت أقطع الحرام نصفين لأستبقي نصفا لك عندما أكبر وأطلب منك أن تغادر البيت.. وبكى الشاب تأثرا وأعاد أباه معززا مكرما.

الحكاية الثالثة :

اللعب بالأرقام (والرياضيات)

ذات يوم..

استلقى رجلان من هيلم Helm، في حمام بخار، والعرق يتصبب منهما، ولكي يدفعا عن نفسهما السأم، إذ هما لايفعلان شيئا، رأيا أن يناقشا بعض مسائل الرياضيات الصعبة والعميقة.

الأدب الشعبي العبري مصدر لقصص الأطفال الإسرائيلي

قال الأول لزميله:

ـ مثلاً، إذا، كانت المسافة من هنا إلى مدينة ديفنسك تستغرق أربع ساعات على ظهر حصان واحد؛ أليس صحيحا أن نقول إننا إذا استخدمنا حصانين فإن المسافة لن تحتاج إلى أكثر من ساعتين؟

رد الثاني بإعجاب شديد:

ـ هذا صحيح.. كالذهب!

أضاف الأول: والآن، لماذا لاأستطيع الوصول إلى ديفنسك بأربعة من الخيول؟ إنني بذلك سوف أكون فيها على الفور.

صاح الثاني:

ـ ولكن لماذا تتعب نفسك وتذهب إلى ديفنسك، كل ماعليك أن تفعله أن تضع السروج على خيلك الأربعة، وتبقى معنا هنا.

عن كتاب: A Treasury of Jewish Folk Lore

...

هذه الحكاية اختار لها راويها عنوان "الرياضيات العليا في هيلم".. وواقع الأمر أن هذه هي طريقة اليهود في إجراء الحسابات والتعامل مع الرياضيات، ومنطقهم في التفكير، ومنهجهم في الحياة.

حصان يقطع المسافة إلى مدينة في أربع ساعات.

حصانان يقطعان المسافة في ساعتين

أربعة من الخيول تقطعها في (لاوقت).

حتى الرياضيات لم تسلم من عبثهم، وليس هناك من هو أقدر منهم على لَيّ عنق الحقائق، واستخدام (اللامنطق) لإقناع الآخرين بصواب وجهة نظرهم في شتى أمور الدنيا، حتى لو استخدموا مثل هذه المغالطات المذهلة.. وهم لايكتفون بها في الحكايات، بل يطبقونها في حياتهم مع الآخرين، وفي شتى ألوان التفاوض، سياسيًا أو اقتصاديا.. إن الدنيا كلها لتشهد منهم هذا الأسلوب الغريب في التعامل، وكثيرا مايفتح الناس عيونهم في دهشة وذهول أمام مثل هذا المنطق: البداية تكون صحيحة، وفجأة ينعطف إلى التلاعب بالأرقام والمعلومات ليصل بك إلى مايريد أن يقنعك به، وهو يعلم يقينا أن مايقوله خطأ واضح وفاحش، ومع ذلك يصر عليه، ويظل يحاور ويناور ليؤكد للآخرين صوابه وصحته، ولن ننسى مغالطتهم في الحديث عن الانتفاضة؛ يقولون: العرب يعرفون حبنا للأطفال لذلك يستعينون بهم علينا، ونكتشف حبهم للأطفال في قتلهم وكسر أضلاعهم وإصابتهم بالعاهات المستديمة.

الحكاية الرابعة:

كلنا لصوص

ذات يوم قبض على رجل وهو يسرق، فأصدر الملك حكمًا عليه بالإعدام، وفي طريقه للمشنقة قال للمحافظ إنه يحتفظ بسر مهم ورائع، ومن المؤسف أن يضيع هذا السر بموته، وأصر على ألا يبوح بهذا السر إلا للملك نفسه، والأمر يتعلق بقدرته على أن يضع بذرة شجرة في الأرض ـ ومن خلال ماعلمه له أبوه ـ يمكن لهذه الشجرة أن تثمر الفاكهة في ليلة واحدة.

أخذوا اللص إلى الملك، ومن حوله الوزير وضباط الدولة، والحاشية، فقادهم اللص إلى مكان في حقل، وحفر في الأرض حفرة صغيرة، ثم توجه بكلامه إلى الملك ومن معه:

ـ إن هذه البذرة يجب أن توضع في الأرض بواسطة واحد لم يسرق قط، ولم تمتد يده أبدًا إلى شيء لايملكه.. وأنا ـ كلص ـ لا أصلح لوضعها، فمن منكم يصلح للمهمة؟

ساد صمت رهيب، التفت بعده اللص إلى الوزير وقال له:

ـ هيا، أنت مؤتمن على أموال الرعية، فهل تجد أنك قادر على أداء المهمة ويتوفر فيك هذا الشرط؟

تردد الوزير قليلا، وتلعثم وهو يقول:

ـ الذي حدث أنني.. أنني.. أنني في طفولتي سرقت أقصد أخذت قطعة حلوى ليست لي!

نظر اللص إلى أمين الخزانة، فبادر هذا قائلا:

ـ تعلمون أني أتعامل بمبالغ كبيرة.. ولايخفى عليكم أنه من المحتمل أن أكون قد.. قد.. قد أخذت شيئا صغيرا لست أملكه.

.. وعندما تطلع اللص إلى الملك نفسه، قال هذا:

ـ إنني ذات يوم امتدت يدي إلى قطعة ذهبية كانت مملوكة لأبي، ولم أستطع مقاومة نفسي في اقتنائها.. فأخذتها!

.. عند ذلك قال اللص:

ـ أنتم جميعا أناس محترمون، وأقوياء، ولستم بحاجة إلى شيء، ومع ذلك تتحرجون من وضع البذرة في الأرض لأن أيديكم ليست طاهرة، أنا أنا الذي أخذت شيئا بسيطا يقيني الموت جوعا عليّ أن أدفع حياتي ثمنا لذلك.

ياجماعة: كلنا لصوص!

وضحك الملك وعفا عنه..
هذه الحكاية مأخوذة عن:
The Exemple of The Robbis
By: Moses Gaster
(London and Leipzig: The Asia Pu-
plishing Com. 1914).

لانظن أن مثل هذا العمل يحتاج إلى تحليل أو تعليق، وإذا كانوا هم يعترفون بأن الجميع لصوص، فذلك ينطبق عليهم وحدهم، لأن الناس في أنحاء أخرى من عالمنا يرون أنه مازال هناك شرفاء نظيفو اليد، والقلب.

الحكاية الخامسة :

المال المدفون

مضى ثلاثة من التجار اليهود - أيام الملك سليمان - في رحلة عمل تجارية، وفي مساء يوم جمعة دخلوا غابة، وتفرقوا، وضلوا طريقهم.. لكن واحدا منهم استطاع أن يكمل رحلته، ووصل بعد سفر طويل إلى بلد بعيد، وقرر أن يشتري بعض الأشياء، وحدث نفسه قائلا:

- ماذا أفعل؟ إنني غريب في بلد غريب لاأعرف أحدا أثق به لأودع لديه أموالي..

وذهب إلى أحد الحقول، وتلفت حوله فلم ير أحدا يراقبه، وقام بدفن نقوده في حفرة في الأرض.. لكن صاحب الحقل رآه من مسافة بعيدة، وما إن انصرف التاجر حتى حفر الفلاح واستولى على النقود.

وبعد ثلاثة أو أربعة أيام عاد التاجر في لهفة ليبحث عن ماله، فوجده قد اختفى، فبكى، وقال لنفسه:

- ماذا أفعل؟ لم يكن أحد في الحقل موجودًا من حولي ومع ذلك ضاعت نقودي.. وذهب الرجل إلى الملك سليمان وشكا إليه ماحدث، فقال له:

- حاول أن تعرف من صاحب الحقل الذي دفنت فيه مالك، اذهب إليه، وقل له إنك غريب، وقد جئت بمال كثير، دفنت جانبا قليلا منه، ولاتعرف ماذا تفعل بالجزء الأكبر المتبقي معك؟ هل أدفنه في نفس المكان، أم في مكان آخر، أو أبحث عن رجل أمين أودعه لديه؟!.. سيجيبك بالطبع: خذ بنصيحتي، إذا كان المكان الأول الذي وضعت فيه نقودك مأمونا فضع ماتبقى معك فيه.. ولسوف يعيد النقود التي أخذها إلى مكانها لأنه يتصور أنك إذا حفرت ولم تجد نقودك فلن تضع مامعك في المكان نفسه.. وباستطاعتك بعد ذلك أن تستعيد مالك..

استطاع التاجر أن يعرف اسم صاحب الحقل، وذهب إليه لكي يستشيره، وفعلا نصحه بأن يخفي ماتبقى من ماله في المكان نفسه .. وعاد التاجر للمدينة بعض الوقت، بينما قال صاحب الأرض لنفسه:

- لابد وأن أعيد مأأخذت ليطمئن، وأعود بعد حين لكي آخذ كل النقود.

وبعد قليل عاد التاجر ليحفر، وإذا به يعثر على ماله، فأخذه ومضى.. وعندما رجع اللص إلى الحفر باحثًا عما أخفاه صاحبنا وإذا به لايجد شيئا.. وهكذا استعاد التاجر نقوده بفضل حكمة الملك سليمان.

عن كتاب: "Ma'aseh Book"
Edited and Translated
by: Moses Gaster
Philadelphia: Jewish Puplication
Society OF America:1934.

نحن أمام قصص شعبي يدور أغلبه حول المال.. كيف يحافظ عليه.. كيف يُستثمر ويزيد.. كيف يحميه من اللصوص.. كيف يسترده إذا سرق.. المال هو المحور، ولاشيء آخر.. تتركز عنده كل الاهتمامات وهو محور الحياة.. من أجل جمعه يعيشون، وإليه يسعون، إنه القيمة الأولى، والقيمة الأخيرة.. إنه يساوي الحياة..

وبعد..

هذه نماذج من الأدب الشعبي، ترجمناها حرفيًا.. لم نزد عليها حرفا، ولا كلمة، وهو أدب بلا مؤلف، لأن الجميع مؤلفوه، ويتحملون معا مسؤوليته.. وإذا كان هذا هو الموقف في أدب عام، لايملكون إنكاره، ولايستطيعون تجميل أنفسهم من خلاله، إذ هو يكشفهم ويعريهم، فما بالكم بما يكتبونه ويزيفونه لأطفالهم، كأفراد، يطعنون في كل البشر، ويرون أنفسهم سادة لهم، وعباقرة، وعلى درجة رفيعة من الخلق، بينما الآخرون - وبالذات نحن العرب - بلا قيم، وبلا مبادىء وبلا أخلاق..

وإذا كان الحديث هنا قد توقف على الأدب الشعبي، فإننا بصدد دراسة أخرى عن أدبهم المعاصر في داخل الكيان المغتصب، وخارجه.. قبل عام ١٩٤٨م، ثم مابين عامي ١٩٤٨م، و ١٩٦٧م، ثم مابين ١٩٦٧م و ١٩٧٣م، ثم خلال العشرين عاما الماضية، التي حفلت بإنتاج وفير، ينسبون فيه لنا كل حطة ودنية، ويتحدثون عن أنفسهم أنهم ملائكة من السماء على الأرض.

الهوامش:

(١) انظر رواية العمّ نعناع، تأليف عبدالتواب يوسف، سلسلة أولادنا - دار المعارف.

دراسات في أدب الجزيرة العربية (٤)

أحمد بن الحسن البهكلي يبكي المسجد الجامع بضمد



د. عبد الله بن محمد أبو داهش

يتصف الأدب التهامي في القرون الأخيرة الماضية بخصائص معنوية متميزة، منها: ظاهرة: الحنين، والتصوف، وبكاء المساجد، ولعل أظهر هذه الخصائص المعنوية ظاهرة بكاء المساجد، لأن هذه المواطن من العناصر الروحية التي تكوّن جانبًا مهمًا في حياة المجتمع، ولأنها تعد أماكن علمية تحفل بكثير من مظاهر أوجه النشاط الفكري، وتُعدّ السيول الجارفة التي تهوي إلى تهامة من جبال السراة من أهم الظروف البيئية الصعبة التي تواجه المجتمع، فكان جريانها يسبب الدمار لكثير من مظاهر حياة المجتمع حينذاك، من مثل: المساجد، والدور، والمزارع، وحتى الإنسان نفسه.

يقول الحسن بن أحمد عاكش في هذا الشأن: إن القاضي محمد بن علي بن عمر الضمدي (٨٨٣ - ٩٩٠هـ) هو الذي: "عَمّر الجامع الكبير بضمد الذي يعز نظيره في هذه الجهة"(١)، وأن هذا المسجد نفسه هو الذي اجتحفه السيل في أوائل القرن الثالث عشر الهجري مما أثار قريحة القاضي أحمد بن الحسن البهكلي (١١٥٣ - ١٢٣٣هـ) فبكاه بهذه القصيدة:

لخالقنا في أمرنا الحل والعقد
وليس لما يقضيه منع ولا رَدُّ
وأفعاله محفوفة بمصالح
ولاشح يعلوها وإن جهل العبد
تنزه عن جور وظلم على الورى
فما أن له في عدله أبدًا ند
رضينا بما قدرته يامهيمن
على كل حال يعترينا لك الحمد
فيا أيها الدهر الذي ليس مغضبا
صديقاً له يوماً إذا انتقض العهد
مددت أياديك القصيرة قاصداً
إلى جامع في حشوه العلم والزهد
بهم مأوى العبادة والتقى
وموطن أعلام بهم ينتهي القصد
فيا طالما ضاقت صفوف بسوحه
طواع المنادي لايقل لهم عد
وكم حلقة في دورها مثل هالة
وأستاذها بدر يمن له السعد
وتال به يتلو لآيات ربنا
سحيراً وهذا في تهجده يغدو
فوا أسفا لو كان يجدي تأسف
عليه ولكن المقام له حد
وياضمد هل أعين من منافس
أصابتك هلا أصبحت كلها رمد
ويا أيها الوادي المحبب عندنا
جنيت علينا حين كان لك المد

عدلت عن المجرى الذي فيه نفعنا
وأقبلت للأوطان مستأكلاً يعدو
فكم ليلة أمسيت تسقي صبابة
لأرضينا حتى غشانا لك الود
وكم أخصبت تلك المغاني وأصبحت
يهش لها من كل ناحية وفد
لك الله من واد جميل مبارك
سقى نجده صوب يحن له رعد
رويدك هلا أن تنحى إلى
معاهدك التي غدا رخوها صلد

* * *

ولما وعى مني [الوادي] مقال تعتبي
تصعد أنفاسًا وأدركه الجهد
ونادى بصوت مسمع لاخفا به
ألا ربنا حققت عذرًا لكم يبدو
فشأني لايخفى على كل من له
من اللّب مايُهدى به من له رشد
لمالكي التصريف فيما علمتموا
يسلطني مولاهمو الواحد الفرد
أنيبوا إلى من يقبل التوبة إنه
يجيب إذا يدعى فقد سبق الوعد
وأزكى ختامي أن أصلى مسلماً
على أحمد والآل ما طائر يشدو (٢)

قلت: لقد تناول الشاعر في أبياته هذه حدثًا من أحداث البيئة الطبيعية، فاستطاع أن يعبّر عنه بصدق ووضوح، وأن ينفعل بهذا الواقع الأليم الذي حلّ ببلدة ضمد ومسجدها الجامع، ولم يستمد الشاعر - في التعبير عن هذه الحادثة - معانيه الشعرية من نماذج شعرية سابقة، بل أتت هذه المعاني مستوحاة من البيئة التي يعيشها الشاعر نفسه، ويُفَسّر بُعده إلى حد ما من النغمات التقليدية في قصيدته، بأنه عالج حدثا عاشه ورآه، ويُعَدُّ هذا اللون الشعري من بكاء المدن الذي وُجَد في الأدب العربي على مر عصوره المختلفة.

ويظهر تصوير الشاعر لبيئته واضحًا في قصيدته، حينما وصف حياة الناس في قريته، وصوَّر ماكانوا يعيشونه في رحاب هذا المسجد من حياة روحية ونقاء وجداني، كما شَخَّص الشاعر الدهر حين صوره وهو يبطش بيديه، وفي هذه الصورة تَابعَ شعر الأقدمين، وقد شخص الشاعر أيضًا وادي ضمد - الذي اجتاح المسجد - فجعله وحشًا مخيفا لاينثني عن عزم، ولايُرد عن مراد، واتسق حديث الشاعر في قصيدته مع واقع مجتمعه، حيث اعترف بأمر الله وقدره، ثم التفت إلى الدهر، وخاطب الجامع، وضمد، وعاتب الوادي بروح إيمانية صادقة، ولاغرو فهو القاضي النابه.

ورغم أن الشاعر كان يصور الكرب الذي حلّ بقريته، إلا أن تفاعله مع عناصر بيئته جعله يقف من هذا الوادي - الذي كان سببا في الدمار - موقفًا يمتزج فيه العتاب بالحب، لم يستطع الشاعر حتى وهو في هذه اللحظة الحرجة أن ينسى مالهذا الوادي من أياد على موطنه، إذ هو مصدر الخير والري فيه، ولهذا أحكم الشاعر التوازن بين عواطفه فلم تجمح به الكلمة إلى أن ينكر في لحظة من لحظات الانفعال مالهذا الوادي من أثر في حياة الناس، ولهذا جاء حديثه عنه حديثاً يصوره في حالَي بأسائه ونعمائه(٣).

ويحسن الشاعر البهكلي الحوار الإيماني الذي أنشأه مع الوادي، حيث ظل يلح على هذا العنصر البيئي حتى إذا أدرك عتابه، صعّد أنفاسًا وخاطب الشاعر بقوله:

فشأني لايخفى على كل من له
من اللب مايُهدى به من له رشد
لمالكي التصريف فيما علمتموا
يسلطني مولاهمو الواحد الفرد(٤)

وهنا تظهر مقدرة الشاعر على إيجاد هذا الأسلوب القصصي في ظلال من الحوار الصادق المفعم بالإيمان، حيث حكّم القاضي البهكلي شعوره حين عاتب الوادي، وهو يعلم أنه آية من آيات الله يبعثه سبحانه وتعالى لتنبيه عباده، وإنذارهم، وليس هذا الصنيع من الوادي نفسه، وإنما هو من الله سبحانه بما يجعل هذا الأثر الأدبي على تواضع أسلوبه يفيد في بناء منهج الأدب الإسلامي في: تحقيق التصور لله سبحانه وتعالى وللكون والإنسان والحياة، قال تعالى: «ظَهَرَ الفَسَادُ في البَرِّ والبَحْرِ بما كَسَبَتْ أيدي النَّاسِ لِيُذيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عملوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»(٥).

الهوامش والتعليقات :

(١) «عقود الدرر» ورقة ١١٩، مخطوط، يوجد أصله في جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، تحت رقم (١٣٣٤).

(٢) المصدر نفسه ورقة ١١٩، وقد قال عاكش نفسه في هذا المخطوط " وقد وصف صاحب نزهة الظريف مؤلفه القاضي العلامة الوالد عبدالرحمن بن الحسن البهكلي هذا السيل الذي اجتحف الجامع بقوله: وأما وادي ضمد فطمّ جميع الشريج بلا عقوم، وكاد أن يحتمل القرية، ولكن الله تعالى سلّم بعد أن أحاط بها من جميع الجهات..." ورقة ١١٩.

(٣) عبدالله أبو داهش، «الحياة الفكرية والأدبية في جنوبي البلاد السعودية» (١٢٠٠- ١٣٥١هـ) ص ١٩٩- ٢٠٠، ط٢، مط الجنوب، أبها: (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

(٤) الحسن بن أحمد عاكش، كتابه السابق، ورقة ١٩.

(٥) آية ٤١ سورة الروم.

المبدع والمتلقي والرسالة
من خلال صحيفة بشر بن المعتمر

محمد الجيري

لقد تميز القرن الثالث الهجري بظهور مؤلفات نقدية حاولت وضع قواعد منهجية للنقد. ولعل أول عمل يمكن اعتباره فاتحة هذا التأليف المنهجي هو صحيفة بشر بن المعتمر(١) التي ظهرت فيها لأول مرة موضوعات النقد منظمة مرتبة، حيث وضع فيها بشر بعض المعايير والأسس النقدية التي يجب على المبدع مراعاتها شاعرا كان أو ناثرا، تلك المعايير والأسس التي كانت أساسا لمعظم من جاء بعده من النقاد "فكانت - أي الصحيفة - عبارة عن رسم خطة للإنتاج الأدبي، وأوضح منهج للأداء الفني في أعلى درجات الأداء"(٢).

لاشك أن إدراك طبيعة النص النقدي، وسماته الأساسية، واستجلاء خلفيته المعرفية ومحاوره الارتكازية بصفة عامة، ينبغي أن تكون منطلقة من فهم إجرائي عميق، ووعي منهجي دقيق، تجعل من النص كيانًا عضويًا حيا، وبناء أكليا.

وتأسيسًا على ذلك سنحاول تناول نص صحيفة(٣) بشر بن المعتمر كنموذج للمعاينة والرصد والتحليل، وذلك من خلال انتقاء أهم العناصر التي يتكون منها، والتي تبدو لأول وهلة غير مرتبة ترتيبا منطقيا، ولاترابط بينها. لذا سنحاول التماس مكامن الربط بينها وجمع شتاتها في تصور موحد يكسب التحليل في نهاية المطاف انسجاما كليا يتم بمقتضاه مشروع قراءة الصحيفة.

وانطلاقا من هذا المقترح سنعمل على تنظيم بعض الجمل والتراكيب الأساسية التي تتشكل منها بنية هذا النص. ومن أجل الإلمام بأهم القضايا الواردة فيه، فإنه يجب مراعاة مدى انتمائها إلى عنصر معين من العناصر الثلاثة التالية:

العنصر الأول: ويتعين فيه ترتيب مجموعة من الجمل لها علاقة بالذات المبدعة "الأنا".

العنصر الثاني: وفيه يتم تصنيف طائفة من القضايا التي لها علاقة "بالمتلقي" أو "المرسَل إليه".

العنصر الثالث: وينبني على تنظيم جمل لها اتصال بالنص أو "المتن" كما يقول القدماء، أو "الرسالة" كما يقول المحدثون.

ولاشك أن هذا المشروع التصنيفي يكتسب مشروعيته من مدى استيعابه لأغلب القضايا التي تفرزها الصحيفة من جهة، ومن مدى إمكان أن تكون هذه الجمل مادة طيّعة لها قابلية الاندراج ضمن هذا المشروع العام من جهة أخرى.

الذات المبدعة "الأنا"

العنصر الأول: يحاول بشر بن المعتمر فيه تعيين أسس للقبول أو الرفض، لها علاقة مباشرة بالذات المبدعة في إطار تعاملها مع الإبداع الفني، فهو يرى أن أفضل الأوقات هو وقت فراغ البال، وحالة راحة النفس ورغبتها في الإبداع، فأقرّ بأن قبول نمط إبداعي، شعرًا كان أو نثرًا، رهين باختيار الذات المبدعة للحظة نفسية مناسبة، أو وقت ملائم محدد، وفي إطار هذا الاختيار حدد ثلاث مستويات محللا فيها لحظات الإبداع الفني تحليلاً نفسيا بارعا.

المستوى الأول: وهو المستوى الذي تنقاد فيه لهذه الذات غُرر الألفاظ وعيون المعاني منذ الوهلة الأولى، يتمكن خلالها الشاعر من إبداع قصيدة تتسم بالجودة. يقول بشر: "وكن في إحدى ثلاث منازل: فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا"(٤).

المستوى الثاني: في هذا المستوى هناك محاولة للإبداع بعد أن اختار الشاعر فترة معينة، ولكن ملكة الإبداع لاتنقاد له منذ الوهلة الأولى، ولذا فعليه إعادة الكرة في مرحلة لاحقة أنسب مع الابتعاد عن الإكراه أو سلوك سبيل التوعر.. فإن أنت ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة، ولم تسمح لك الطباع، فلا تعجل ولاتضجر، ودعه بياض يومك أو سواد ليلك، وعاوده عند نشاطك، وفراغ بالك.. "(٥).

المستوى الثالث: وفيه لاتستطيع الذات المبدعة بالرغم من هذه المعاودة والتكرار أن تبدع إبداعا جيدا، ولذا يقول بشر بأنه يتحتم على المبدع في هذه الحالة أن ينتقل إلى مجال آخر فيختار أشهى الصناعات إليه"(٦).

وعليه فإن هذا المستوى الأخير له علاقة بالميل، ميل الذات المبدعة نحو صناعة خاصة، وبذلك فإنه يجب على كل مبدع أن يبحث عن عناصر ميوله لإتقان صناعة بذاتها، وآنذاك ستجود نفسه بمكنونها، وستتفتح له موهبة الإبداع، مما يشكل عنصراً أساسيا يدخل في إطار البواعث الحافزة على الإبداع.

لكن هل هذه الفرضية التي قدّمها بشر بن المعتمر لها مايبررها، ومايثبت مصداقيتها، بناء على مايقدمه لنا تاريخ الأدب من قضايا تتصل بالمستويات السالفة، وذلك بالاعتماد على المؤلفات التنظيرية النقدية من جهة، وماقدمه لنا العمل الإبداعي الذي قام به الشعراء من جهة ثانية؟

تكاد تتفق أغلب المؤلفات النقدية على أن هناك بعض الفترات التي تثير في النفس هذا الشعور بالاطمئنان والراحة، مما يعد عاملا مساعدا على جودة الإبداع الأدبي.

أبو تمام يوصي البحتري

فأبو تمام يوصي البحتري - عندما طلب منه هذا الأخير بعض العلل لمّا استعصى عليه أمر الإبداع، إذ كانت ملكة الشعر لم تتأصل فيه بعد - بقوله: "تخيّر الأوقات وأنت قليل الهموم، صفرٌ من الغموم، واعلم أن العادة في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم، وإذا عارضك الضجر فارحم نفسك، ولاتعمل إلا وأنت فارغ القلب، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه، فإن الشهوة نعم المعين"(٧).

وابن قتيبة أيضًا يؤكد أن العطاء الإبداعي لايكون جيدا إلا في أوقات محددة، وأماكن خاصة، حيث يقول: "وللشاعر أوقات يسرع فيها أتيُّه، ويسمح فيها أبيُّه: منها أول الليل قبل تغَشي الكرى، ومنها صدر النهار قبل الغذاء، ومنها يوم شرب الدواء، ومنها الخلوة في الحبس والمسير، ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر ورسائل المترسل"(٨).

ويذهب العسكري كذلك إلى أن الإبداع الجيد لايتأتى إلا لمن منح النفس فترات تستعيد فيها راحتها ونشاطها، "فإذا غشيك الفتور، وتخونك الملال فأمسك، فإن الكثير مع الملال قليل، والنفيس مع الضجر خسيس، والخواطر كالينابيع يسقى منها شيء بعد شيء... فتجد حاجتك من الري، وتنال أربك من المنفعة.. فإن أكثرت عليها نضب ماؤها، وقلّ عنك غناؤها"(٩).

كما أن ابن رشيق - ولكونه شاعرا - قد ضمّن كلامه نوعا من التفصيل والتعليل، يقول: "وعلى كل حال فليس يفتح مقفل بحار الخواطر مثل مباكرة العمل بالأسحار عند الهبوب من النوم، لكون النفس مجتمعة لم يتفرق حسها عن أسباب اللهو أو المعيشة أو غير ذلك مما يُعييها، وإذا هي مستريحة جديدة كأنما أنشئت نشأة أخرى، فالسَّحَر أحسن لمن أراد أن يصنع، وأما لمن أراد الحفظ والدراسة ومماأشبه ذلك فالليل"(١٠).

وحينما نقوم بعملية تتبع لبعض الأعمال الإبداعية التي أجمع القدماء على جودتها - أو كادوا - للتأكد من مدى صحة هذه الفرضية فإننا نلاحظ أن أغلب القصائد الجيدة لها علاقة بما قيل في لحظات الراحة وفراغ البال.

لحظات التمزق قد تكون لحظات إبداعية

لكن هذه الفرضية لاتطّرد دائمًا، فقد تكون تلك الإبداعات ذات الطراز الجيد من إنتاج لحظات تكون فيها الذات المبدعة لها من بواعث القلق والتمزق الشيء الكثير. ومن النماذج التي تؤكد ذلك، نأخذ على سبيل المثال القصيدة الرائعة التي هجا فيها جرير عبيدَ بن حصين الراعي والفرزدَق معًا، والتي تضم "أهجى بيت قالته العرب":

فغضّ الطرف إنك من نُمَيْرٍ
فلا كعبًا بلغتَ ولا كلابا

فالحالة النفسية التي كان عليها جرير خلال نظمه لهذه القصيدة تشبه حالة الجنون، أو ماسماه عبدالله الطيب بحالة "الجذب"(١١)، إذ روي عنه أنه لما غاظه

قد تكون القصيدة الجيدة ليست من إنتاج لحظات الراحة وفراغ البال

الراعي وابن جندل، واشتد غضبه اعتزل في علية له، ثم قال: "ارفعوا لي باطية من نبيذ وأسرجوا لي، فأسرجوا له وأتوه بباطية من نبيذ، فجعل يهتمل، فسمعت صوته عجوز في الدار، فأطلعت في الدرجة حتى نظرت إليه فإذا هو يحبو على الفراش عرياناً لما هو فيه، فانحدرت فقالت ضيفكم مجنون رأيت منه كذا وكذا، فقالوا لها اذهبي لطيتك نحن أعلم به وبما يمارس"(١٢).

وهكذا نلاحظ هذا الجو النفسي الذي صاحب إبداع هذه القصيدة، وهو جو لا علاقة له - دون شك - بلحظة راحة، بل قد كان الشاعر يعاني من قلق تام وتمزق نفسي مرعب.

ولا مراء في أن هذه القصيدة قد نالت إعجاب القدماء، فقد كانت العرب تسميها "الفاضحة" وقيل سماها جرير "الدامغة"(١٣).

"ويروى أن الفرزدق كان إذا صعبت عليه صنعة الشعر ركب ناقته، وطاف خاليا منفردا وحده في شعاب الجبال وبطون الأودية والأماكن الخربة الخالية، فيعطيه الكلام قياده. حكى ذلك عن نفسه في قصيدته الفائية :

عزفت بأعشاش وماكدت تعزف"(١٤).

والحالة نفسها كانت تقع لكثيّر، إذ قيل له: "ياأبا صخر كيف تصنع إذا عسر عليك قول الشعر؟ قال: أطوف في الرباع المخلية والرياض المعشبة، فيسهل علي أرصنه، ويسرّ إلي أحسنه"(١٥).

فالملاحظ أن هؤلاء الشعراء الثلاثة - جرير والفرزدق وكثير - اتفقوا جميعا في طلب الخلوة "وإنما السر في طلب الخلوة، هو الحرص على طرح الشواغل، والانصراف الكامل إلى النفس، واستخراج مخزونها المغيب الذي يضن به صاحبه عن كل مشاهد. ومن أجل ذلك غريَ الأنبياء بالخلاء قبيل دعواتهم"(١٦).

ويقال أيضا عن أبي تمام أنه كان يجهد نفسه على التفكير والمعاودة والإكراه في الإبداع، حتى يظهر ذلك في شعره، وقصائده، التي قيل عنها بأنها جيدة، وأن عليها أبهة(١٧).

الطمع قد يكون دافعًا للإبداع في مجال لايشتهيه المبدع

والخلاصة من هذا الكلام كله أنه إذا كانت المؤلفات النقدية تؤكد الفرضية التي ذهب إليها بشر بن المعتمر، فإنه، كما لاحظنا من خلال أحوال الشعراء السابقين، ليس بالضرورة أن تكون القصيدة المتسمة بالجودة من إنتاج لحظة تتميز بالراحة وفراغ البال، فالشاعر قد يختار الوزن والقافية، وبعض الأنماط المجازية والصور والمعاني ضمن غرض محدد، أي قد يختار أشكال الصياغة التعبيرية، ولكن ليس بالضرورة أن يختار لحظة الإبداع والوقت المحدد للإنتاج(١٨).

الإبداع والميل

هذا بخصوص الشق الأول من فرضية بشر، أما الشق الثاني فهو متعلق بالفكرة التي تقول بأن الإبداع له علاقة بميل الشاعر نحو نمط معين يشتهيه، "فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعات إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك، فإنك لم تشتهيه ولم تنازع إليه، إلا وبينكما نسب، والشيء لايحن إلا إلى ما يشاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات، لأن النفوس لاتجود بمكنونها مع الرغبة، ولاتسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع الشهوة والمحبة، فهذا هذا"(١٩).

لقد قيل بأن أغلب الإبداعات إنما هي جيدة لأنها توافق بعض الميل والنزوع لدى الشاعر نحو أنماط معينة من القول، ولذا نجد بعض المبدعين يحسنون ألوانا إبداعية، ولايجيدون أخرى "فعبدالحميد الأكبر وابن المقفع مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما لايستطيعان من الشعر إلا مايذكر مثله، وهذا الفرزدق وكان مستهترا بالنساء، وكان زير غوان، وهو في ذلك ليس له بيت واحد في النسيب مذكور، مع حسده لجرير، وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط، وهو مع ذلك أغزل الناس شعرا. وفي الشعراء من لايستطيع مجاوزة القصيدة إلى الرجز، ومنهم من لايستطيع مجاوزة الرجز إلى القصيد، ومنهم من يجمعهما كجرير، وعمر بن لجأ، وأبي النجم، وحميد الأرقط والعماني، وفي الشعراء من يخطب وفيهم من لايستطيع الخطابة، وكذلك حال الخطباء في قريض الشعر، والشاعر نفسه قد تختلف حالاته"(٢٠).

وليس من سبب في ذلك كله إلا قوة الدافع وحدته حسب نوع الطبع. كذلك تاريخ النقد بدوره يؤكد هذه الفرضية، فقد تحدث النقاد قديما عن بواعث الشعر، وهم يقصدون بها تلك الملكة أو الينابيع التي يتفجر عنها الشعر، والشعراء يستجيبون لتلك الملكة "الطبع" بدرجات متفاوتة فيجيد كل منهم فيما تستجيب له نفسه، ولذلك قيل "أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وزهير إذا رغب، وجرير إذا غضب"(٢١).

إلا أن طبع الشعراء قد يختلف، باختلاف موضوعات الشعر، يقول ابن قتيبة: "والشعراء أيضًا في الطبع مختلفون، منهم من يسهل

عليه المديح ويعسر عليه الهجاء، ومنهم من يتيسر له المراثي ويتعذر عليه الغزل، فهذا ذو الرمة أحسن الناس تشبيها، وأجودهم تشبيبا، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية، فإذا صار إلى المديح والهجاء، خانه الطبع، وذاك أخَّره عن الفحول فقالوا في شعره أبْعَار غزلان ونقط عروس"(٢٢).

هذا، إضافة إلا أن الشاعر ليست لديه حرية مطلقة في اختيار نمط من الإبداع يشتهيه، لأن هناك نمطا يفرض نفسه كقيمة تداوليه بالموازنة مع أنماط أخرى، لذا نلاحظ أشكالا إبداعية لم تتطور بالرغم من وضوح موضعها داخل العمل الإبداعي مما أدى إلى تأخرها. فلقد مُلت مثلا قصص "كليلة ودمنة" من الإبداعات التي لاتدخل ضمن الأنماط الإبداعية المقبولة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هناك شروطا أخرى تدفع إلى الإبداع ولاعلاقة لها بالشهوة أو الرغبة، بل قد يكون فيها من الإكراه والتكسب الشيء الكثير، ولذلك لوحظ على أبي تمام وأبي نواس تقلبهما بين مادح وآخر، وكذلك الشأن بالنسبة للبحتري الذي كان يتروح بين مذاهب فكرية متنوعة "المعتزلة، الأشاعرة، أهل السنة"، وكذلك الكميت الذي كان شيعي الهوى من حيث الميل والقناعة المذهبية، ومع ذلك فشعره في بني أمية أجود منه في الطالبيين، وعلة ذلك كما يرى ابن قتيبة "قوة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة"(٢٣)، كما يروى أن الحطيئة سئل "أي الناس أشعر فأخرج لسانه دقيقا كأنه حية فقال: هذا إذا طمع"(٢٤).

الجماعة المتلقية خاصة وعامة

العنصر الثاني: وهو عنصر الجماعة المتلقية التي يبقى الإبداع رهينَ قبولها أو رفضها. ولذا سنحاول أن نتلمس بعض سماتها وميزاتها، لأن ذلك قد يعيننا ـ دون شك ـ على فهم بعض أسس القبول أو الرفض. يقول بشر: "... وكن في إحدى ثلاث منازل: فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا، إما عند الخاصة، إن كنت للخاصة قصدت، وإما للعامة، إن كنت للعامة أردت"(٢٥).

يتضح من خلال هذه الفقرة أن الجماعة المتلقية في مفهوم بشر تتفرع إلى عامة وخاصة، لكن ما المقصود بالعامة والخاصة عند بشر؟ وما هي طبيعة مكوناتها لديه؟

بخصوص هذه النقطة نجد الجاحظ يقطع تسلسل وثيقة بشر ليبدي رأيه حول مكونات العامة، حيث يقول: "وإذا سمعتموني أذكر العوام فإني لست أعني الفلاحين والحَشْوَةَ والصناع والباعة، ولست أعني أيضاً الأكراد في الجبال، وسكان الجزائر في البحار، ولست أعني من الأمم مثل البربر والطيلسان ومثل موقان وجيلان ومثل الزنج وأشباه الزنج، وإنما الأمم المذكورة من جميع الناس أربع: العرب، وفارس، والهند، والروم، والباقون همج وأشباه الهمج. وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا، على أن الخاصة تتفاضل في طبقات أيضاً"(٢٦).

وخلاصة هذا الكلام أن العامة عند الجاحظ خاصةً، وعند بشر عامة يقصد بها تلك الفئة الوسطى التي لها من الأخلاق والمؤهلات الثقافية ما قد تتجاوز به خاصة الأمم الأخرى، فهي تلك الفئة التي تكتظ بها جوامع بغداد والكوفة والبصرة، والمتعطشة للعلم والتحصيل والإطلاع، إنها بكلمة واحدة تلك النخبة المثقفة التي تتميز بفكر موسوعي وثقافة جامعة. ولذا يتعين التمييز بين عامة مقصود بها النخبة المثقفة، وغير مقصودة، المراد بها عامة الناس، وقد تقع بينهما بعض التداخلات. أما الخاصة فتتألف من الخلفاء والأمراء والوزراء والقضاة وقواد الجيش ومن العلماء وبعض رجال الأدب.

وعليه فإنه إذا كان هناك تفاوت بين العامة والخاصة، فلا غرو أن نجد تفاوتًا من حيث أسس القبول أو الرفض تبعًا لما يتطلبه المقام حسب طبيعة كل فئة، ولعل هذا ماعناه بشر حين قال: "وإنما مدار الشرف مع الصواب وإحراز المنفعة، ومع موافقة الحال، ومع مايجب لكل مقام من المقال"(٢٧).

لكن إلى أي مدى تصمد هذه النظرية أمام تاريخ النقد العربي من جهة المؤلفات التنظيرية، ومن جهة الإبداعات الفنية؟

لقد حاول قدامة بن جعفر(٢٨) أن يذهب بعيدا في تحديد بعض الأشعار التي يخضع مقياس قبولها لطبيعة المقام، فعين بعض الأشعار التي قد تكون محط قبول الخليفة أو الوزير أو الوالي. فلكل فئة من فئات الخاصة نوع من الإبداع يلائمه وينسجم مع شروط السياق.

قبول النمط الإبداعي يتفاوت باختلاف مستويات المقام والجماعة المتلقية

وإذا حاولنا تلمس مدى صحة هذه النظرية ومصداقيتها من خلال الآثار الشعرية، فيمكن أن نضرب مثلا على ذلك القصيدة التي نظمها ذو الرمة في عبدالملك بن مروان، يقول ابن رشيق: "ودخل ذو

الرمة على عبدالملك بن مروان فاستنشده شيئا من شعره، فأنشده قصيدته:

ما بال عينيك منها الماء ينسكب

وكانت بعين عبدالملك ريشة، وهي تدمع أبدا، فتوهم أنه خاطبه أو عرض به، فقال: وماسؤالك عن هذا ياجاهل؟! فمقته وأمر بإخراجه"(٢٩).

فرغم الجودة التي تتسم بها هذه القصيدة من حيث بنائها الفني، فإن عبدالملك طرده من مجلسه ولم يتم إلقاءها، وذلك لكونها لم تراعِ الممدوح ولانوعية المقام.

"وكذلك فعل ابن هشام بأبي النجم وقد أنشده في أرجوزته:

والشمس قد كادت ولما تفعل

كأنها في الأفق عين الأحول

وكان هشام أحول، فأمر به فحجب عنه مدة، وقد كان قبل ذلك، من خاصته يُسمره عنده، ويمازحه"(٣٠).

والشيء نفسه وقع لجرير في قصيدته التي مدح بها عبدالملك بن مروان حين اتهمه بعدم الصحو والسكر الدائم، مما أدى إلى رفض القصيدة رغم قيمتها الفنية العالية"(٣١).

هكذا نخلص إلى القول إن شروط القبول - قبول الأنماط الإبداعية - يتصل أساسا بالذات المبدعة، وبميولها من جهة، وباختيار هذه الذات للحظة معينة ملائمة من جهة ثانية، ولظرف يوازي قدر المتلقي وذوقه ومستلزمات المقام من جهة ثالثة.

والخلاصة الثانية التي ننتهي إليها هي أنه من المنطقي أن تختلف مستويات القبول أو الرفض حتى بالنسبة لنمط إبداعي واحد داخل الجماعة الواحدة ذاتها، مادام هناك اختلاف من حيث مستويات المقام والجماعة المتلقية.

النمط الشريف والمعنى الكريم

العنصر الثالث: إذا انتقلنا إلى المستوى الثالث من مستويات التحليل المقترحة بخصوص صحيفة بشر، فإنه بالنسبة للخاصة والعامة يكون الرفض أو القبول عادة مرتبطا بمذهب فني معين أو باتجاه ثقافي عام، فيرتبط قبول الجماعة تأسيسا على ذلك لنمط إبداعي ما بمدى رسوخه ضمن ذلك الاتجاه الثقافي وبمدى احتوائه لخصائصه ومكوناته النموذجية.

هذه الملاحظة تدفعنا إلى طرح السؤال التالي: ماهي المدرسة التي يدافع عنها بشر؟ وماهي القرائن التي تميزها عن باقي الاتجاهات الأخرى من خلال هذه الوثيقة؟.

يقول بشر: "ومن أراد معنى كريمًا فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما، فكن في ثلاث منازل: فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا ويكون معناك ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، ومع مايجب لكل مقام من المقال"(٣٢).

من خلال هذه المقولة يقدم لنا بشر بعض سمات الإبداعات الجيدة، وهذه السمات تتمحور حول قضية "اللفظ الشريف والمعنى الكريم"، هذه القضية التي ستتبلور فيما بعد في شكل اتجاهات نقدية، منها مايناصر اللفظ، ومنها مايقدم المعنى ويعتبر اللفظ تابعا، ومنها من وقف موقفا وسطا باسم المشاكلة بين اللفظ والمعنى(٣٣).

والملاحظ أن بشرًا يتعامل مع هذه القضية بنوع من التعميم، فهو يقدم لنا بعض المميزات الأساسية للفظ الشريف، إذ يرى أنه هو الذي يبتعد عن الغرابة والتعقيد، فيكون "سهلا"، "فخما"، "عذبا"، ويتحدد هذا الشرف بخصوص اللفظ بانتمائه إلى هذا النوع من النموذج المعجمي.

أما بخصوص المعنى فإن بشرًا يجعل سمة جودته مرتبطة باتصافه بالشرف، والشرف غير مقصور على فئة معينة، بل هو عام يشمل معاني العامة والخاصة "وإنما مدار الشرف مع الصواب وإحراز المنفعة". والمعاني الشريفة بهذا المضمون هي المعاني الصحيحة المفيدة، والمعنى الشريف هو الذي يكون "ظاهرًا مكشوفا" و "قريبا معروفا" متداولا بين الناس عامتهم وخاصتهم، وهي في الشعر معاني المدح والهجاء والرثاء والنسيب.

ولاشك أن بشرًا من خلال كل ماتقدم عن اللفظ والمعنى إنما يقدم لنا بعض الأسس التي قد تجعل هذا النمط الإبداعي يتسم بالجودة أو بالرداءة. والملاحظ أنه يميل في حديثه عن اللفظ الشريف والمعنى الكريم إلى نوع من المشاكلة بينهما مما يجعل العلاقة التي تربط أحدهما بالآخر علاقة مساواة، وهذا مالايدع لنا مجالا للجزم بموقف محدد تجاه المذهب الذي يتبناه بشر

> مباكرة الأعمال بالأسحار عند الهبوب من النوم يفتح مقفل بِحار الخواطر

بخصوص إشكالية اللفظ والمعنى.

فمن خلال هذا النص ليس هناك قرائن واضحة تجعلنا نصنفه ضمن الاتجاه اللفظي أو المعنوي على حد سواء، ذلك أنه بنى فهمه لهذه الإشكالية أساسا على الطبيعة التأليفية التلاحمية الموجودة بين اللفظ والمعنى، جاعلا الأسس الموجهة لهذا النوع من المشاكلة في التأليف قائمة على مقصدية الخطاب أو البعد الاستشراقي أو التطلّعي من جهة، ومراعاة مقتضى الحال أو المقام من جهة أخرى.

غير أن بشراً لايقف عند هذا الحد في معالجة بعض الإشكاليات التي يطرحها النص الإبداعي أو الرسالة الفنية، بل نجده يمطط فكرة التلاحم التي خص بها اللفظ والمعنى إلى باقي مكونات النص الأدبي لاسيما الوزن والقافية، وفي ذلك نجده يقول: "والقافية مالم تحل مركزها وفي نصابها ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها نافرة عن موضعها، فلاتكرهها على اغتصاب مكانها والنزول في غير أوطانها"(٣٤)، وبذلك نبه على أهمية التوافق بين القافية والمعنى مؤكدا على العلاقة بينهما.

ومن هنا نستنتج أنه بخصوص هذا المستوى يركز بشر على ضرورة توخي درجة عالية من الانسجام بين عناصر ومكونات العمل الإبداعي جملة وتفصيلا مع الأخذ بالحسبان هذا الشكل من النظم وهذا المجال الخاص من التلاحم.

ومن هنا نخلص إلى القول إن بشرا حاول من خلال هذه الصحيفة أن يضع أسس القبول أو الرفض رابطا ذلك بالذات المبدعة وحالاتها وثقافتها، كما حاول في الوقت نفسه أن يهتم بالمتلقي محددا بعض الشروط والقضايا التي تتحكم في المبدع، هذا، إضافة إلى أنه ـ وإن تناول ذلك بشكل مقتضب ـ اهتم بالنص الإبداعي أو الرسالة الفنية مثيرا بعض القضايا العامة التي يطرحها.

ومن خلال كل هذه المنطلقات يبين أن وثيقة بشر تشكل شبكة منسجمة، كل عنصر فيها يؤدي إلى الآخر رغم التفاوت الذي قد يحصل من حيث التفصيل في نقطة من النقط.

وتبقى في نهاية المطاف ملاحظة تتعلق بالقضايا التي يجب إثارتها في هذا النص النقدي، وهي عملية موازنة كلام بشر بما يسمى بعينياته الأولى أو الوثائق والأنماط التعبيرية التي اعتمدها وهو بصدد الدفاع عن تصوره ومفهومه للنظرية النقدية. فما هي طبيعة هذه الأنماط التي اعتمدها رافضًا لهذا القول المتضمن في هذه الصحيفة؟.

الملاحظ أن بشراً يستعمل مجموعة من المصطلحات في هذه الوثيقة النقدية قد تعيننا على تعرف طبيعة هذه الأنماط الإبداعية بصورة تقريبية، ذلك أنه تحدث عن "الشعر الموزون"، و "الكلام المنثور" و "القافية القلقة"، و "اللفظ الشريف"، و "المعنى الكريم"... وهي مصطلحات لها علاقة بالإبداعات الشعرية والنثرية، إنْ قصيدة أو خطبة أو رسالة. ومن السمات الأساسية لهذه الأشكال الإبداعية أنها ألقيت بطريقة شفوية وبصورة مرتجلة. فقول بشر: "فإن قلبك تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرف حسا، وأحسن في الأسماع"(٣٥) دليل على أن هذا النوع من الإبداع له وقع حسن في الأسماع ولايتأتى ذلك إلا بالإلقاء الشفهي.

غير أنه مع ذلك حين نحاول القيام بموازنة هذا الكلام كله بأنماط إبداعية معينة، وإدراك مدى مطابقته لها مع قصائد بعينها أو رسائل أو خطب بذاتها، فإننا لانجد في الصحيفة إشارات واضحة أو أدلة قطعية توحي بذلك، إذ هناك كلام عام ينظر بصورة شمولية للإبداع.

الهوامش والمراجع:

(١) أبو سهل بشر بن المعتمر الهلالي البغدادي، فقيه معتزلي مناظر من أهل الكوفة.

قال الشريف المرتضى: يقال إن جميع معتزلة بغداد كانوا مستجيبية، تنسب إليه الطائفة البشرية، له مصنفات في الاعتزال، منها قصيدة في أربعين ألف بيت رد فيها على جميع المخالفين. ومات ببغداد سنة ٢١٠هـ. راجع ترجمته في "خزانة الأدب" ١١١٧/٤ و"تهذيب" ابن عساكر ٢٤٨/٣، و "المعارف" لابن قتيبة ١٢١، و "الأعلام" للزركلي ٥٥/٣.

(٢) هند حسين طه: "النظرية النقدية عند العرب" ص ٢٧١، منشورات وزارة الثقافة والإعلام. الجمهورية العراقية، ١٩٨١م.

(٣) انظر الصحيفة في "البيان والتبيين" للجاحظ ١٣٥/١، و "الصناعتين" للعسكري ١٥٢، و "العمدة" لابن رشيق ١١٤/٢.

(٤) صحيفة بشر بن المعتمر.

(٦.٥) صحيفة بشر بن المعتمر.

(٧) ابن رشيق "العمدة"، باب عمل الشعر وشحد القريحة له، ١١٤/٢.

(٨) ابن قتيبة "الشعر والشعراء"، ص٢١.

(٩) أبو هلال العسكري "الصناعتين"، ص ١٥١.

(١٠) العمدة ٢٠٨/١.

(١١) عبدالله الطيب "المرشد" ٨٥٠/٣.

(١٢) المرجع نفسه ٥٤٩/٣.

(١٣) العمدة ٥٠/١.

(١٤) المصدر نفسه ٢٠٧/١.

(١٥) الشعر والشعراء ٨٥١.

(١٦) المرشد ٨٥١/٣.

(١٧) العمدة ٢٠٩/١.

(١٨) وممن وجد نفسه عند إحاطة الموت به تميم بن جميل، فإنه القائل بين يدي المعتصم، وقد قدم السيف والنطع لقتله:

أرى الموت بين النطع والسيف كامنا ... يلاحظني من حيث ما اتلفتا

والقصيدة طويلة.

"وعلي بن الجهم وهو القائل وقد صلب عريانا:

لم ينصبوا بالشاذ ياخ عشيةالـ ... اثنين مغلولا ولا مجهولا

انظر العمدة ١٩٤/١.

(١٩) الصحيفة.

(٢٠) الجاحظ "البيان والتبيين" ٢٠٩/١.

(٢١) العمدة ٩٥/١.

(٢٢) الشعر والشعراء ص ٢٨.

(٢٣) المصدر نفسه ص ٢١.

(٢٤) المصدر نفسه ص ٢٠.

(٢٥) الصحيفة.

(٢٦) البيان والتبيين ١٣٧/١.

(٢٧) الصحيفة.

(٢٨) قدامة بن جعفر "نقد الشعر" ص ٧١ ـ ٧٨.

(٢٩) العمدة ٢٢٢/١.

(٣٠، ٣١) المصدر نفسه والصفحة نفسها، والجزء ٢٢٢/١.

(٣٢) الصحيفة.

(٣٣) العمدة (باب اللفظ والمعنى) ١٢٤/١.

(٣٤ ٣٥) الصحيفة.



الاسم غير المسمى

أبو عبد الرحمن
ابن عقيل الظاهري

قال أبو عبدالرحمن: هاهنا مسألة كلامية طال حولها الجدل عن الاسم والمسمى هل هما واحد، أو غيران؟!.

وعن حديث: «إن لله تسعة وتسعين اسما» قال أبو القاسم القشيري في شرح أسماء الله الحسنى: في هذا الحديث دليل على أن الاسم هو المسمى، إذ لو كان غيره كانت الأسماء غيره لقوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾.

ثم قال: والمخلص من ذلك أن المراد بالاسم هنا التسمية.

وقال الفخر الرازي: المشهور من قول أصحابنا أن الاسم نفس المسمى وغير التسمية.

وعند المعتزلة الاسم نفس التسمية وغير المسمى.

واختار الغزالي أن الثلاثة أمورٌ متباينة، وهو الحق عندي، لأن الاسم إن كان عبارة عن اللفظ الدال على الشيء بالوضع وكان المسمى عبارة عن نفس ذلك الشيء المسمى فالعلم الضروري حاصل بأن الاسم غير المسمى، وهذا مما لايمكن وقوع النزاع فيه.

وقال أبو العباس القرطبي في المفهم: الاسم في العرف العام هو الكلمة الدالة على شيء مفرد، وبهذا الاعتبار لافرق بين الاسم والفعل والحرف إذ كل واحد منها يصدق عليه ذلك، وإنما التفرقة بينها باصطلاح النحاة وليس ذلك من غرض البحث هنا.

وإذا تقرر هذا عرف غلط من قال: إن الاسم هو المسمى حقيقة كما زعم بعض الجهلة، فألزم أن من قال نار، احترق(١)، فلم يقدر على التخلص من ذلك.

وأما النحاة فمرادهم بأن الاسم هو المسمى أنه من حيث أنه لايدل إلا عليه ولايقصد إلا هو، فإن كان ذلك الاسم من الأسماء الدالة على ذات المسمى دل عليها من غير مزيد أمر آخر، وإن كان من الأسماء الدالة على معنى زائد دل على تلك الذات منسوبة إلى ذلك الزائد خاصة دون غيره.

وبيانه أنك إذا قلت زيد مثلاً فهو يدل على ذات متشخصة في الوجود من غير زيادة ولا نقصان، فإن قلت العالم دل على أن تلك الذات منسوبة إلى العلم.

ومن هذا صحح عقلاً أن تتكثر الأسماء المختلفة على ذات واحدة ولايوجب(٢) تعددًا فيها ولا تكثيرًا.

قال: وقد خفي هذا على بعضهم ففر منه هربًا من لزوم تعدد في ذات الله تعالى فقال: إن المراد بالاسم التسمية، ورأى أن هذا يخلصه من التكثر، وهذا فرار من غير مفر إلى مفر.

وذلك أن التسمية إنما هي وضع الاسم وذِكْرُ الاسم، فهي نسبة الاسم إلى مسماه، فإذا قلنا: (لفلان تسميتان) اقتضى

أن له اسمين تنسبهما إليه، فبقي الإلزام على حالة من ارتكاب التعسف.

ثم قال القرطبي: وقد يقال الاسم هو المسمى على إرادة أن هذه الكلمة التي هي الاسم تطلق ويراد بها المسمى، كما قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ : أي سبح ربك فأريد بالاسم المسمى.

وقال غيره: التحقيق في ذلك أنك إذا سميت شيئًا باسم فالنظر في ثلاثة أشياء:

ذلك الاسم وهو اللفظ.

ومعناه قبل التسمية.

ومعناه بعدها وهو الذات التي أطلق عليها اللفظ.

والذات واللفظ متغايران قطعًا، والنحاة إنما يطلقونه على اللفظ، لأنهم إنما يتكلمون في الألفاظ، وهو غير مسمى قطعًا.. والذات هي المسمى قطعًا، وليست هي الاسم قطعًا.

والخلاف في الأمر الثالث هو معنى اللفظ قبل التلقيب(٣)، فالمتكلمون يطلقون الاسم عليه، ثم يختلفون في أنه الثالث أولا، فالخلاف حينئذ إنما هو الاسم المعنوي هل هو المسمى أولا؟ لا في الاسم اللفظي.

والنحوي لايطلق الاسم على غير اللفظ لأنه محط صناعته، والمتكلم لاينازعه في ذلك ولايمنع إطلاق اسم المدلول على الدال، وإنما يزيد عليه شيئًا آخر دعاه إلى تحقيقه ذكر الأسماء والصفات وإطلاقها على الله تعالى.

قال: ومثال ذلك أنك إذا قلت: (جعفر لقبه أنف الناقة) فالنحوي يريد باللقب لفظ أنف الناقة، والمتكلم يريد معناه وهو مايفهم منه من مدح أو ذم.

ولايمنع ذلك قول النحوي: (اللقبُ لفظٌ يشعر بضعة أو رِفعة) لأن اللفظ يشعر بذلك لدلالته على المعنى.. والمعنى في الحقيقة هو المقتضي للضعة والرفعة، وذات جعفر هي الملقبة عند الفريقين.

وبهذا يظهر أن الخلاف في أن الاسم هو المسمى أو غير المسمى خاص بأسماء الأعلام المشتقة.

ثم قال القرطبي: فأسماء الله وإن تعددت فلا تعدد في ذاته ولاتركيب، لا حسيًا كالجسميات، ولا عقليًا كالمحدودات.

وإنما تعددت الأسماء بحسب الاعتبارات الزائدة على الذات، ثم هي من جهة دلالتها على أربعة أضرب:

الأول: مايدل على الذات مجردة كالجلالة(٤) فإنه يدل عليه دلالة مطلقة غير مقيدة، وبه يعرف جميع أسمائه، فيقال: الرحمن مثلا من أسماء الله.. ولايقال: الله من أسماء الرحمن.

ولهذا كان الأصح أنه اسم علم غير مشتق وليس بصفة.

الثاني: مايدل على الصفات الثابتة للذات كالعليم والقدير والسميع والبصير(٥).

الثالث: مايدل على إضافة أمر ما إليه كالخالق والرازق(٦).

والرابع: مايدل على سلب شيء عنه كالعلي والقدوس.

وهذه الأقسام الأربعة منحصرة في النفي والإثبات.

انتهى كل ذلك من فتح الباري للحافظ ابن حجر.

قال أبو عبدالرحمن: هاهنا وقفات:

الوقفة الأولى: أن الاسم لفظ له معنى خارجه، وهيئة في الرسم، ومخارج يتألف منها في النطق.

والمسمى شيء آخر خارج اللفظ، له وجودُه الخاص.

الوقفة الثانية: أن ما مر بدهي لايجوز أن يكون محل خلاف، بيد أن وساوس علم الكلام جعلت هذا البدهي محل خلاف،



وذلك أن بعض علماء الكلام خاف أن يلزم من الإقرار ببدهية (الاسم غير المسمى) الحكم بأن أسماء الله غير الله.

الوقفة الثالثة: لاغضاضة في القول بأن أسماء الله غير الله، لأن الأسماء كلمات نخطها وننطق بها فلها وجودها الخاص.

وربنا سبحانه وتعالى غير تلك الأسماء

الاسم غيّر المسمّى

له وجوده اللائق بجلاله وعظمته.

ولانقول: أسماء الله هي الله، وإنما نقول: أسماء الله لله، لأنها تدل عليه، وهو جل جلاله المعني بها.

الوقفة الرابعة: الاسم ليس هو التسمية، والاسم والتسمية ليسا هما الله، وإنما التسمية فعل المسمي منذ سعى لإيقاع اللفظ الدال على مسماه.

وهو فعل المنادي والداعي والمخبِر عندما يسعى لإيقاع الاسم على مسماه. والاسم هو اللفظ الدال الذي أطلقه المسمي ومن بعده من المنادين والمخبرين.

الوقفة الخامسة: هناك وسوسة كلامية ادعت أن الاسم هو التسمية فسوت بين فعل المسمي وبين مفعوله، لأنها وجدت لله أسماء عديدة، فلو قالت: الاسم غير المسمى لزم أن أسماء الله غير الله.

ولو قالت: أسماء الله هي الله لزم التعدد في المسمى وكثرته.. هكذا يتصورون.

قال أبو عبدالرحمن: مر التفريق بين الاسم والتسمية والمسمى.

ومر أن أسماء الله غير الله، وإنما هي لله دالة عليه.

وإذن فقولنا أسماء الله غير الله لايرد عليها زعم التعدد والتكثر.

ولكن نقول: لو صح أن أسماء الله هي الله ـ وذلك لايصح البتة ـ لما لزم من ذلك الكثرة والتعدد، لأن الذات واحدة وأوصافها كثيرة، ولأن الذات الواحدة تقبل أكثر من اسم لاعتبارات مختلفة، ولهذا كان للاسم معنى في الذات غير معنى الاسم الآخر.

الوقفة السادسة: جعل قوله تعالى: ﴿سبح اسم ربك﴾ بمعنى: سبح ربك: لايعني أن الاسم هو المسمى. وإنما يعني جواز إطلاق الاسم على المسمى لضرب من المجاز.

ووجه المجاز في ذلك أن تنزيهنا لله ليس فعلاً منا يصل إليه سبحانه فينزهه سبحانه وتعالى عن وساوس الظنون.

فهو المنزه المبرأ من النقص المتصف بالكمال قبل وجودنا وبعده، ومع إيمانِ من آمنَ وكُفرِ من كفر، وهو الغني الحميد.

وإنما تنزيهنا لله عقيدة في قلوبنا وعقولنا وأقوالنا، فلا ندعوه بغير اسم مقدس، فصار المآل في فعلنا إلى تنزيهنا الاسم الذي نطلقه، وإلى عقيدتنا في مدلوله بأن يكون يعني الكمال المطلق والتنزه.

وتسبيحنا اسم ربنا الأعلى يساوي دعاءنا له سبحانه بأسمائه الحسنى.

الوقفة السابعة: ليس الاسم هو المعنى قبل التسمية، ولا هو المعنى بعدها، ولا هو مجرد اللفظ بلا مسمى، وإنما الاسم لفظ له مسمى.. هذا هو المعنى اللغوي للاسم بغض النظر عن اصطلاح علماء النحو الحادث الذي ينظر إلى مجرد اللفظ.

الوقفة الثامنة: لايقال: (تتعدد الأسماء بحسب الاعتبارات الزائدة على الذات)، وإنما الاعتبارات في الذات، والذات هي مجموع صفاتها.

الوقفة التاسعة: لايلزم من كون لفظ الجلالة (الله) اسم علم أنه غير مشتق ولا صفة. بل معناه أنه اسم مطابق يدل على المتصف بجميع الأسماء الحسنى.

وكل مادة لغوية يكون فيها معنى وضعي واحد ليس غير، وتكون بقية المعاني اشتقاقية. وليس من الضروري أن يكون المطابق علمًا، وليس من الضروري أن يكون المشتق علمًا، ولكن الأكثرَ اشتقاقُ الأعلام.

ومادة الهمزة واللام والهاء لها معان لغوية أخذ منها معنى الله الذي رضيه ربنا اسمًا له باللغة العربية. والله سبحانه معلم اللغات.

الوقفة العاشرة: لانسلم أن مثل العليّ والقدوس اسم سلب فحسب، بل الأول يثبت كمالاً فيمنع من النقص، والثاني يسلب نقصًا فيلزم منه كمال. والله المستعان.

الهوامش:

(١) لأن لفظ نار هو جرم النار الصاعد المحرق في زعم من زعم أن الاسم هو المسمى.

(٢) أي أن كثرة الأسماء لاتوجب كثرة المسمى.

(٣) قال أبو عبدالرحمن: في هذا سهو، لأن ماوصفه هاهنا هو الأمر الثاني فيما سبق لا الثالث.

(٤) يريد لفظ الجلالة (الله).

(٥) الله سبحانه وتعالى لايكون في لحظة غير سميع، بل هو سميع دائمًا وأبدًا، فهذا معنى الثبات واللزوم.

(٦) صفة الخلق صفة لزومية لله سبحانه وتعالى، وصفة الرزق. ولكنه سبحانه في لحظة من اللحظات لم يخلق ذلك الشيء بعد، ولم يرزق ذلك الشخص في ذلك الوقت.

فالسمع والخلق صفتان لزوميتان له سبحانه إلا أن سمعه سبحانه لاينفصل عن المخلوقات، وينفصل خلقه عن مخلوق لم يوجد بعد، وينفصل رزقه لحكمته عن مخلوق في لحظة ما. فغير اللازم مفعوله لافعله، لأنه يفعل إذا شاء فيوجد مفعوله، ولايفعل إذا شاء فلا يوجد مفعول. وهذا فرق أغفله كثيرون عند التفريق بين دلالات الأسماء.

الدماغ

سبر أغواره ... حل أسراره

درويش إبراهيم يوسف



هو كتلة رمادية اللون، أكبر من ثمرة الليمون الهندي بقليل. ويبدو منظره شبيها بجوزة مقشورة، وموقعه المحمي يشدد على أهمية هذا العضو الحيوي. حيث تغلفه ثلاثةُ أغشيةٍ واقية، وسائلٌ من البلازما، يعمل كمخفف للصدمات، ويستقر كل ذلك في عظم شديد المتانة ـ الجمجمة ـ وإذ يبلغ وزنه ٤ر١ كيلو جرام، يشكل حوالي ٢٪ فقط من وزن جسم الإنسان العادي، ومع ذلك لكي يستمر بالفعل، يجب أن يتلقى ٢٠٪ من الدم الذي يضخه القلب، ويستهلك ٢٥٪ من أكسجين الجسم. وإذا حرم من الدم لمدة ١٥ ثانية يفقد الإنسان الوعي، وإذا كانت المدة أربع دقائق فقد يعاني من ضرر دائم. نعم، إنه الحديث عن الدماغ.

ولكن مايميز الدماغ البشري حقا هو العمليات الأعقد والأسمى التي تشكل هوة شاسعة حتى بين الحيوان الأكثر ذكاء والإنسان العادي. وعن هذا يقول أستاذ علم الأعصاب الدكتور ثومبثون: "مقدرة الإنسان على التعلّم (تخزين واستعادة المعلومات) هي الظاهرة الأكثر روعة في العالم الحي. كل مايجعلنا بشراً - اللغة، التفكير، المعرفة، الثقافة - هو نتيجة مقدرة الدماغ الاستثنائية".

نعم، إن مقدرة الدماغ على معالجة المعطيات تتحدى الفهم، على سبيل المثال تصوروا مايجري في دماغ قائد فرقة موسيقية كبيرة. واذكروا أن هناك قادة استظهروا القطع الموسيقية التي يشترك في عزفها ٥٠ أو ١٠٠ آلة موسيقية. ففيما تعزف الفرقة الموسيقية، وتصل إلى دماغ القائد كل ثانية مئات النغمات الموسيقية بتردداتها المختلفة، يقابلها بنماذج ذاكرته، فإذا عزفت إحدى الآلات الموسيقية الكبيرة نغمة خاطئة فإنه يكتشفها، أو تأملوا في عازف البيانو وهو يعزف قطعة موسيقية صعبة بأنامله كلها. فيا للإحساس الحركي المدهش الذي يملكه دماغه ليأمر العملية الخاصة بالأنامل كي تغمز الأصابع الصحيحة للآلة حسب النغمات في ذاكرته. فأية آليات مدهشة يمتلكها الدماغ، تمكنه من القيام بهذه الوظائف المعقدة المثيرة للدهشة؟

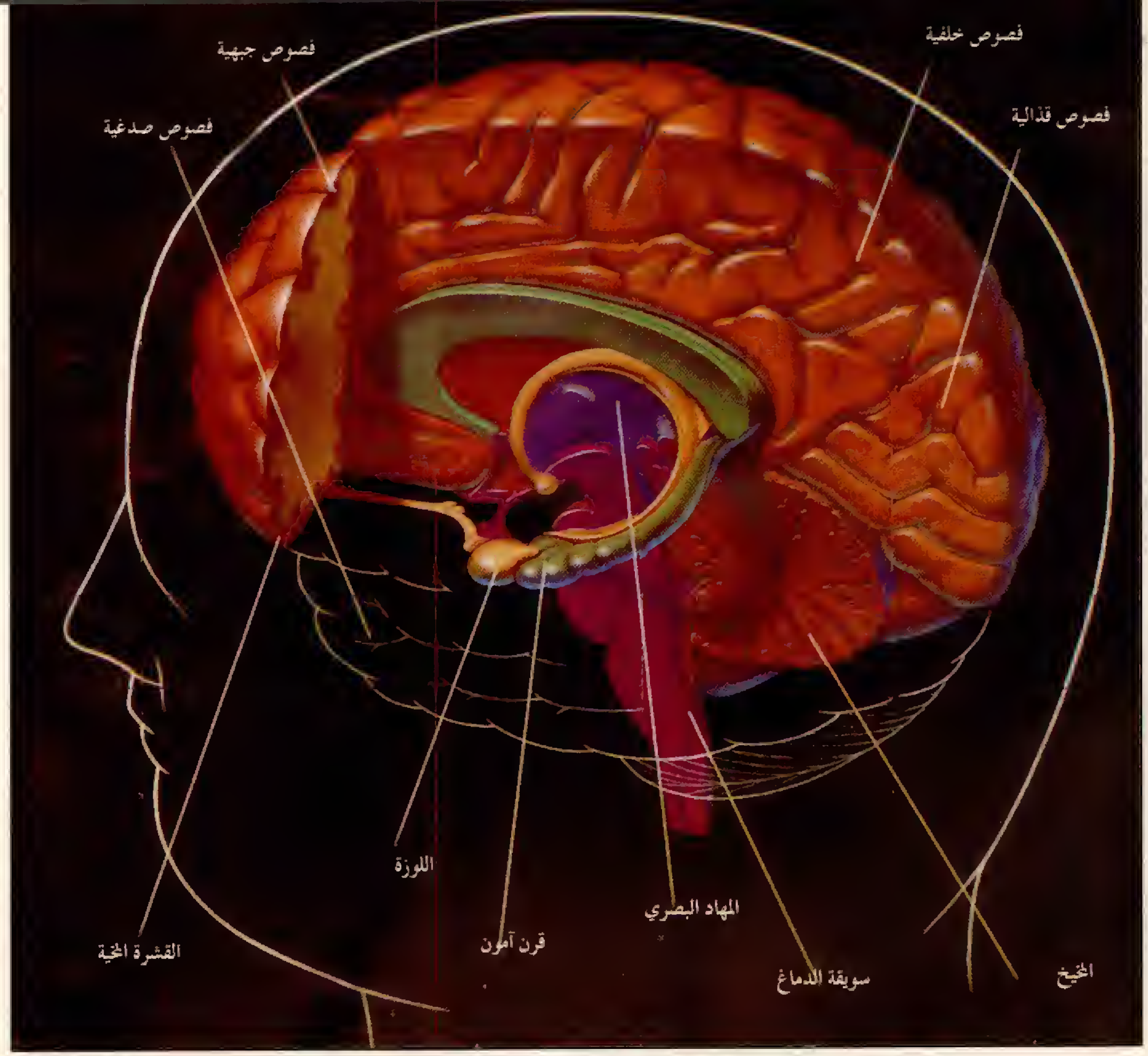
التكوّن العجيب للدماغ البشري

يبدأ الدماغ بالتكوّن في الرحم. فبعد الحبل بثلاثة أسابيع تبتدىء خلايا الدماغ بالتشكل، حيث تنمو بطريقة مفاجئة، وبسرعة قد تصل إلى ٢٥٠ ألف خلية في الدقيقة، وبعد الولادة يواصل الدماغ النمو وتشكيل شبكة من التوصيلات، والهوة التي تفصل الدماغ البشري عن ذلك الذي لأي حيوان تظهر بسرعة. يقول كتاب (الدماغ): "إن دماغ الطفل بخلاف ذلك الذي لأي حيوان آخر، يزداد حجمه ثلاثة أضعاف في سنته الأولى" ومع الوقت تحتشد في الدماغ البشري نحو ١٠٠ مليون خلية عصبية، تدعى عصبونات Nevrons بالإضافة إلى أنواع أخرى من الخلايا.

يمتد من طرف كل عصبون ليف عصبي يدعى محور عصبي، بينما تنشأ من الطرف الثاني للعصبون تفرعات تشبه أغصان الشجر تدعى الزوائد الشجرية أو الغصينات Den-drits، والطول الكلي لهذه الغصينات ضمن الدماغ يبلغ مئات آلاف الكيلو مترات. وتلتقط هذه الغصينات موجات النبضات الكهربائية ثم ترسلها عبر المحور، الذي ينقلها إلى غصينات العصبون التالي ولكن المحور لايلامس الغصينات أبدا، إذ تفصل بينهما فجوة دقيقة بعرض ٠٠٠٠٠٢٥ر٠ مليمتر، أي (١) على (٥٠٠) من شعرة الإنسان. وتدعى هذه الفجوات نقاط اشتباك أو مشابك Synapses.

ووفقا لما ذكره عالم

تجارب لحل أسرار الدماغ



رسم تخطيطي للدماغ

الأعصاب الدكتور ريتشارد ريستاك، فإن كل واحدة من عصبونات الدماغ الـ ١٠٠ مليون "قد يكون لها أكثر من ألف نقطة اشتباك عصبي. وبالنسبة لبعض الخلايا الموجودة ضمن القشرة المخية، قد يقترب الرقم من مئتي ألف نقطة اشتباك في كل مليمتر مكعب". والمليمتر المكعب وهو فارغ بحجم رأس الدبوس! ولذلك فكم نقطة اشتباك في الدماغ الواحد؟ يجيب الدكتور ريستاك: "ربما يكون من عشرة تريليونات إلى مئة تريليون (التريليون ألف بليون) نقطة اشتباك في الدماغ. إن العدد الكلي للتوصيلات ضمن الشبكة الهائلة من عصبونات الدماغ هو عدد لايصدق فعلاً".

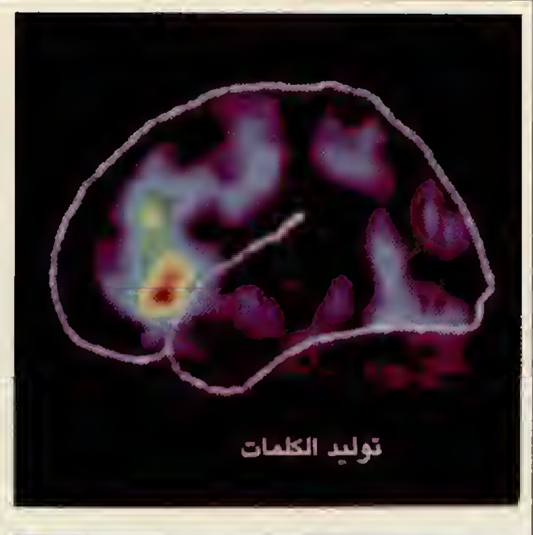
ولكن كيف يمكن للموجات أن تعبر الفجوات الموجودة بين المحور العصبي والغصينات؟

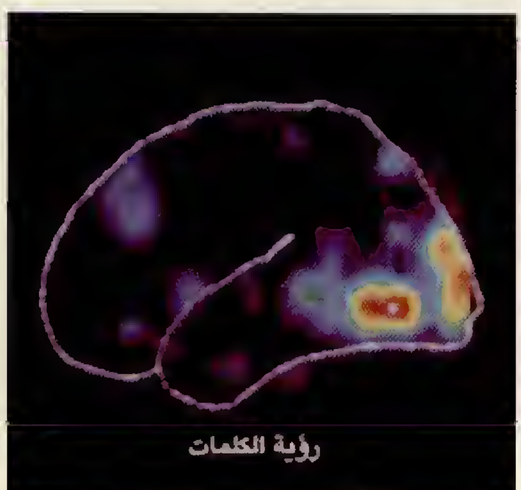
عندما تتلقى الأذن صوتا تحوله إلى منبهات كهربائية، تطلق موجات النبضات الكهربائية في العصب السمعي، ثم تنتقل النبضات إلى العصبون في الدماغ عن طريق المحور العصبي. وتجعل النبضة الكهربائية العصبون يطلق، عن طريق الغصينات، مواد كيماوية تدعى المرسلات العصبية Nev-rotransmitters داخل نقطة الاشتباك. ويعرف حالياً أكثر من ٣٠ نوعا من هذه المرسلات، مع أن الدماغ قد يمتلك أكثر من ذلك بكثير. وتتطابق هذه المادة مع المستقبلات Receptors وهي جزيئات بروتينية ذات شكل خاص يلائم المرسلات، تقع على العصبون المجاور، ويتسبب وجود المرسلات العصبية ضمن العصبون المستقبل في إطلاق نبضات

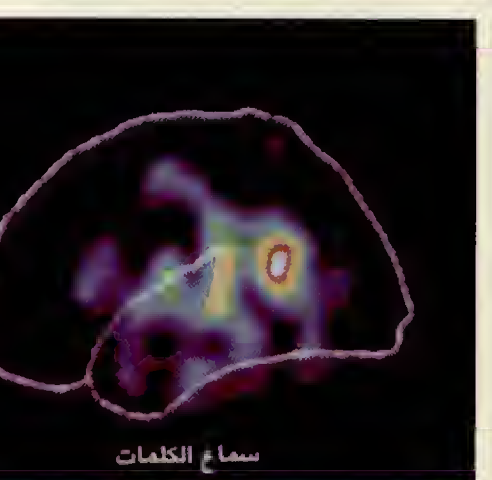
كهربائية في هذا العصبون، وهكذا تستمر السلسلة حتى تبلغ ذروتها على شكل فكرة، وإذا كانت الفكرة قوية بدرجة كافية أنتجت شعورا، والشعور إذا كان قويا بدرجة كافية ينتج عملاً.

الذكاء والطاقة

وهكذا فإن انتقال الإشارات العصبية هو ذو طبيعة كهربائية كيماوية. ولكل نبضة القوة عينها، أما شدة الإشارات فتعتمد على تردد النبضات، الذي يعتمد بدوره على شدة المنبه، ولا تحتاج هذه النبضات إلى الدفع من مصدر طاقة خارجي كالكهرباء ضمن السلك، فكل خلية عصبية هي بطارية كهربائية صغيرة، فهي مصدر طاقتها الخاصة. وشدة النبضة تبقى ثابتة كل الطريق إلى الدماغ ومنه، فليس هناك أي فقدان للطاقة خلال الطريق، وقد تبين أنه كلما كان حاصل ذكاء المرء أعلى، كانت الطاقة التي يستهلكها دماغه لإنجاز أمر معين أقل، ومع أن عصبونات الدماغ العشرة ملايين تتلقى ما مقداره مئة مليون وحدة معلومات من مختلف الحواس كل ثانية، فإنها تستهلك من الطاقة الكهربائية أقل بكثير من مصباح الضوء العادي، فيالها







الدماغ .. والتعامل مع الكلمات

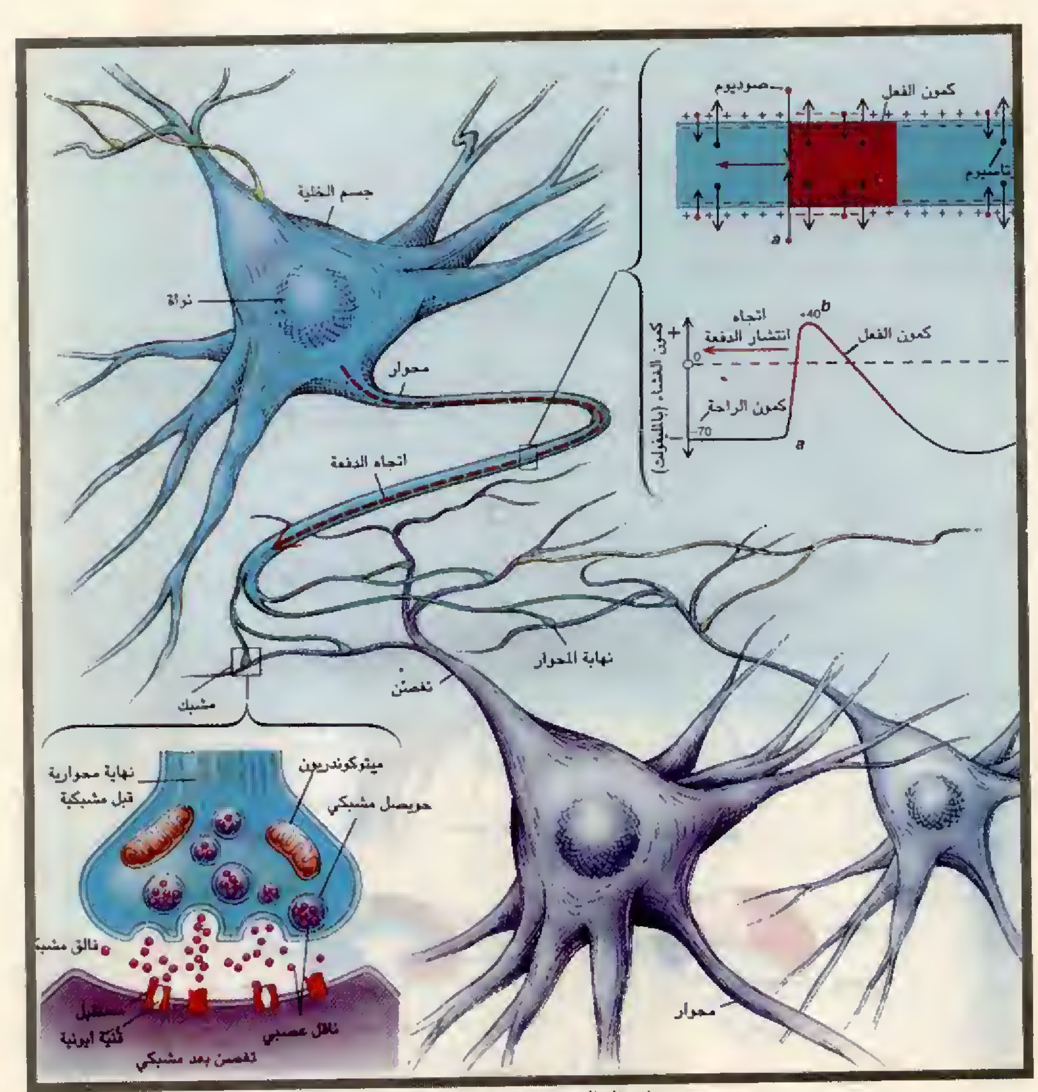
من أعجوبة في التصميم. يقول عالم الأعصاب الفرنسي الدكتور جان بير تشانك: "الدماغ البشري يجعل المرء يفكر في الاحتشاد الهائل لعشرات الملايين من شباك العنكبوت العصبية المتداخلة، والتي تومض فيها أعداد لاتحصى من النبضات الكهربائية، وتنقل من وقت لآخر وابلاً غزيراً من الإشارات الكيماوية، وإن النظام التشريحي والكيماوي لهذه الآلة معقدٌ بشكل لايمكن تصوره".

تقنيات رفيعة

ولكن كيف يمكن للدماغ أن يتجنب غمرة بهذا العدد الفلكي من المعلومات؟ وإذا كنا نفكر في أمر واحد فقط كل مرة، فكيف يعالج العقل ملايين الرسائل الآتية في آن واحد؟ من الواضح أن العقل لايتصدى لهذا الوابل فقط، بل يعالجه بسهولة أيضًا.

أما كيف يفعل ذلك فهو مجرد واحدة من العجائب الكثيرة للدماغ البشري، والأمر يشتمل على عاملين.

أولا: توجد في جذع الدماغ شبكة أعصاب بحجم خنصر اليد. وهذه الشبكة تدعى التكوين الشبكي Reticular Formation وهي تعمل نوعًا ما كمركز لتنظيم المرور ومراقبة ملايين



اتصال العصبونات بعضها ببعض

الرسائل الواردة إلى الدماغ، فاصلةً التافهة ومنتقيةً الضرورية الجديرة بانتباه القشرة المخية. وكل ثانية تسمح شبكة الأعصاب الصغيرة هذه بدخول ماأقصاه عدة مئات فقط إلى العقل الواعي.

ثانياً: يبدو أنه يحدث تشديد إضافي لافت لانتباهنا بواسطة موجات تكتسح الدماغ من ٨ إلى ١٢ مرة في الثانية. وهذه الموجات تسبب فترات من الحساسية العالية، حيث يلاحظ الدماغ الإشارات الأقوى ويعمل بموجبها، ويعتقد أن الدماغ بواسطة هذه الموجات يمسح نفسه، وبهذه الطريقة يركز على الضروريات. وهكذا تجري في رؤوسنا دفعة مذهلة من النشاط كل ثانية. وبهذا الخصوص تذكر الباحثة الروسية المتخصصة في الدماغ ناتاليا بختروفا "أن الدماغ هو عالم كامل داخل الجمجمة، إنه العضو البشري الذي له إمكانيات غير محدودة عملياً".

إن شبكة الاتصالات المتبادلة بين العشرة ملايين خلية عصبية في الدماغ تصل إلى أعداد هائلة بحيث تصير غير مفهومة. وقد أظهر البحث الأخير أن الاتصالات لاتوجد فقط بين العصبونات ولكن ثمة دارات دقيقة أيضًا قائمة بين الغصينات نفسها، يقول العالم ريتشارد ريستاك: "ويعتقد بعض الباحثين أن بلايين وبلايين الخلايا العصبية في الدماغ البشري يمكن أن تشكل عددا من التوصيلات يبلغ الكوادريليون (ألف تريليون) فأين المكان الذي يسع كل هذا؟". يصرح كارل ساغان أن الدماغ باستطاعته أن يخزن معلومات تملأ نحو عشرين مليون مجلد، بمقدار مايوجد في أكبر مكتبات العالم". إن الدماغ مكان كبير جدًا لكن حجمه صغير جدا، فمع أن الدماغ يزن أقل من ١٫٥ كيلو جرام، فإن الدماغ الإلكتروني القادر على معالجة نتاج دماغ واحد يجب أن يغطي الأرض كلها، ولذا فإن الكاتب العلمي الدكتور أرفنج بانجلز دورف يقول: "كل من يتحدث عن الكومبيوتر كـ (دماغ الكتروني) لم ير دماغا قط".

تخطيط الدماغ

نعم، من بين كل الأشياء الرائعة على الأرض، لاشيء مدهش أكبر من الدماغ البشري، هذا النسيج الهلامي الذي به نفكر، ونتعلم، ونشعر، ونحلم. يقول العالم نورمان جيشويند: "مايميز

الدماغ البشري حقا هو تنوع النشاطات المتخصصة التي يمكنه أن يقوم بها أو يتعلمها" وقد تبين أن لكل مجموعة من هذه النشاطات مراكز معينة في الدماغ مسؤولة عنها. وقد طور العلماء العديد من التقنيات التي أسهمت في رسم خريطة المخ، لتحديد وظيفة كل جزء منه. وإحدى هذه التقنيات هي التصوير الطبقي بإصدار البوزترون PET. ومن أجل مسح الدماغ بهذه الطريقة يحقن المقطوع بجلكوز ذي نشاط إشعاعي، فيمتزج الجلوكوز (وقود الجسم) مع الدم ثم يتابع نحو الدماغ، ومن ثم فإن الجزء الأكثر نشاطًا من الدماغ هو الذي يستعمل أكبر كمية من الجلوكوز، وتوضع أجهزة لقياس الإحساس بـ PET حول رأس المقطوع. الذي يجلس في كرسي طبيب أسنان ورأسه خلف قطعة من اللباد الأسود لتجنب الملهيات. وتقوم أجهزة قياس الإحساس بقياس النشاط الشعاعي بدقة شديدة، فترسل المعلومات إلى الكومبيوتر وهو بدوره ينتج رسومات ثنائية البعد مظهراً البقع المثارة عصبيا عند كل نشاط يقوم به المقطوع.

وقد تبين أن الفصوص الجبهية تخطط للمستقبل، وتتحكم في الحركة وتنتج الكلام، بينما الفصوص الصدغية مسؤولة عن السمع وتفسير الموسيقى واللغة، وتتلقى الفصوص الخليفة المعلومات من الحواس وتقوم بمعالجتها. أما الفصوص القذالية فمتخصصة في الرؤية. وتقوم اللوزة Amygdala بتوليد المشاعر من التعليمات والأفكار. بينما يثبّت قرن آمون Hip-pocampus المعلومات المكتشفة حديثًا، إلى أن يحول الذاكرة القصيرة الأمد إلى طويلة الأمد. ويقوم المهاد البصري Thalamus بأخذ المعلومات الحسية ونقلها إلى القشرة. وتتحكم سويقة الدماغ في وظائف الجسم الآلية كالتنفس. أما المخيخ فيتحكم في التناسق العضلي.

إن القشرة المخية للدماغ هي التي تميز الإنسان من أي حيوان تميزاً واضحًا. فسمكها أقل من ٦ مليمترات، وهي تؤلف شكلاً ذا أثلام ملتصقًا بالجمجمة.

الدكتور ريستاك: يبقى الدماغ لغزاً

وإذا فرشت القشرة تبلغ مساحتها حوالي ألف سنتيمتر مربع، كل سنتيمتر مكعب يحوي نحو ألف كيلو متر من الألياف الضامة داخله. إن القشرة المخية للإنسان ليست فقط أكبر بكثير من تلك التي لأي حيوان، ولكن لها أيضًا مساحة غير مرتبطة Uncommitted Area، أوسع بكثير. وهذا يعني أنها منطقة غير ملتزمة بمعالجة وظائف الجسم الجسدية، ولكنها حرة من أجل العمليات الفكرية الأسمى التي تميز الإنسان من سائر الحيوانات.

وقد قام فريق من العلماء بتطوير تقنية جديدة لمسح الدماغ، هي جهاز تداخل الكم المفرط الموصلية SQUID. فهو يتحسس التغييرات الدقيقة في الحقول المغناطيسية. فعندما يثار، ينتج العصبون تياراً كهربائيا، وتنتج الحقول الكهربائية حقولا مغناطيسية. وهكذا تدل التغييرات المغناطيسية على نشاط عصبي. وهناك طريقة التصوير بالرنين المغناطيسي MRI، ولكل جهاز من أجهزة المسح الثلاثة نقاط قوة ونقاط ضعف، فيمكن لـ PET أن تتعقب بدقة وظائف الدماغ، ولكن لايمكنها أن تحلل البنى التي يقل طولها عن سنتيمتر واحد، بينما MRI لايمكنها أن تحدد الوظائف، ولكن يمكنها أن تميز البنى التي يصل طولها إلى ملليمتر واحد.

استعمله أو تخسره

لم يتأكد العلماء بعد من التغييرات الفيزيولوجية التي

تحدث في الدماغ عندما نتعلم، ولكن الدليل الاختباري يقترح أنه فيما نتعلم، وخصوصا في أوائل حياتنا، تتشكل توصيلات أفضل، وتنطلق كميات أكبر من المواد الكيماوية التي تصل بين الفراغات الموجودة بين العصبونات، والاستعمال المتواصل يقوي التوصيلات؛ وهكذا تزداد المقدرة على التعلم. تذكر مجلة Psychology Today "أن المسالك التي يتكرر تنشيطها تتقوى بطريقة ما"، وهكذا تنشط حملات واسعة في العديد من دول العالم للتشديد على وضع الدماغ موضع الاستعمال. يقول العالم يوهاني يونتونن، مدير حملة "أدمغة فعالة" في فنلندا: "في الدماغ لدينا إمكانية لانهاية لها لحل المشاكل، ولكن من المؤسف أن الإنسان يستعمل ما معدله عُشر مقدرة الدماغ فقط" ويقول: "طوروا أدمغتكم، تأملوا، خططوا، تعلموا أمورًا جديدة، اقرأوا مواد مفيدة، فتحظوا بمقدرة أكبر تحت تصرفكم". ويجد أنه من المزعج أن كثيرين جدًا يعجبون بالأحداث، ويستخفون بالمقدرة الدماغية للأشخاص الأكبر سنًا، لأنه يعتقد أن أدمغة الأكبر سنا من شأنها أن تعمل أفضل من تلك التي للأصغر سنًا من بعض الأوجه. يقول يونتونن: "ليس مصادفة أن يتولى أشخاص ذوو خبرة المناصب العالية، فالدماغ يمكن أن يكون آلة تتدهور تدريجيًا، لكن الكبار يستعملونه بمهارة أكثر من الصغار".

وقد تبين أن الفترات الطويلة من عدم النشاط ليست مفيدة للدماغ كما كان يُظن سابقًا فقد أظهر البحث الذي أجراه العالم الألماني برنت فيشر أن مقدرة الإنسان على التفكير تتضاعف إلى درجة معينة بعد مجرد ساعات قليلة من الغياب الكامل للمنبه. وينصح فيشر أولئك الذين يقضون عطلتهم دون أي نشاط أن يعيدوا النظر في الأمر، إذ يقول:" كالعضلات غير المدربة بعد عطلة طويلة من عدم النشاط، في ظروف معينة، يحتاج الدماغ إلى ثلاثة أسابيع لكي يبلغ مستواه السابق من الإنجاز، ويضيف: "إن رياضة القراءة التي تثير المخيلة تمنع الدماغ من الصدأ خلال العطلة".

كما كشفت العديد من الدراسات التي أُجريت في جميع أنحاء العالم أنه كلما استعمل الشخص دماغه أكثر، كلما قل احتمال تعرضه لاضطرابات عقلية. نعم، إن الحصول على ثقافة أكثر لايعني فقط أنكم تطورون أدمغتكم أكثر عندما تكونون شبابًا، بل إنكم تستعملونه أكثر طوال حياتكم إذ ينتج ذلك نوعًا من الآلية الواقية من المرض العقلي. تقول الأستاذة في علم النفس العصبي، الدكتورة ماربلين البرت: "لقد أثبتت هذه النتائج بشكل كاف حتى إننا نعرف أن الأمر حقيقة. وبالنسبة إلى الدماغ، يعني ذلك (استعمله أو تخسره)".

الدماغ والصحة الجسدية

في السنوات الأخيرة، أثبت البحث العلمي أن صحتنا الجسدية تتأثر فعلا بموقفنا العقلي والمشاعر التي نطورها في دماغنا. ففي دراسة أجريت في سنة ١٩٩١م تبين

نقطة الاشتباك
العصبون المرسل
بقعة عصبية
المستقبلات
العصبون المستقبل
مرسلات عصبية

الاتصال الكهربائي ـ الكيميائي بين العصبونات

أن معدلات الوفاة تزداد خمس مرات لدى الأشخاص الذين يطورون مشاعر الغضب والعداوة بشكل دائم. وحتى الأشخاص الذين يبقون في حالة غيظ مكبوت لديهم معدل وفاة أعلى بمرتين من الأشخاص العاديين. تقول العالمة مارا جوليوس، من جامعة مشيغان: "بالنسبة للكثيرمن النساء، فإن الغضب المكبوت الدائم هو عامل خطر للوفيات المبكرة أقوى من التدخين". وفي دراسة حديثة جدًا، أجريت في جامعة ستانفورد الأمريكية، بقيادة الدكتور غابل أيرنس تبين أنه "فيما لايكون الغضب وحده المسؤول عن مرض القلب، فالغذاء والتمرين والتركيب الوراثي تلعب دورها أيضاً، ويعتقد الباحثون أن الغضب يمكن أن يكون المساهم الرئيس". وقد بينت الأبحاث الطبية قائمة طويلة من المخاطر التي يمكن أن يسببها الغضب فيمكن أن يسبب ارتفاعا في ضغط الدم، وتغييرات شريانية، واضطرابات نفسية، واعتلالا في الكبد، وتغييرات في إفراز الصفراء، بالإضافة إلى القرحة والمشاكل الهضمية.

وقد تبين أن مشاعر القلق والكآبة تسبب العديد من المخاطر الصحية. وتشمل القائمة تغييرا في عادات الأمعاء، والصداع، والمغص، وآلاماً في البطن والصدر، والتعب الدائم. وفي دراسة أجرتها الدكتورة س.ب. توماس من جامعة جونز هوبكنز، على أكثر من ألف متخرج أثبتت هذه النقطة تماماً. فعلى مر ١٦ سنة قارنت توماس بين خصائص المتخرجين النفسية وقابلية تعرضهم للمرض فتوصلت إلى أن: "المتخرجين الأكثر قابلية للتعرض للمرض كانوا الأكثر قلقا".

ومن ناحية ثانية فإن الضحك الذي يعبر عن مشاعر الفرح والسرور يمكن أن يكون تمرينا جيداً للقلب فتتحسن الدورة الدموية، ويتمرن به الحجاب الحاجز ويرتفع به مستوى الأكسجين في الدم وتتمرن معه أيضًا عضلات الصدر، والعنق، والوجه، وفروة الرأس، بالإضافة إلى عضلات العين التي تُخرج الدموع. وتذكر مجلة علم النفس الأمريكية أن "برنامج علاج فكاهي يمكن أن يحسن نوعية حياة المرضى الذين يعانون مشاكل مزمنة، وأن للضحك تأثيرًا سريعًا في تخفيف هذه الأمراض.

كما تبين أن امتلاك مشاعر المحبة والمودة تجاه الآخرين يعزز الصحة البشرية. يقول الدكتور هانس سلي، من جامعة مونتريال: "إلى حد بعيد، فإن الاكتشاف الأكثر أهمية في الطب العقلي هو قدرة مشاعر المحبة على حماية عقل وجسم الذين يعربون عنها". ووفقًا لدراسة نفسية أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية على ١٧٠٠ متطوع، تبين أن مساعدة الآخرين قد أعطت المتطوعين شعوراً بالهدوء والراحة، وخففت الاضطرابات المتعلقة بالضغط، كأوجاع الرأس وخسارة الصوت، وتختتم الدراسة بالقول: "يبدو إذاً أن تطوير مشاعر المحبة للآخرين في عقولنا والإعراب عنها هو جزء من الطبيعة البشرية".

هل يُحلّ اللغز؟

نعم لقد خطا العلماء في السنوات الأخيرة خطى عظيمة في دراسة الدماغ. ومع ذلك فإن ماتعلموه يبقى ضئيلاً بالمقارنة مع مابقي مجهولاً. يقول العالم ريتشارد ريستاك إنه بعد آلاف السنين من التخمين والعقود الحديثة من البحث العلمي المكثف، تبقى أدمغتنا "لغزا من حيث الجوهر". فلاريب أن الدماغ البشري هو الجزء الأكثر غموضًا في العالم الحي. فهل يحل الإنسان هذا اللغز كاملاً؟ متى؟ وكيف؟ ربما تكون كلمات الدكتور ريستاك مفيدة بهذا الخصوص: "بما أن الدماغ مختلف ومعقد إلى حد يتعذر قياسه أكثر من أي شيء آخر في الكون المعروف، فقد يلزمنا أن نغير بعض أفكارنا التي نتمسك بها بحرص شديد قبل أن نتمكن من سبر غور بنية الدماغ الغامضة وحل أسراره".

المراجع:

1- Programs Of The Brain, J.Z. Young, 1978.
2- The Brain: The Last Frontier, Richard M. Restak, 1979.
3- The Brain: Mystery of Matter and Mind, Jack Fincher, 1981.
4- The Emperor's New Mind, Roger Penrose, 1989.
5- Scientific American, September, 1979.
6- Medical World News, October 10,1983.
7- The Time, December 14, 1987.
8- American Journal of Psychiatry, May,1988.
9- Psychology Today, October, 1988.
10- NEWSWEEK, Novmber 25,1991.
11- NEWSWEEK, August 24, 1992.
12- NEWSWEEK, February 7, 1994.
13- LE FIGARO, 5 Mars, 1988.

كتاب
المبعث والمغازي
لقوام السنة
(١)

مخطوطات جديرة بالدراسة والنشر (١٢)



حلقات يكتبها: حمد الجاسر

أليس من الوفاء لعالم جليل من العلماء الأعلام، وصفه أحد حفاظ السنة، وهو أبو موسى المديني بقوله: إمام أئمة وقته، وأستاذ علماء عصره، وقدوة أهل السنة في زمانه(١)، كما وصفه الذهبي بالإمامة والحفظ وبأنه شيخ الإسلام(٢)، وقال تلميذه أبو سعد السَّمعاني: كان إمامًا في فنون العلم، في التفسير والحديث، واللغة والأدب، حافظًا متقنًا كبيرَ الشأن، جليلَ القدر. عارفًا بالمتون والأسانيد، أملى بجامع أصبهان قريبًا من ثلاثة آلاف مجلس(٣).

أليس هذا العالم جديرًا بأن يُحيَا ماعُرف من آثاره لجلالة قدره، ولتقدم زمنه. هذا العالم هو: اسماعيل بن محمد بن الفضل الطَّلْحي التَّيْمي الأصبهاني الملقب بـ (قِوَام السُّنَّة) الذي عاش في القرن الخامس الهجري، وترجم في كثير من كتب التاريخ، لقد ولد سنة ٤٥٧هـ وتوفى سنة ٥٣٥هـ، في مدينة أصبهان، وقصد أمهات المدن الإسلامية لتلقي الحديث، فجاور في مكة، ودخل بغداد، وزار نيسابور وغيرها من المدن في تلك الجهة، وتلقى العلم عن مشاهير العلماء في ذلك العصر.

وتتلمذ عليه كثيرون، منهم من المشاهير أبو سعد السمعاني صاحب كتاب "الأنساب" وغيره من المؤلفات(٤)، وهو من أجلّ شيوخه، ذكره في رسم (الجوزي) من كتاب "الأنساب" ومن تلاميذه ابن عساكر، والسِّلَفي وأبو موسى المديني، وغيرهم(٥)، وله مؤلفات، فقد وصفه تلميذه أبو موسى بقوله: أما التفسير والمعاني والإعراب فقد صنف فيه كتبًا بالعربية وبالفارسية، وأما علم الفقه فقد شُهرت فتاويه في البلد والرساتيق.

ومما ذكر بعض مترجميه كالذهبي وصاحبي "كشف الظنون" و "هداية العارفين" من مؤلفاته:

١- في إعراب القرآن: عَدّ صاحب "كشف الظنون" المترجم ممن ألف في إعراب القرآن(٦).

٢- "الأمالي في الحديث".

٣- الإيضاح في تفسير القرآن: وصفه صاحب كشف الظنون(٧) بأنه كبير في ٤ مجلدات ولعله هو الذي سماه الذهبي في "سير أعلام النبلاء" "الموضح" وقال: إنه في ٣ مجلدات مع أن صاحب "هداية العارفين" ذكره مع (الإيضاح).

كتاب «المبعث والمغازي» لقوام السنة

٤- الترغيب والترهيب: قال صاحب "كشف الظنون": إن المنذري استوعب مافيه، وأضرب عن ذكر الأحاديث الموضوعة، مشيرًا إلى أن من تقدم من العلماء تساهلوا في أنواع من الترغيب والترهيب حتى ذكر كثير منهم الموضوع ولم ينبهوا على ذلك.

٥- الجامع في التفسير: في ثلاثين مجلدًا على ماذكر الذهبي.

٦- الحجة في بيان المحجة: ذكره صاحب "هداية العارفين".

٧- دلائل النبوة: ذكره أيضًا.

٨- سيرة السلف.

٩- كتاب السنة: ذكره الذهبي.

١٠- شرح صحيح البخاري.

١١- شرح صحيح مسلم.

١٢- المعتمد في التفسير: في عشر مجلدات على ماذكر الذهبي.

١٣- المغازي.

ولم يُعرف من تلك المؤلفات في عهدنا سوى كتابين، كتاب "سير السلف" وكتاب "المغازي" الذي وصلت إلينا منه مخطوطة فريدة باسم كتاب "المبعث والمغازي" من مخطوطات القرن السادس الهجري، كما اتضح لي من اسم ناسخها وهو يحيى بن محمود بن سعد المكنى بأبي الفرج، وهو سبط مؤلف الكتاب من ابنته، ويبدو أنه من العلماء الذين نشروا علم جدِّه إسماعيل بن محمد، فقد أورد الذهبي(٨) بسنده مانصه: (أخبرنا محمد بن عمر بن محمود الفقيه، أخبرنا محمد بن عبدالهادي، أخبرنا يحيى ابن محمود، أخبرنا جَدِّي لأمي إسماعيل بن محمد الحافظ بأصبهان، أخبرنا أبو نصر محمد بن سهل السراج، وساق السند إلى عائشة، وأورد حديثًا نبويًا معروفًا).

ويظهر أن الشيخ كان أَمْلَى كتابه فتلقاه عنه سبطه هذا، فقد ورد في أول الكتاب مانصه: (ثم إن جماعة من أهل العلم - وفقهم الله لطاعته - اقترحوا عليَّ بعد فراغي من كتاب "السير" أن أُملي عليهم كتابًا مشتملاً على ذكر مولد النبي صلى الله عليه وسلم وبيان نشوئه وتربيته إلى حال إرساله، وبعثه، ثم بذكر أحواله في مغازيه، وذكر سراياه إلى وقت وفاته، ثم أُتبع ذلك بذكر الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم، وماجرى من الفتوح في أيامهم ففعلت ذلك).

وفي آخر الكتاب: (آخر كتاب "المبعث والمغازي" التي صنفها جَدِّي الإمام الحافظ إسماعيل بن محمد بن الفضل - قَدَّس الله روحه - رحم الله من دعا لصاحبه بالخير ولكاتبه سبط المملي يحيى بن محمود بن سعد المكنى بأبي الفرج).

والمؤلف في كتابه هذا لايتوسع في إيراد الأخبار ومايتعلق بها، ولايُعْنَى كثيرًا بإبداء رأيه حيال مايورد من ذلك، ومنه - بقلّة - بعض الشعر، حيث أورد قصيدة نونية نسبها إلى بَرَّة بنت عقبة بن أبي مُعَيْط في رثائه، وأخرى لابنة النضر بن الحارث(٩)، وقصيدة لعبدالله بن الزِّبَعْرَى في رثاء قَتْلَى بدر من قريش، أورد ابن هشام في "السيرة النبوية"(١٠) بعض أبياتها، وبعض أبيات قصيدة حسان بن ثابت في الرد عليها، وغالب هذا الشعر مما لايثبته المحققون من العلماء.

ولايشير المؤلف إلى المصادر التي رجع إليها، وكثيرًا مايكتفي بجملة: "قال أهل التأريخ"، وقد يشير بقلة إلى بعض أوائل علماء السيرة، مثل عروة بن الزبير، والزهري، وموسى بن عقبة وابن اسحاق. كما يسوق بعض الأخبار مسندة إلى شيوخه، ومنهم والده محمد بن الفضل، وأحمد بن عبدالرحمن الذكواني، والحسن بن أحمد السمرقندي، وإسماعيل بن عبدالرحمن الصابوني، وسعيد بن أحمد الواحدي وغيرهم.

وهو يختصر في أخبار الوقائع، ولايحاول تحديد أزمان ماحدث منها قبل الهجرة.

وقد خصص القسم الأول من الكتاب لذكر أحوال المصطفى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، وأورد فيه من الأخبار الغريبة مايتكرر ذكره كثيرًا عند مؤلفي السيرة النبوية مثل خبر سادن صنم سعد العشيرة قَرَّاص، واسم السادن ذباب بن الحارث، ومصدره أبي المنذر هشام بن الكلبي، وخبر سواد بن قارب الدوسي مع رئيِّه من الجن، ويشرح غريب الكلمات التي ترد.

وخصص بابًا في ذكر أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وشمائله من (الورقة ٣٢ب إلى الورقة ٣٦ب) ثم أورد بابًا في ذكر بدء الوحي، وذكر الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر هجرته إلى المدينة (إلى الورقة ٦٤ب) حيث بدأ بذكر مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه، واستغرق هذا جل الكتاب، حيث ألحق به خبر الوفود، وخبر حجة الوداع، (إلى الورقة ١٥١ب).

ثم تحدث عن مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته إلى (الورقة ١٥٥ب) حيث انتهى

بقوله: (هذا آخر ما انتهى إلينا من مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعثه وهجرته، إلى أن قبضه الله تعالى إلى جنته، ونملي بعد هذا إن شاء الله ذكر الخلفاء الأربعة بأيامهم وسيرهم جعلنا الله من محبيهم والمتبعين لآثارهم، وصلى الله على محمد وآله وسلم. ذكر استخلاف أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ).

واستمر في سرد أشهر ماوقع من أخبار خلافة أبي بكر إلى (الورقة ١٦٧) فذكر استخلاف عمر بن الخطاب، وهو في حديثه عن الحوادث في عهد عمر يحددها بالسنين، وحينما انتهى من ذكرها (الورقة ١٨٤) قال عن عمر: (وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربع ليال) ثم ذكر استخلاف عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ في سبع ورقات (من الورقة ١٨٤ إلى الورقة ١٩١) ثم أتبعها بذكر استخلاف علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه .

وهو في الكلام فيما جرى بين الصحابة من خلاف على نهج علماء السنة، فلا ينال، ولايورد مايفهم منه النيل من أحد منهم شيئًا من الأخبار.

وحينما انتهى من الكلام على علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال في (الورقة ١٩٨ب): (هذا ماتيسر إملاؤه من ذكر الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم، وقد تركنا... أشياء لايضر الناظر في هذا الكتاب أن لايراها فيه، ونذكر فصلاً في السكوت عما شجر بين الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ونختم الكتاب به، نسأل الله تعالى السلامة في ديننا ودنيانا، وأن يحيينا على مأأوحى [كذا، ولعل الصواب: أحيا] عليه سلفنا الصالح، ويميتنا عليه، إنه المنعم المنَّان. فصل ذكره القاسم بن محمد في كتاب "السنة" في الحرب التي كانت بين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وبين طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم اختصرته).

ثم في (الورقة ١٩٩): (فصل في القول فيما كان بين علي ـ رضي الله عنه ـ ومعاوية اختصرته). وبعده النقل عن كتاب القاسم بن محمد في الكلام عن معاوية.

وكانت خاتمة الكتاب (الورقة ٢٠٠) بما نصه: (قال الشيخ الإمام ـ رحمة الله عليه ـ فيما أجاز لي عمرو عن والده) وساق أخبارًا تتعلق بما جرى بين الصحابة ختمها بقوله:(وقال الشيخ رحمه الله: هذا آخر ماحضرني ذكره من الزجر في الخوض فيما يهيج الفتنة، ويورث الشبهة، والحث على الاقتداء بالسلف الصالح في ذلك، عصمنا الله من الفتن والبدع، وثبتنا على طريقة السلف وسيرة الصالحين، بفضله ورحمته، وصلى الله على خير خلقه وآله أجمعين).

مما تَقَدَّم يتضح محافظة المؤلف على السير على نهج علماء السلف، وهذا من الأمور التي تدعو لدراسة هذا الكتاب، والاتجاه لتحقيقه ونشره، ولن يعدم الباحثون فيه مما قد لايوجد في غيره من المؤلفات المتعلقة بسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام مع كثرتها، فمؤلفه من متقدمي العلماء.



الصفحة الأولى من المخطوطة «طرة الكتاب»

الحواشي:

(١) سير أعلام النبلاء: ٨١/٢٠.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) الأنساب، للسمعاني: ج٣، ص ٤٠٨.
(٤) ومع أن الحافظ الذهبي وصف كتاب السمعاني "التحبير في المعجم الكبير" بأنه ترجم فيه شيوخه فأفاد وأجاد، إلا أنني لم أجد ذكرًا لشيخه ابن قوام السنة في الكتاب المطبوع بهذا الاسم في بغداد بتحقيق الاستاذة منيرة ناجي سالم ترجمة مما يوقع الشك في صحة أن يكون هو كتاب "التحبير".
(٥) سير أعلام النبلاء: ٨١/٢٠.
(٦) ذكره صاحب "هداية العارفين": ٢١١/١.
(٧) ٤٠٠/١.
(٨) سير أعلام النبلاء: ٨٧/٢٠.
(٩) الورقة الـ (٧٩).
(١٠) ج٣، ص ١٦.



الفصحى أمانةٌ في عنق هذه الأمة

بقلم
عبدالله بن محمد بن خميس

تُتّخذ لغات الأمم معيارًا لتقدمها، ونباهة ذكرها وعلوّ قدرها، إذا كانت حيةً ناميةً منتشرة، أو لضعفها، وخمولها، وهونها، إذا كانت هزيلة، متخاذلة منكمشة، لذلك حرصت الأمم على أن تولي لغاتها كبير عنايتها، وأن تبذل في سبيل نشرها وتزكيتها، وإحياء ما اندثر منها، والمحافظة على قواعدها طاقات كبيرة، من المال والجهد، والدعاية.

يقدرون النبوغ في العلوم والفنون، ويحتفون بالعبقرية في الفكر والاختراع ويحيّون نباهة الذكر، وبروز الشخصية؛ لأن من لوازم ذلك كله أن تجد لغتهم منفذًا من أقطار الأرض، وأن تفرض نفسها، وتتبوأ مقعد الإعزاز والإكبار، ثم هم يغارون على لغاتهم من أن يطغى عليها الدخيل، أو تجد المسميات الأجنبية، والألفاظ المستوردة سبيلاً إلى ألسنتهم، يستغنون بها عن لغتهم، ويرضون بها بديلاً عن مصطلحاتهم دعك ممّن يتعالم ، ويتحاذق بتطعيم كلامه بألفاظ يستوردها، وعبارات يجترُّها كما هو المشهود من بعض مثقفينا اليوم، فهذا عندهم لا وزن له، إن وجد، وماهو بموجود.

ثم هم يغارون على لغاتهم من الخبل في الألسنة، واللوثة في النطق، والركاكة في التعبير فيقيمون للنقد وزنًا يحارب اللحن، ويسلق من يحاول أن يقتعد غير وكره أو يدرج إلى غير عُشّه.

فهم ينمّون لغاتهم بالتهذيب، والاشتقاق، والاصطلاح، ويستعملون مواهبهم وأفكارهم وجهودهم في توسيع دائرتها، وضمان انتشارها، ويقوّمون بالنقد ماعوج من مسالكها أو انآد من قناتها، كلهم لذلك، وبما أوتوا من ثقافة وفهم للحياة، وإدراك لقيمة اللغة، كلهم حراس على لغتهم وأمناء عليها، ورقباء.

ولم يكن العرب الأقدمون بأقل شأنًا من هؤلاء ولا أولئك، إذا لم يكونوا المثل الأعلى والقدوة المثلى، في الحفاظ على لغتهم، والغيرة عليها، والحفاوة بها، فما كان البيان في أمة غير العرب مطلبًا يراد لذاته، ومبتغىً يُعمد إليه وغاية لا وسيلة، وماكانت الفصحى في غضارة مجدها، ونضارة فَوْدها، وعلوّ كعبها لتبلغ مابلغت، لولا مقاويلٌ هُرْتُ الأشداق، يتبارون من رحابها في شتى المسالك، ويتنافسون من أسرارها في مختلف الفجاج، يقفون للخطابة فينقاد البيان طوع ألسنتهم، وتتزاحم لهم الألفاظ في أسماطها، ويتأتّى لهم القول في أصالته، وسلاسته، وجزالته، وسموّه... ويقرضون الشعر، فيؤاتيهم إلهاماً، وينقاد لهم طبيعة، ويفيض تأثراً تحوطه السليقة، وتبعثه الملكة، وتستجلبه دُنياهم ضاحكة أو باكية، واصفة أو حاكية تتنفس عنه موهبة، لم تعانِ درسًا ولم تتكلف صنعة ولم ترجع إلى قواعد.

يضاحكون النور، أو يغازلون الرياح، أو يشكون الوجد، أو يفاخرون أو ينافرون فيجدون ملكة سخيّة، وألفاظًا طرية، وبيانًا ثرًا، وتلقى أحدهم اللقاء العابر، فتستجلي أمره، وتطلب خبره، فيبثُّكَ مالديه، غير متكلف ولامتعمّل، في أسلوب بياني، حلو الديباجة، مُنقّى الألفاظ، سليم الأداء، واضح النبرات.

قوم أعطوا لغتهم صفاء قرائحهم، ونقاء مواهبهم، وشفافية أذهانهم، ولماحة خواطرهم فأعطتهم من جمالها، وكمالها، وحلاوتها، وطلاوتها، وسحرها، وسرّها وفيضها الزاخر، ومدّها الأتيّ، مايعجز عن بسطه اليراع، ويلتاث دون وصفه التعبير.

فكانت الفصحى في أخريات عصر الجاهلية، وبين يدي الإسلام قمة في البيان تتقاصر دونها القمم، ونهاية لا تطاولها لغة، بالغة ما بلغت، من النضج، ورحابة المنطق، وغناء المد ولم تكن معجزة القرآن لتأتي إلى العرب في صميم علمهم، وسواء فنهم، وهم البلغاء المقاويل والفصحاء ذلق الألسن، ملوك القول؛ لولا أن المعجزة تأتي إلى الأمم بما تحذقه وتخرج إليهم بنوع ما هم مبرزون فيه.

فمعجزة موسى كانت من نوع ما قوم موسى واقعون فيه، وكانوا سحرة مهرة، فجاءتهم المعجزة في العصا، تكون حيّة تسعى، ويضرب بها الحجر فينبع ماء، ويضرب بها البحر فينفلق؛ وفي اليد تخرج من جيب موسى، فإذا هي بيضاء للناظرين، ومعجزة عيسى إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، في قوم حذقوا الطب، ومهروا فيه.

ولكن لم يبلغ سحر أولئك، ولاطب هؤلاء، مثلما جاءت به المعجزات.

وجاءت معجزة محمد إلى قومه، وللفصاحة بينهم شأن، وللبلاغة عندهم مكان، لايطاولهم في ذلك مطاول، ولايطمع في مكانتهم طامع، ولايدور بخلدهم أن يُؤتوا من جانب الفصاحة، ولا أن يُغلبوا في ميدان القول فتركهم القرآن حيارى مبهوتين، وأصيبت ألسنتهم بالخبل، وأشداقهم بالشلل، وتحداهم فأصيبوا باللكن، وناداهم للمحاكاة فيئسوا وانقطعوا، ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ والجنُّ عَلَىَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾.

فهذب القرآن من حواشي اللغة، وشذب من متوقحها، وصفاها ونقاها ووهبها مادة خصبة، ومكانة رحبة، ومنحها الديمومة والخلود، فالعربية في متنها وقواعدها ومصطلحاتها. مدينة للقرآن، كما هي مدينة له في بسوقها، وسموقها وانتشارها واتساع دائرتها، ومعانيها ومبانيها.

ومن هذا أن هذه اللغة قد بلغت قبيل الإسلام، ثم في عصور الإسلام الزاهرة، غاية مجدها، وعنفوان شبابها، وماكانت لتبلغ ما بلغت، لولا غيرة حُفّاظها ويقظة أمنائها، وإخلاص ذويها، سواء كان ذلك لذات هذه اللغة أو من أجل أنها لغة القرآن، أو لكليهما.

وما كان تفاخر العرب في جاهليتها، بسلامة ألسنتها من اللحن وسلائقها من التحريف - فإن العرب في جاهليتهم لايلحنون، بل يصدرون في نطقهم عن السليقة ويعتمدون على الطبع - وإنما يتفاخرون في سُمُوّ المنطق، وجزالة اللفظ، وقوة العارضة، وسلامة الذوق:

وننكر إن شئنا على الناس قولهم

ولا ينكرون القول حين نقول

وما كل قبائل العرب في درجة واحدة من الفصاحة والبلاغة، بل هم على مراتب، ولكن ذلك لايعني غمز اللغة، أو وجود اللحن فيها، وكان الأعراب المتوقحون أفصح من الحضر لذا كان النبلاء من قريش وغيرهم يبعثون بأبنائهم إلى البادية، لينشأوا بها ويزدادوا فصاحة وخشونة.

ولما جاء الإسلام بدأت بوادر اللحن تظهر بين المسلمين، ويظهر أن سبب ذلك دخول عناصر في الإسلام ليست من العرب، ولكن حراس اللغة كانوا لهؤلاء بالمرصاد، وعلى رأسهم منقذ البشرية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لَحَنَ رجل بحضرته فقال: «أرشدوا أخاكم فقد ضل»، ويروى عنه أنه قال: «رحم الله امرأ أصلح من لسانه».

وقد درج خلفاؤه من بعده على هذا السَنَن، كتب أبو موسى الأشعري كتابًا إلى عمر فلحن كاتبُه، فرد عليه عمر قائلاً: قَنِّعْ كاتبك سوطًا.

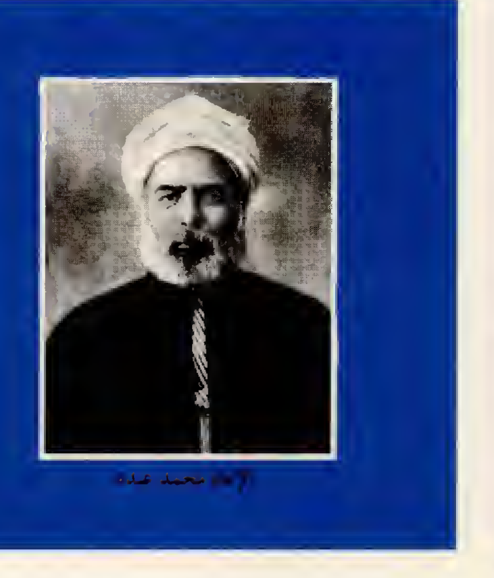
وكان انتشار المسلمين في الأقطار، ووفود الأعاجم إلى قاعدة الدولة الإسلامية وامتزاج العرب بغيرهم من الأعاجم سببًا في فساد السلائق، وانحراف الألسنة فما جاء الجيل الثاني في الإسلام، حتى تفشت هذه الظاهرة بين عرب الحاضرة، وأخذوا أبناءهم بتقويم الألسنة، وتهذيب النطق، حتى إن ابن عمر يضرب بنيه على اللحن تقويمًا لهم.

واحتضن هذه الأمانة بعد عصر الخلفاء، الدولة العربية الأصيلة، دولة بني أمية فكان خلفاؤها الغُيَّر، ورجالها العرب الخُلَّص ينافحون عن الفصحى، ويذبّون عن حماها ويحتقرون من يتهاون بها.

استأذن رجل من أهل الشام على عبدالملك بن مروان وعنده قوم يلعبون الشطرنج، فقال: ياغلام غطها. فلما دخل الرجل تكلم فلحن فقال عبدالملك: ياغلام اكشف عنها الغطاء، فليس للاحن حرمة، ولما لحن محمد بن سعد بن أبي وقاص قال: (حَس) إني لأجد حرارتها في حلقي.

ويعتبر اللحن لديهم مَغْمزًا في كفاءة الخليفة، فيقال: حسبك بفلان الخليفة أنه لحّان.

كان الوليد بن عبدالملك لحانًا على عدله ونباهة ذكره، يقول أبوه: أضرَّ بالوليد حبنا له، فلم نوجهه إلى البادية، ليقوم لسانه، حتى قيل له يومًا


الإمام محمد عبده

وهو خليفة: إن العرب لاتحب أن يتولى عليها إلا من يُقوِّم كلامها، فعندها جمع أهل النحو، ودخل بيتًا ليتعلم فيه، وحبس نفسه فيه شهرًا مكبًا على علم النحو ولكنه خرج مثلما دخل.

خطب الناس يومًا فقرأ في خطبته: ياليتُها كانت القاضية، بضم التاء من ليت، فقال عمر بن عبدالعزيز وكان في الحاضرين، قال: عليك وأراحنا الله منك.

وعدُّوا رجالاً في ذلك العهد، لم تُحفظ عليهم لحنة واحدة، من شدة كَلَفهم باللغة وعنايتهم بها، منهم: عبدالملك بن مروان،



الفصحى أمانة في عنق الأمة

والشعبي، والحسن البصري، وأيوب بن القرِّيَّة.

ومازالت الدولة الأموية محافظة على أمانتها، مكافحة لكل مامن شأنه ثلب الفصحى، وغمزها رغم الدواعي، والدوافع.

ومآل أمر الخلافة إلى بني العباس، وكان للأعاجم يد في تصريف أمور الدولة، وطغت التيارات التي حلت عرى العصبية العربية، حتى داخل الألسنة ما داخلها من الدخيل وما لاثها من العجمة، في ضعف من المقاومة، وقوة من المد الأعجمي، عند ذلك اكتفى الغُيَّر من علماء هذه الأمة الأفذاذ، بوضع التآليف وتقعيد القواعد، والرحلات إلى البوادي.

وقامت مدارس لكل منها مريدون، وأتباع فألفوا أوَّل ماألفوا فيما تلحن فيه العامة؛ لأن اللحن آنذاك كان مقتصراً على لحن العامة، مثل كتاب أبي عبيدة وأبي حنيفة الدينوري، وأبي عثمان المازني، وأبي حاتم السجستاني، والمفضل بن سلمة والفرّاء وغيرهم من علماء القرن الثالث فما قبل.

أما بعد ذلك فقد وقع الخاصة في اللحن، وسرت إلى العلماء عدوى هذا الداء رغم مايقابلون به من نقد لاذع، وغمز مُنْكي، مما حدا ببعض أعلام ذلك العهد، أن يؤلفوا كتبًا فيما تلحن فيه الخاصة، مثل كتاب: لحن الخاصة لأبي هلال العسكري، ودرة الغواص في أوهام الخواص للحريري وغيرهما.

ولم تزل بعدئذ العجمة تطغى، واللحن يتفشى، تبعًا لانحدار دولة الإسلام والعرب حتى انقرضت الملكة العربية أو كادت، وأصبحت الفصاحة تؤخذ بالدرس، والملكة تتربى بالمعاناة والحفظ والإدمان، وهجرت جوانب من الفصحى لاينطق بها لسان ولايخطها يراع، مقبورة في بطون الأسفار وتضاعيف المعاجم، وأصبح المنافحون عن حمى الفصحى يضربون في حديد بارد وبسهم صادر، حتى جاء مايسمى بعصر النهضة، وأول نواتها كان في مصر والشام، برز منها رجال هم ماهم في علوم اللغة وآدابها، نذكر من بينهم اليازجيين، وعبدالله فكري، وعبدالله النديم، ونجيب الحداد، وعائشة التيمورية، والبارودي، وحسين الجسر، وأحمد فارس الشدياق، وأحمد السباعي، وحسن العطار، والمرصفي، ورفاعة الطهطاوي، وآل البستاني، وجمال الدين الأفغاني، وعبدالرحمن الكواكبي، ومحمد عبده، وأخيراً جرجي زيدان، وحافظ إبراهيم، والرافعي.

كل أولئك وغيرهم من الأعلام هم قادة النهضة، وأقطاب الفكر، ورواد الأمة، كانوا ورثة ذلك التراث المجيد، ونعم الوارثون، وكانوا دعامة لنهضة عربية، لو قدّر لها أن تحتفظ بحرارتها وحماستها ونهجها السليم، ولو قدر للخلف أن يقتفي آثار السلف وأن يكون لذلك التراث ورّاثا، ولاننسى ما للجامعة الأزهرية من فضلٍ على الشريعة واللغة لاينسى.

ولكن سرعان ماسرى الوهن في جسم تلك الانتفاضة، واعتور الفصحى وعلوم الشريعة ما اعتورها من عوامل هدم، جدَّ بها الزمن، وابتليت بها الأمة إلى يومنا هذا، ولعل شاعر النيل حافظ إبراهيم أدرك بوادرها، وقد كان عهده سليمًا، وحالة الفصحى لاتزال بخير يقول على لسان اللغة العربية، من قصيدته الطويلة المعروفة:

أرى كل يوم في الجرائد مزلقا
من القبر يدنيني بغير أناة
سقى الله في بطن الجزيرة أعظما
يعزّ عليها أن تلين قناتي

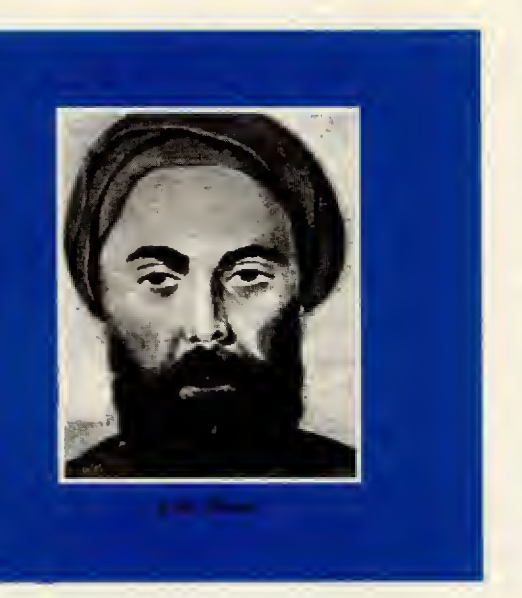
إلى أن قال عن رجال الغرب:

أتوا قومهم بالمعجزات تفننًا
فيا ليتكم تأتون بالكلمات

ونستطيع أن نقول إنه بعد صدر هذه النهضة، قامت في البلدان العربية مدارس أدبية، كل منها له صحافة وأتباع، ورواد، وتشقق الفكر العربي تبعًا لاتجاهات جديدة وتيارات طارئة، وقامت مجامع لغوية وعلمية، لاتجمعها رابطة، ولاتؤلف بينها وشيجة، وهي وإن كان لها أثر في خدمة لغتنا، إلا إن جهودها لم توحد، ومعارفها لم تلتق من أجل عمل تجتمع عليه الأمة، ويعترف به الكل، ويحمل عليه الأفراد.

أما بلادنا من حيث واقعها اللغوي، وباعتبار الثقافة اللغوية، المكتسبة بالدرس والتحصيل فليست أحسن حالاً من غيرها، إذا لم تكن في المؤخرة، نظرًا للقرون العجاف التي مرت بها وهي تغط في سباتها العميق، وتتخبط في متاهاتها المظلمة وتأتي يقظتها متأخرة عن جاراتها في حساب الزمن، وإلى جانب الأدواء التي فرضتها ظروف هذا العصر على الثقافة اللغوية فهنالك ذيول وعقابيل، لاتزال تجترها من ماضيها المظلم.

فهنالك الدخيل الذي سرى في جسم الفصحى بحكم الجهل وبدافع التقليد وبنفوذ الأجنبي المتغلّب في بعض أجزائها، وانعدام المقاومة، ثم الوافدين إلى هذه البلاد بدافع التجارة والحج من غير العرب، ممن استوطنوا أو سرت عدوى عجمتهم إلى ألسنة العرب، فأصبحت البلاد تنطق مزيجًا من لغات شتى



منهـا التركـية، والفـارسية، والأوردية، والجـاوية، والتكرورية، وغيرها من لغات الأمم الكثيرة، وشق على بعض المثقفين أن يفـرق بين الأصيل والدخيل مما يتردد على الألسنة، وتجـري به الأقلام ،ودعك من غير المثقفين فأولئك ما عليهم من سبيل.

ثم مـاأتت به هذه المختـرعـات من أسـمـاء لمسميات في الطب والهـندسة والصناعة والزراعة وسائـر العلوم والفنون بقيت على أسمائـها كـما هي عند أهلهـا، وشغلت جـانبًا من لسان قـومنا، ولكثـرة حـاجتنا لهـا أصبحـت أسمـاؤها أكـثـر استـعـمـالاً على ألسنتنا من كـثـيـر من الألفـاظ العربية.

وبهذه المناسبـة أنقل لكم مادار بيني وبين نفر من إحـدى البلدان العـربيـة المجـاورة، وكنا حـول المذياع وهو ينـقل مبــاراة في كـرة الـقـدم، وإذا بالمصطلحـات التي تنقل كلهـا بلغـة غيـر عربيـة، جون ـ أوت ـ كرنر ـ فاول ـ بلنتي... إلخ.

قالوا: بلدان الـفصحى، يعزّ عليهـا أن تُعرِّب مثل هذه المصطلحـات الرياضيـة اليسيرة، وتخرج من عـار التقليـد حتى في هذه البدائه الصـغيـرة، والمفـروض أن أرباب النوادي غالبًـا من الطبقـات المستنيرة، التي تعرف قيمة لغتـهـا، ومَعَرّة استعمال غيرها.

قلت لهم: دعكم من هذا، فله حـديث يأتي، ولكن هـل قـولكـم المصطلحــات الرياضـيــة صحيح؟.

قـالوا: ولم لا يكون صــحـيـحًـا؟؛ قلت: إن مــدلـول هذه المادة لغــويًا، لايعطينا هذا المعنى وعليكم أن تسـتـقـرئوا وتسـتنبطوا كـمـا فَعلتُ، لتجدوا أنهـا مقحمة على المادة إقـحامًا وأن المعنى الأسلم، والأقـوم، لاستـعـمـال الرياضـة المتعـارف عليها الآن، هي الفتوّة كما كان العرب يسمونها.

قالوا: إن على الغُيُر من هذه الأمة، أن ينظروا في إصلاح مـافسـد من لغتـهم ؛ وتقويم مـا اعوجَّ منها وتغيير الدخـيل الذي جاء عفوًا بدون قصد، أو دَعَتْ إليـه الضـرورة حيث لايوجـد ثمّـة بديل غـيـره، دخـيل يرادف به المتنطعـون، والمتعـالمون ألفاظًا لغوية، يقحـمونه في كلامهم، ولو لم تدعُ إليه ضـرورة أن يستجلبـه داعٍ، كأن اللغة العـربية قد ضـاق عطنهـا، أو كأن ثقـافتنا لاتكمل حتى نُطعِّم لغتنا بلغة أجنبية.

ونحن ندرك أن كل لغـة يعـتـورها الدخـيل، رغـم الـحـفــاظ والمقــاومـة، بحكم الـروابط التي واشجت بين الأمم، ثقـافـيًـا واجتمـاعيًا وطبيًا... إلخ، لكن ذلك بقدر، وبقدر مـا تدعو الضرورة، ويستـدعي الموقف، أما أن يطغى ويلتبس باللغة، ويضادها وينافسها؛ فهذا مانخشاه، وماندعو إلى حـربه، فـإنه سـرعـان مـايخـدش الملكة ويفـسـد الذوق العـربي وينتزع الأصـالة اللغـوية من أذواق أهلها، ولنا عبرة بـبـعض الدول العربية التي حاول الاستعمار الفرنسي أن يفرنسـها، فالتاثت عجمة مرتضخة شوهاء، تحاول الآن التخلص منها.

فـسـلامـة الملكة، ونفـاذ الذوق، وأصـالة الإدراك اللغـوي، والـطبـع العـربي، هي مـاندعـو إليــه، ومـا أعــرض الناس عن بلاغـــة القــرآن وفصـاحتـه الآخذة بمجـامع القلوب، المالكة على البليغ الذواقة لبَّـه، والمهيمنة على وجـدانه، ـ تجد فـيـه الملكة السليـمــة، والذوق الأصـيـل، لذة لاتعادلها لذة وانفعالاً نفسيًـا يتخاذل التعبير دون وصفه وينقطع اليـراع دون إبرازه ـ ماحدث ذلك إلا بعد أن ارتخـت الملكة العربيـة وخدش الذوق الأصـيل، ومـاأعـرض الناس عـن قـراءة كـتـب الجاحظ والمبرد، وابن المقفع، والرافعي والزيات، وعن شعـر المتنبي، وأبي تمام، والبحتري، وغيـر هؤلاء وأولئك ممن تتجسم الفـصحى في بيانهم ويبرزونها مجلوة فائقة، رائقة، تستهوي النفوس وتخلب الألباب، وتسحر وتبهر؛ ماعدل قراؤنا عن ذلك إلى أسـاليب غثّـة متهـالكة وإلى شعـر بارد متكلف، إلا بعد أن ضعفت الملكة وخولط الذوق.

والصحـافة عـرفت في عصـر النهضـة بأنها المنبر الذي أعطى الفصحى وأجزل، ووسع دائرة القــول وأفـسـح المجــال للنقــد، وتفـننت بهـا الأساليب، وتواشجت فيهـا الأقلام، واحتضنتها أعـلام الفـصاحـة وربابنة البـلاغـة واتخـذ منهـا الرواد الأوائل سـلاحًـا يفـري وبـلسـمًـا يبـري، وكـان لايتسنّم منبرها إلا من اكـتـمـلت أداته، وصلبت قناته، وأينعت ثـمـرته، ولايسلك في سـمـط كتـابهـا، إلا من سـامر المحـابر والدفـاتر، وذاق حـلـو العلم ومُــرّه، وإذا قــدر لـه أن يَرى شعـره أو نثره علـى صفحـاتها الأولى مـرة، طار فرحًـا واستوفـز، وتعمّل، ولم يقـدّم لها إلا جنىً شهيًا وبيانًا جاحظيًا.

واليوم غصت الفـصحى بصـحافتهـا، وأتيت من مأمـنها وتلقـفت من أربابها العُـجَر والبُـجَر، ولُقب على نواصيها بالأستاذية من هو منها أفرغ





من فؤاد أم موسى، وبالأدب من يعرف كل شيء إلا الأدب وعلى صفحاتها أغضب سيبويه والخليل، وتنكر لأساليب جَرْوَل وجميل، وحق لها أن تنشد:

لو بغير الماء حلقي شَرِقٌ
كنت كالغصان بالماء اعتصاري

والنقد وماأدراك ماهو، إنه ضرورة علمية، يحد من اندفاع الواغلين والمتطفلين، ويقوم معياراً بين الحق والباطل، ويهذب ماااعتاص أو تأبد، ويشذب مانشز، ويقوّم ما انآد، لم تعد الفصحى تنعم في كنفه، وبتفيأ عليها ظلاله، ويذب عن حماها، ويدرأ عن حرمتها، ركب غرابَ الشعر أناسٌ يقيسون أوزانه بالمساطر، ويقال لأحدهم ياله من شاعر، وتصدى للبيان غير أربابه، وقيل لأحدهم جُذيله المحكك وعُذَيْقَه المرجّب، وما من نقد يضع الأمر في نصابه، ويجلو الحقيقة ويعرض كل مايعرف، وما لايعرف.

أدواء تعتور الفصحى، وتنخر في جسمها، ماتحدثنا عنه بعضُها، وبلادنا هي مهد اللغة ومهبط الوحي ومنطلق المد الإسلامي وصانعة تاريخ العرب والإسلام، ومن نجادها ووهادها وسهولها وسهوبها نشأت الفصحى، وبشيحها وقيصومها وخزامها وعرارها تفتّقت قرائح الشعراء وتحلبت أفاويق البلاغة والبيان، وتركت في مسامع الدنيا أدبًا هو المثل الأعلى في الآداب ولغة هي العباب الزاخر والمثل السائر، وإذا كان في العرب الآن من ينطق الفصحى عن أصالة، ويتذوقها عن طبيعة ويميز غثها من ثمينها، فما ذلك إلا في سروات اليمن وهضاب نجد، ومسارب تهامة.

وإذا كان التاريخ يعيد نفسه، والفرع يرجع إلى أصله، والسقب يحن إلى مربعه ومرتعه؛ فإن من هذه البلاد تدفقت جداول الفصحى، وتداركت موجاتها، ولاغرابة أن يعود حقها إلى نصابه، وسيفها إلى قرابه.

وإذا كان حماة الفصحى وأمناؤها، يعلقون على هذه البلاد آمالهم في انتشال لغة العرب من وهدتها وإيقاظها من رقدتها فما ذلك إلا لأنهم عرفوا للحق أهله، وأعطوا القوس باريها، وإذن فالأصالة اللغوية، والوطن الأم، والحقائق التاريخية، والغيرة على لغة القرآن في مهابطه، وموئل لغة المسلمين في مقدساتهم ومشاعرهم، كل ذلك يتمثل في هذه البلاد، وكل ذلك عُرف بها وعُرفت به، وكل ذلك يجعلها أمانة في عنق هذه البلاد.

يجب أن تعد نفسها إلى المحافظة عليها، ويجب أن تقوم دعوة شاملة، يؤمن بها كل فرد يتبوأ مكانه من جزيرة العرب، يتزعمها أدباؤنا النابهون، وتضطلع بها الصحافة المحافظة، وتحتضنها الوزارات المختصة، ويشترك فيها المكتب والنادي والجمعية والمدرسة والبلدية. يحاربون الدخيل ويستنكرون مضغ الألسن بالعجمة، ويصححون اللافتات الملحونة، والعناوين المنحرفة والأسماء المستوردة، ويأخذ كلٌ نابه يرعى مكتبًا أو متجرًا أو شركة، يأخذ على نفسه أن لايصدر عنه كتاب ملحون ولا كلام مدخول.

وعسى أن تقوم للنقد سوق رائجة، ومهيع سليم، فيه نستطيع أن نعمل الكثير في سبيل لغتنا، وعسى أن يقوم مجمع لغوي في بلادنا يضم النخبة المختارة من علمائها وأدبائها، ليرعى مستقبل اللغة، ويوجه ويرشد، ويصحح ويعرب، ويُرجع إليه فيما يَعِنّ وفيما يختلف فيه.

فجوانب الفصحى بالنسبة إلى هذه البلاد لاتزال بكرًا كاعبًا، ومسالكها لاتزال مجهولة ومآتيها لاتزال غفلاً.

ففيها لهجات شتى، تحتاج إلى دراسة وتحقيق ومقارنة واستنباط، وفيها عامية يمت أكثرها إلى الفصحى بأكثر من نسب وسبب، يدلنا على الأصالة الباقية في لغتنا والسليقة المستوطنة بها، فبالتمحيص والبحث نجد أننا على مقربة من لغتنا، وأن عودتنا إليها ميسورة.

وفيها أدب شعبي يتمثل في الشعر والقصة والمثل، فيه أمجاد مطمورة، وتواريخ مجهولة، وحلقات مفقودة، وآصرة وثيقة، تربط هذا بأدبنا الفصيح، وتبين لنا أن هذا فرع، وذاك أصل وهذا جدول وذاك منبع، يكشف لنا البحث بينها عن حلقات متصلة وروابط متواشجة.

وفيها أعلام أمكنة وحقائق تاريخية، ومواد لغوية وأنساب ومعالم، أخطأ أصحاب المعاجم في ذكرها، وخلطوا وحرّفوا وجاءوا بالبُجَر والعُجَر، كل ذلك يقتضينا أن نضع يد الأمة العربية عليه، ونبصرها به.

وفي الشعر العربي الذي هو أصل كل مادة يعتمد عليها أصحاب المعاجم في تدوين اللغة؛ فيه أسرار وخبايا ومواطن للبلاغة أخطأ الشراح في فهمها وضلوا في متاهات التمحك والتمحل والتأويل يسهل فهمها على ابن الجزيرة، وتدنو حقائقها منه بحكم امتداد تلك المعاني إلى اليوم، واستيطانها في وطنها الأصلي.

أذكر بالمناسبة أن شارحًا كبيرًا جاء يشرح قول البهاء زهير:

بل كعبة المعروف بل كعب الندى
والماء يقسم شربه بحصاته

لتّ وعجن، ثم قال إن القوم يرضون بقسمته، إذا ألقي في الماء الكثير حجرًا، رضوا بأن ما كان من يمين مرمى الحجر في الماء فهو لآل فلان، وماكان عن يساره فهو لآل فلان، ونقول للشارح الكريم: إذا اختفى مرمى الحجر في الماء فمن يحكم بين الفريقين؟

وماعلم أننا لو عرضنا هذا البيت على أعرابي في شملته، لتبادر إلى ذهنه من أول وهلة المعنى الذي يعرفه والذي يقصده الشاعر، وهو أن الماء إذا شحّ على القوم وأرادوا أن يقتسموه للشرب؛ وضعوا حجرًا في الإناء وأخذوا يهريقون عليه من القربة حتى يغطيه الماء ثم يقدمون لسائر القوم شربة شربة على أساس هذا القياس.

وبالجملة فإننا لنأمل ونتمنى أن تدرك هذه البلاد مسؤوليتها تجاه لغتها، وألا تنهج النهج الأقوم في الحفاظ عليها وحياطتها، وما ذلك عليها بعزيز.

حوار مع

نهاد رضا

الإبداع الحقيقي لايخضع للوصفات الجاهزة

أجرى الحوار: سعيد العبر

صدر في شهر نيسان/أبريل من العام الحالي ١٩٩٤م، الموافق لشهر ذي القعدة ١٤١٤هـ الكتاب الأخير للشاعر والمفكر السوري نهاد رضا، تحت عنوان: "صعود الفرسان الجدد".

وبصدور هذا الكتاب تكتمل «ملحمة العهد المعاصر» وهي ملحمة شعرية ـ فكرية، نظمت مباشرة باللغة الفرنسية، وتقع في ثلاثة أجزاء. وكان الشاعر نهاد قد نشر تباعًا في العامين الماضيين الجزأين الأول والثاني.

ونظرا للصدى العميق الذي تلقاه هذه الملحمة، والتقدير الكبير الذي صدر عن عدد من الأعلام الفرنسيين، ومن جملتهم المستشرق المعروف البروفسور "جاك بيرك" الذي وجه للشاعر رسالة أعرب له فيها عن كبير تقديره لهذا العمل الشعري المتميز، ذي الأثر الإيجابي الفاعل.

لذلك سعينا إلى إجراء هذا اللقاء مع الشاعر المفكر نهاد، والذي تنفرد مجلة "الفيصل" بنشر أول حديث مستفيض يدلي به بعد صدور الجزء الثالث من الملحمة، أملا في تسليط بعض الضوء على هذا العمل الملحمي الفريد في نوعه، وتعريف قراء المجلة ببعض الخصائص الهيكلية والفنية التي تميزت بها هذه الملحمة، وماتنطوي عليه من مضامين ذات أبعاد، ومواضيع ذات دلالات.

تجديد جذري

ـ فلنبدأ أولا باستفسار على مستوى التقسيمات المنهجية المتبعة للأنواع الأدبية، حيث تعتبر الملاحم أرفع الأنواع الشعرية مكانة، لأنها لاتستجيب إلا لندرة من الشعراء، بل قلما يتم نظم مثل هذه الأعمال الفنية لدرجة أنه يمكن حصر عددها خلال حقب التاريخ في أقل من عشر ملاحم مشهودة، وهي وفق المعايير الدارجة تشتمل على أعمال البطولة الخارقة، ومبارزات الفرسان، لإطلاق أميرة من الأسر، أو للإشادة بسير بعض الأبطال، فما هي سمة "ملحمة العهد المعاصر"، في ضوء هذه الصفات والمعايير التقليدية؟

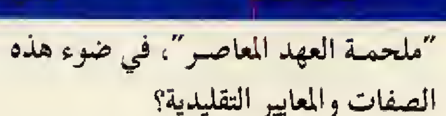
أعمال أدبية سابقة، وخاصة ملحمة "الإلياذة"، إنه قرار فني في ظاهره، تعسّفي في حقيقته، لأن الإبداع والمحاكاة لايلتقيان، وقد أدرك ذلك بعض الشعراء في عصور لاحقة، وكانت هناك محاولات للانعتاق من قبل "فولتير" وخاصة من قبل "فيكتور هيجو"، وهي محاولات يمكن أن توصف بالإخفاق، دون تحامل أو ظلم.

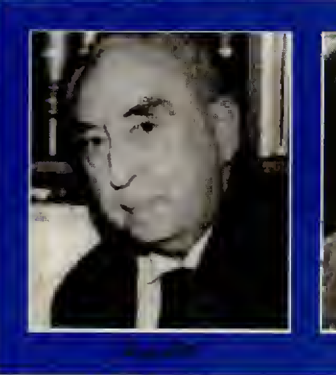
وعلى هذا الأساس، تتميز "ملحمة العهد المعاصر"، بأنها تجديد جذري على مستوى الهيكلية والمعايير، ولكن الأهم، أنها أكثر تجديدا فيما يتعلق بالمضمون.

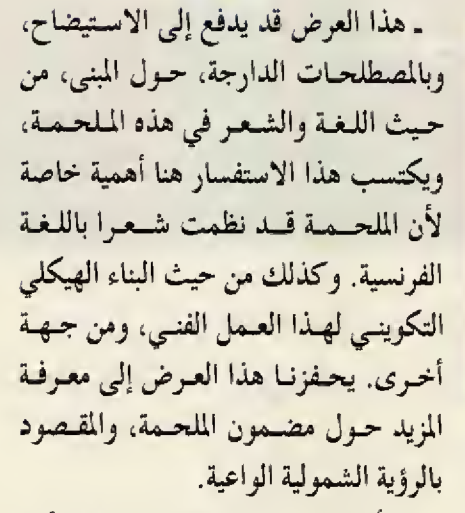
كله، فهي تتناول تاريخ الإنسانية، وتستعرض بمعزل عن التسلسل الزمني، سجل الأحداث البارزة، والفترات الأساسية، والوقائع الحاسمة، والمآسي الرهيبة، والانقشاعات المضيئة، وذلك من خلال رؤية شمولية واعية، وتصوير مكثف لايسعى مع ذلك إلا إلى الوضوح والتركيز والشفافية. اللفظة في هذا العمل الفني هي، إن جاز القول، مبنى في حي، وبيت الشعر حي في مدينة. والنشيد أو القصيدة مدينة في كيان.

رؤية شمولية واعية

ـ هذا العرض قد يدفع إلى الاستيضاح، وبالمصطلحات الدارجة، حول المبنى، من حيث اللغة والشعر في هذه الملحمة، ويكتسب هذا الاستفسار هنا أهمية خاصة لأن الملحمة قد نظمت شعرا باللغة الفرنسية. وكذلك من حيث البناء الهيكلي التكويني لهذا العمل الفني، ومن جهة أخرى. يحفزنا هذا العرض إلى معرفة المزيد حول مضمون الملحمة، والمقصود بالرؤية الشمولية الواعية.







ـ عنوان الملحمة في حد ذاته قد يساعد على التوضيح، فهي "ملحمة العهد المعاصر"، وبالتالي فهي من حيث الزمن مفارقة للملاحم السابقة، وهي من حيث بنائها المعماري والفني مختلفة على نحو جوهري، فالإبداع الحقيقي لايخضع للوصفات الجاهزة، وماهي هذه الوصفات كما نجدها لدى المؤلفين الذين يضعون النظريات حول الأصناف الشعرية؟ إنها مجرد تشخيصات مؤطّرة لمواصفات

إنها بريئة من رؤية عبثية تحشد جيشين يتطاحنان، وفرسانا يقتتلون من أجل أميرة، وآلهة وأنصاف آلهة تبعد بالملحمة عن دنيا الناس، وبريئة من رؤية عنجهية تتباهى بفترات تاريخية معينة لهذا الشعب أو ذاك، مع الاسترسال في سرد التحركات الجزئية، ووصف التفاصيل الهامشية، حاشدة الألوف المؤلفة من أبيات الشعر، بعدما حشدت الألوف المؤلفة من المتحاربين الذين يسفكون دماءهم لحساب الآخرين، والمجد الزائف.

"ملحمة العهد المعاصر" بريئة من ذلك

ـ سأتناول تباعا هذه النقاط المرتبطة بكل من المبنى والمضمون.

فيما يتعلق بعنصر اللغة والشعر في هذه الملحمة، لعل أفضل تقدير هو ذلك الذي يصدر عن أهل الاختصاص في المجال الأدبي، ولاسيما إذا صدر عن نفر من الأعلام الفرنسيين، فقد استهل المستشرق الفرنسي الكبير "جاك بيرك"، وهو غني عن التعريف، استهل رسالته الموجهة إليّ بعد صدور الجزء الثاني من الملحمة، وهو

بعنوان: "بيان الأزمنة الإنسانية" بقوله حرفيا: "إن الشعر الفلسفي في الأدب العربي الحديث شيء نادر، ولأنْ يتم التعبير عنه، بقلمك، في لغة فرنسية لها مثل هذا الانطلاق، فهو سبب إضافي يدعو إلى الاهتمام بهذا العمل". أما البروفسور "جان غولمييه" فقد كتب إليّ حرفيا: "إنني لمعجب بسيطرتك على اللغة وعلى الأوزان الشعرية الفرنسيين اللذين تمتلكهما وتتعامل معهما بيسر فائق. إنك معلّم".

يكفي بعد ذلك أن أضيف على سبيل الإيضاح أن الأوزان الشعرية في هذه الملحمة تتراوح، حسب مقتضيات الموضوعات، من الشعر الحر، إلى نصف الموزون، إلى الموزون. علما بأن معظم الأناشيد قد نظمت بالشعر الكلاسيكي الموزون، ويشتمل على كل من الإيقاع الثماني والعشاري والأثني عشري، حيث إن كل أناشيد الجزء الثالث، وأغلب أناشيد الجزء الثاني، قد نظمت في هذا الإطار.

فلننتقل الآن إلى المعمار الهيكلي للملحمة، إنها تقع، كما أصبح معروفا، في ثلاثة أجزاء، كل جزء منها يضم ثلاثة فصول متساوية في عدد الأناشيد. في الجزء الأول يضم كل فصل عشرين نشيداً، وفي الجزئين الثاني والثالث يضم كل فصل عشرة أناشيد، وبالتالي تتألف هذه الملحمة من مئة وعشرين نشيدا.

ثمة توضيح هيكلي من نوع آخر، فكل نشيد في هذه الملحمة له استقلاليته الذاتية من جهة، وارتباطه العضوي المتدرج من جهة أخرى، وكل فصل له استقلاليته من حيث الإطار الجامع وله ارتباطه المتدرج مع بقية الفصول. أخيرا، لكل جزء من أجزاء الملحمة استقلاليته، بل وعنوانه الخاص، وله ارتباطه مع البقية في إطار الكيان الكلي للملحمة.

أما مضمون هذه الملحمة فأوسع من أن يلخص في جمل أو في صفحات، لأن وقائعها تدور على مستوى الوجود الإنساني بكل أبعاده، إنها في حد ذاتها تكثيف تقطيري لمراحل التاريخ، وأحداثه المصيرية البارزة، بما تحمل من إشارات ودلالات وعبر، ليس هناك من حدث أساسي يتطور في مساره وعقدة تتنامى ثم تنحل وفق منطق مخطط لها. فالأحداث في هذه الملحمة بمثابة خلايا موّاجة تقع مع الفلسفات والتيارات الفكرية في البؤرة الضوئية لرؤية فكرية شمولية، كذلك قد يظهر حدث ما في نشيد ما، ثم يختفي ليعود إلى الظهور في نشيد آخر ليتلقى إنارة ثانية من زاوية أخرى، وعماد هذه الرؤية الشمولية ماجاء في القرآن الكريم الذي تتقيد الملحمة بنص آياته، لذلك ترى الإحالات إلى آيات الكتاب مبثوثة في العديد من أناشيد الملحمة. كما تتصدر كل فصل من الفصول آية أو مجموعة من الآيات هي بمثابة محور موجّه.

ملحمة شعرية إسلامية

ـ إذا كانت هذه الملحمة تنطوي على نوع من التكثيف لمراحل التاريخ، فما نصيب عصرنا وقضاياه فيها، خصوصا أنها تحمل تسمية: "ملحمة العهد المعاصر"؟

ـ إن عصرنا وقضاياه الكبرى بمثابة نقطة انطلاق. فمنه تصاعدت الصيحات المأساوية التي نراها منبثة، على نحو خاص. في الجزء الأول من الملحمة: سباق التسلح، التهديد النووي، التلوث، الصراعات المختلفة، المخططات العدوانية. وخلال الجزء الأول تولدت التطلعات إلى "مدينة فاضلة" رمزتُ إليها بلفظة "أركاديا"، وهكذا انفجرت الزوايا على المآسي عبر التاريخ، وانفتحت الآفاق على هالات نورانية تطل على الجنس البشري من آيات الكتاب، وإننا لنجدها مستعرضة بشكل مكثف وشفاف في الجزئين الثاني والثالث على نحو خاص لتحمل الأمل بمجتمع أفضل ومستقبل أزهى.

وعلى هذا الأساس يجوز القول إن هذه الملحمة التي تحمل هموم الإنسان بأمانة وحب هي أهم الملاحم الشعرية وأنبلها على الإطلاق. ولم يحصل لها مثل هذا التفوق إلا لأنها تستلهم الهدى من آيات القرآن الكريم. وبعبارة واحدة، إنها الملحمة الشعرية الإسلامية الكبرى، ولعل من المناسب، أن أختتم هذا التوضيح بجملة معبرة وردت في رسالة المستشرق "جاك بيرك" حيث أفاد بما يلي: "إن الكثيرين منا إذا ماقرأوا عملك فسيشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم مثلما تقول (في قصيدة من الجزء الثاني) "مسلمون دون أن يحملوا الاسم".





د. رمضان
بسطاويسي محمد

تعـددت لدينا في الآونة الأخيـرة الدراسـات التي تتناول الجنون في الفكر الغربي(١)، لاسيمـا بعد ترجمة نصوص ميشيل فوكو (١٩٢٦-١٩٨٤م) عن الجنون، وهذه الدراسـات تعكس مـسـيرةَ ظاهرةِ الجنون من منظور ثقافة تقوم بنقـد ذاتها، ونقد آلياتها في التـفكير والتحليل السياسي والاجتماعي، وقد ساهمت محاولة فـوكـو في كـشف الـدور الذي قـامت به العـلوم (الإنسـانية) ولاسيما علم النفس والطب النفسي، في وصف هذه الظاهرة، ليس من أجل كشـف أسبـابهـا، ومعالجتها ولكن لخدمة السلطة السائدة. وأهم ما في هذه المحاولة هو الفلسفة التي يسعى فوكو لتأسيسـها، والخطوات المنهجية في دراسة الظاهرة، هذه الجوانب المنهجيـة التي نزعت الطابع الفكـري (الإيديولوجي) الذي يغلف العلوم الإنسـانية في دراستـهـا للظواهر، وبالطبع يمكن الاختلاف مع فوكـو حول النتائج التي توصل إليها، وأبرز هذه الاختلافات قد قدمها هابرماس (١٩٢٧م) في نقـده لفوكـو(٢). وهـي تبرز التعـدد الثقافي في نقد الذات الأوروبية لنفسها.

لكن إذا كـانت هـذه المحاولة هي دراسة لظاهـرة "الجنون" في الفكر الغـربي، ومن منظور تراثهـا الحضـاري والثـقـافي، فكيف يمكن لنا أن ندرس هذه الظاهرة لدينا دون الوقوع في التفسير الجاهز الذي قدمه فوكو ويتـفق مع مـعطيـات حضـارته؛ ويلبي احتياجاتها في المرحلة الراهنة؟ وكيف نظر الفكر العربي لهذه الظاهرة؟ وكيف تطورت النظرة إليـهـا فـي الواقع الاجـتـمـاعي والحضاري؟ وهل نُظر للجنون بوصفه مظهراً سيـاسيـا أو ظاهرة طبيـة؟ ومـا رؤية القـرآن الكريم والسُنَّة النبوية لهـذه الظاهـرة؟ ومـا مـوقف الفـقـه من "الجنون"؟ وكـيف تناول المفكرون هذه الظاهرة لدينا؟

- ١ -

تزخر اللغة العربية بألفاظ عديدة تدل على الجنون وأنواعـه، مما يمكن أن يسهّل تسـميـة أعراض كثيرة سلوكية ومعرفية باللغة العربية، وطبـيـعي أن تكون لفظة الجنون هي العـبـارة المركزية التـي تؤول إليها مـرادفاتهـا وتستظل بمظلتـها الدلالية، فـقد أسند فـعل الجنون إلى عدد من الكائنات غير الإنسان، فقد وصفت بعـض الأشـجـار والإبـل والنبـاتات بالجنون(٣)، إذ تجاوزت الحدود المألوفة، وقد استخدم أبو حيان التوحيدي هذا اللفظ في وصف جنون البـلاغـة، وجنون الشعـر(٤)، وكـان يقصـد بهمـا عدم تجانس العبارات، وعـدم التـزام نسق محدد يضـمن للأفعـال الصادرة شيئا من التناسق، سواء أكانت تلك الأعمـال ملموسة أم مـجردة. وهذا يعني أن هناك معنى عامًا للجنون يطلق على أي شيء بما فيه الإنسان الذي يخرج عن معايير ثقافية مـحـددة، وفي هذه الحـالة يصـبح الجنون



مخالفة الناس في عاداتهم والإتيان بما ينكرون(٥)، وهو معنى مجازي، لأنه لايقصد به الجنون في ذاته، وإنما يقصد به الشخص غير العادي في قدراته وأعماله، وأطلق الكفار هذه الصفة (الجنون) على الأنبياء والرسل، لأنهم قدموا للناس غير مااعتادوا عليه.

أما المعنى الخاص للجنون فقد حددته المعاجم بمظاهر وحركات، فقد نسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: «إنما المجنون الذي يضرب بمنكبيه وينظر في عطفيه ويتمطى في مشيته»(٦) غير أن الاهتمام الحقيقي - في التراث اللغوي - لم ينصرف إلى المظهر والحركات والأفعال، وإنما انصرف إلى أحوال العقول ومقاديرها، فهذا معتوه فاقد العقل، وذلك ضعيف العقل، أو ناقصه، وآخر عقله فاسد أو مُخالَط، وقد ورد الجنون تحت ألفاظ عديدة منها: هجر، يَهم، دَله، ظنن، عدم، سُلس، سُبه، عَته، غَثث، خَلْط وغيرها من الألفاظ التي تصف حالات الجنون، وبعضها يصف أنواعه مثل الخفع، والصَّرَع، والموته(٧)، والبلادة، والبلاهة، والاختلاط، والألس، والتأته، والخبال، والسُّعَر، والشمل، والفتون، واللمم، والمس، والنقص، والهُتْر، والهَوَس، والوسواس، ولعل كثرة الألفاظ الحاملة لمعاني الجنون، والتي يفوق عددها عشرين لفظة، تنم عن إرادة للسيطرة على هذه الظاهرة، وفهمها، وتفسيرها للوقوف على أسبابها.

وقد أشار النيسابوري في كتابه «عقلاء المجانين» إلى الجنون المؤقت العابر، الذي قد يُذهب العقل نتيجة لمراحل العمر وبعض أطوار الجسم والمؤثرات الخارجية إلى حين، فشدة الغضب أو الخوف قد تكون من مظاهر الجنون العابر الذي يزول بزوال السبب(٨). فالفكر العربي يفرق بين الجنون المؤقت العارض، وبين الجنون الدائم. والثقافة الإسلامية تنظر للمجنون بوصفه مريضًا، وهذا نجده في العقيدة(٩) وفي الفكر العربي أيضًا الذي يعتمد في بعض جوانبه على الملاحظة.

ويردّ الفكر العربي الجنون إلى عدة أسباب، منها:

١- أن عقل الإنسان يختلط حين تمسه الشياطين، وتخبله الجن، ولكن الجاحظ يشير إشارة ذكية إلى أننا حين نجهل الأسباب نرد الأمر للجن والشياطين(١٠) فمن الجن من يفتن الإنسان عن طريق النظر، أو طريق العشق، وقد وردت قصص كثيرة في كتب التراث عن العلاقة بين الجن والإنسان، والتي تؤدي إلى الجنون.

الفكر العربي يفرق بين الجنون المؤقت والجنون الدائم

٢- ربط الفكر العربي بين جنون الحيوانات وجنون الإنسان، فقد وصفوا جنون الإبل المضطربة بالسُّعَر، وجنون الشاة بالثَّوَل، ورصدوا هذه الظواهر(١١).

٣- تحدثوا عن الضعف الذي يصيب الإنسان في الشيخوخة، ويؤدي لإفساد العقل، وهو ما يَسمه الطب النفسي الحديث بذُهَان الشيخوخة.

٤- اعتبروا الصدمات العنيفة الطارئة، والهموم المسيطرة الجاثمة من أسباب الجنون أيضًا.

٥- ربطوا بين نوع الغذاء الذي يتناوله الإنسان وحالته العقلية والمزاجية، وذكروا بعض أنواع الأعشاب التي قد يؤدي تناول الكثير منها إلى الجنون، ولكن القليل منها قد يصلح العقل، وهذا إدراك للعلاقة بين التركيبة الكيماوية للغذاء والدواء وأثرها في العقل، ووصل الأمر إلى الدعوة لمقاطعة لحم الماعز(١٢)، والباذنجان، وبعض أنواع الأعشاب.

٦- اعتبروا أن العبادة المغلقة، التي تتم في وحدة وانعزال عن العالم تمامًا قد تكون سببًا من أسباب الجنون، وفسروا بها بعض مظاهر الدروشة كالسير عُريانًا، وفهم الأمور على نحو خاص لايشارك فيه الغير.

٧- اهتم الفكر العربي بدراسة أثر المناخ والطقس في عقل الإنسان، فاعتبروا أن إطالة الصوم في أيام الصيف الحار قد تغير من طبع الإنسان.

٨- ربطوا بين حركة الكواكب وتوقيت الصرع، فقد قرر الجاحظ أن أوان الصرع هو الأهلّة وأنصاف الشهور(١٣) وربط بين مد البحر وزيادة حجم القمر إلى أن يصير بدرًا وزيادة الدماء في دماغ الإنسان.

٩- رصدوا أن اختلاف التوازن في جسم



الإنسان من أسباب الجنون أيضًا. فبعض القبائل كان معظم أفرادها من المجانين، مما يدل على أثر الجانب الوراثي والحيوي (البيولوجي) في حياة الإنسان العقلية.

١٠- اهتموا بدراسة التربية الخاطئة التي تؤدي إلى الوسواس، وذلك بأن تُلح على تعليم المدركات العميقة للأطفال الذين لم يصل إدراكهم إلى مستوى تلك الموضوعات.

١١- ربطوا بين العشق والجنون، فقد ربط ابن حزم في طوق الحمامة بين العشق والجنون، ولم يقصد كل أنواع العشق، وإنما بعض حالاته التي تولد الجنون من "إدمان الفكر، فإذا غلبت الفكرة وتمكن الخلط السوداوي، خرج الأمر من حد الحب إلى حد الولّه والجنون"(١٤).

١٢- الجوع والعطش والإرهاق قد تكون من أسباب الجنون التي يذكرها الأطباء العرب أيضًا.

١٣- وقد تخرج الأسباب عن الإطار الكيماوي والنفسي، وتدخل في الإطار الاجتماعي، فقد يكون الجنون كامنًا، يكشفه موقف يستثار منه الشخص المجنون، فيظهر ما كان يخفيه، وقد يكون بسبب دعاء من إنسان على شخص ما بسبب جرائمه فيجن.

هذه بعض أسباب الجنون، كما وردت في كتب التراث، وليس المجال هنا مجال تمحيص هذه الأسباب في ضوء تطور الطب النفسي، لأن هذا مايمكن أن يقوم به المختصون في هذا المجال، وأركز هنا على الملامح العامة التي تساعدنا في توضيح رؤية الفكر العربي لهذه الظاهرة الإنسانية، التي ترتبط بملابسات اجتماعية وسياسية.. وهذه الأسباب تُشتق من مصدرين:

أولهما: العقيدة، حيث صرحت بعض الآيات بمس الجن، سواء أكان هذا المس من الجن للإنسان من جهة التحذير والعقاب، أو كان من جهة الهوى والعشق، فإن القرآن الكريم ذكر ذلك في (سورة البقرة الآية: ٢٧٥): ﴿ الَّذينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لايقُومُونَ إلا كَمَا يَقُومُ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيطَانُ مِنَ المَسِّ ﴾ (الآية) وفي (سورة الأعراف الآية:٢٠١): ﴿ إنَّ الذينَ اتقَوا إذا مَسَّهم طَائفٌ منَ الشَّيطان تَذَكَّرُوا فَإذَا هُمْ مُبْصِرُون ﴾.

حاول ابن رشد والكندى تقديم أدوية كيماوية للجنون

وثانيهما: الخبرة والملاحظة لأحوال الإنسان في أحواله العادية وغير العادية، وتزخر كتب التراث بوصف لأحوال الجنون ومظاهره لدى الإنسان والحيوان والنبات.

- ٢ -

ويفرّق الدين الإسلامي بين الجنون المرضي، والجنون المرادف للغفلة، والنوع الأخير هو من يندمج صاحبه في الشِّرْك، ويُؤْثر على ربه سواه، وهذا المعنى يتصل أيضًا بمعنى معصية الله، فيكون المجنون كل من يخالف أوامر الله عامة، ولذلك فقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى من أبلى شبابه في المعصية فسماه مجنونًا(١٥).

وقد وردت صفة الجنون في القرآن الكريم في أربع عشرة سورة، وترددت في عشرين آية(١٦)، وهي تحمل معنى الجنون كصفة يطلقها المجتمع على الفرد، بقصد التشكيك فيما يدعو إليه من أفكار تخالف ما اعتاد المجتمع عليه، وتارة أخرى تحمل معنى "الغفلة" وتربط بين الجنون وعمى الحواسّ عن الإدراك السويّ لرسالة الإنسان في الوجود، على أن الجنون، وإن تواتر ذكره في القرآن الكريم، فهذا لايعني أنه قد غدا من الموضوعات المركزية التي تُطرق لذاتها، وإنما تناوله في معرض اعتباره تهمة وجَّهَهَا طرف ودحضها طرف، وقد وجهت هذه التهمة إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -، فقد وصف الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالجنون في ثلاث عشرة مناسبة، سواء كانت الصفة منسوبة إليه أو منفية عنه، وقد كذّب القرآن الكريم هذه المزاعم، وفنّد هذه الادعاءات في أكثر من موضع من القرآن الكريم، كما في (سورة الأعراف، الآية:١٨٤، وسورة المؤمنون، الآية: ٧٠، وسورة سبأ، الآيتان: ٨ - ٤٦، وسورة الطور، الآية: ٢٩، وسورة القلم، الآية: ٢، وسورة التكوير، الآية: ٢٢). ونفى هذه التهمة نفيًا تصاعد حتى بلغ درجة القسم في (سورة القلم، الآيتان: ١، ٢): ﴿ ن وَالقَلَم وما يَسْطُرُونَ مَا أنتَ بِنعْمَةِ رَبِّكَ بِمجْنُون ﴾،

ولم ينفرد الرسول بهذه التهمة، فقد ذكر القرآن أن هذه التهمة قد وجهت من قبله إلى نوح (سورة المؤمنون الآية:٢٥)، وسورة القمر الآية: ٩) وإلى موسى (سورة الإسراء الآية:١٠١)، وسورة الشعراء الآية:٢٧، وسورة الذاريات الآية: ٣٩) والنبي في ادّعاءات المخالفين له، هو من "به جنّة" حينًا، وهو "مسحور" حينًا آخر.

ويوجد مستويان في ذكر المجنون ومعاملته في القرآن الكريم، ففي المستوى الأول: كان يورد المجنون في صيغة متسمة بلون من الحياد، ولم يتم الانتقاص منها، أو الحكم عليها كما في (سورة المؤمنون آية: ٢٥) ﴿إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ واقترنت هذه "الجنة" بالسحر، وفي المستوى الثاني: يورد صفة الجنون ويربطها بقرينة تصاحب الصفة الأساسية وهي الجنون، فقد قرن الجنون بالمُعَلَّم كما في (سورة الدخان آية:١٤) أو الشاعر كما في (سورة الصافات الآية:٣٦) أو الساحر كما في (سورة الذاريات الآيتان: ٣٩ - ٥٢) أو الكاهن كما في (سورة الطور الآية: ٢٩)، وقد قرن المجنون مرة واحدة بصفة من اختلق كلامًا ونسبه إلى الله كما ورد في (سورة سبأ الآية: ٨).

وقد اهتمّت السُنَّة النبوية والفقه بموضوع الجنون، "منشئة حكمًا سكت عنه القرآن"(١٧) فقد وردت أحكام السُنَّة، منها المقيد، ومنها المطلق، وهذه الأحكام ثبتت بالسُنَّة، إذ لم يدل عليها نص من القرآن، ولهذا فقد عكف علماء الفقه على تحديد الجنون فرأوه اختلالا في العقل ناشئا عن سبب من الأسباب مانعًا جريان الأفعال والأقوال على النهج الصحيح إلا نادراً(١٨). واستند علماء الفقه إلى ماجاء في كتب الحديث المختلفة، فقد ورد في صحيح البخاري باب الحدود : أن أحد رجال بني أسلم "جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فاعترف بالزنا فأعرض عنه النبي، حتى شهد على نفسه أربع مرات، حينئذ سأله النبي قائلاً: أبك جنون؟، وفي رواية أخرى سأل قومه عنه: "أبه جنون"؟، وقد استخرج علماء الفقه قاعدة فقهية من هذا السؤال المتقدم، هي أن المجنون لايعتدّ باعترافه، وإقرار الموسوس غير جائز(١٩)، ولهذا لايطبق الحد على المجنون، إذا زنا، ولاتقطع يده إذا سرق، ولا يقتص منه إذا قتل، ويستند الفقهاء في هذا إلى الحديث النبوي: «رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المعتوه حتى يبرأ»(٢٠) ونظروا للمجنون على أنه في أمر ليس فيه اختيار أو اكتساب، والجنون يسقط كل العبادات، لأنه ينافي القدرة التي يتمكن بها الشخص من أداء العبادات على النهج الذي سنته الشريعة، وهذا يعني أن المجنون غير مكلف، لأن من شروط التكليف العقل، وهو أداة الفهم والإدراك اللذين يمكن عن طريقهما أن يمتثل لله تعالى، فلاتجب عليه صلاة ولا صوم ولا حج، ولايلزم بالنذر أو الكفارة، ولكن هذا لايسقط عنه أهلية التملك، وهو يرث ويملك ويثاب، وتجب الزكاة في ماله، خلافًا لأبي حنيفة، وتثبت في ماله المغارم ضمانًا لما قد يتلفه من أموال، وأمور أمواله مفوضة إلى من يتولاه، شأنه في ذلك شأن الصبي الذي لم يبلغ بعد.

وقد اختلف علماء الفقه في تصنيف الجنون، فللحنفية والحنابلة تقسيمات وتصنيفات مفصلة، واهتموا بالتفرقة بين الجنون الطارىء والجنون الدائم، فالجنون الطارىء يسقط الزكاة إذا استغرق الحول كله عند بعض علماء الفقه(٢١)، وقد رتبوا الجنون حسب الحالة. فإذا كان دائمًا أسقط وجوب العبادات، وإذا كان غير دائم، فإنه لايسقط العبادات قياسًا على النوم والإغماء، ويجب تبعًا لذلك قضاء العبادات لعدم الحرج.. أما الإمام الشافعي، فإنه يرى الجنون مسقطًا للعبادات كلها، مانعًا لوجوبها، سواءاً كان الجنون أصليًا أو عارضًا، حتى إنه إذا أفاق المجنون في بعض شهر رمضان لم يجب عليه قضاء ما مضى، كالصبي إذا بلغ، والكافر إذا أسلم.

موقف الإسلام من الجنون كمرض والجنون كمرادف للغفلة

ونلاحظ أن صورة المجنون في الفقه الإسلامي، تجعل له كل الحقوق، وتعفيه من أداء الواجبات، وترفع عنه المسؤولية، أو العقاب، وتعرضت لمن يقوم باختيار مظاهر الجنون، من العزلة والتوحد، أو عدم مداواة نفسه، حتى يعفي نفسه من المناصب الهامة التي يجب أن يتقلدها، فقد ذكر العاملي في "الكشكول" أن ابن الأثير مجد الدين أبا السعادات رفض علاج كف يديه ورجليه، وقال لأصحابه: "إنني متى عوفيت طلبت المناصب، ودخلت فيها، وكلفت قبولها، وأما مادمت على هذه الحال فإنني لاأصلح لذلك، فأصرف أوقاتي في تكميل نفسي ومطالعة كتب العلم، ولاأدخل معهم فيما يغضب الله ويرضيهم"(٢٢).



وقد لجأ لهذا أيضًا ابن الهيثم، فقد بدأ يظهر خبالاً في عقله وتغيرًا في تصوره لكي يتهرب من تكليف الحاكم بأمر الله إياه تولِّي بعض الدواوين، فكلف الحاكم من يخدمه ويقوم بمصالحه، وقُيِّد وترك في موضع من منزلة، وظل ابن الهيثم على هذا الحال إلى أن توفي الحاكم، فلما تحقق وفاته لم يبطىء في إظهار العقل والعودة على ما كان عليه(٢٣). ونلاحظ في كثير من القصص التي وردت بهذا الشأن أنها اتخذت الجنون كنوع من الدفاع عن النفس، من بطش السلطان، أو الجماهير. وبعضهم اتخذه للتكسب من المال، عن طريق التسول مع ادعاء الجنون، للهروب من المسؤولية، والبعض اتخذه وسيلة مشروعة للهجوم على الأعداء، دون أن يرد المعتدي بشكل مناسب. ولهذا فإن البعض يشكك في أخبار بهلول، أشهر مجنون في تاريخ العرب، لأنه لم يكن مجنونًا، وإنما كان يستعمل الجنون سترًا على نفسه، وكذلك كان يلجأ بعض الصوفية للجنون، لكي يتيحوا لأنفسهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ظل الأنظمة التي تعوق ذلك. أما كيف تعاملت المجتمعات الإسلامية مع الجنون؟، فقد كان العزل أو السجن هو وسيلة لإبعاد المجنون عن المحيط الاجتماعي(٢٤)، ولكن هناك صورة أخرى تبين أنه لم يكن هناك قانون لذلك، إلا بعد إنشاء المارستانات، فكثير مما ورد في كتب الآثار يبين أنهم كانوا مطلقين في الشوارع ويختارون العزلة عن رغبة في أنفسهم في اعتزال العالم في المقابر، أو الصحراء.

أما الفلاسفة المسلمون أمثال الغزالي، وابن سينا، وابن رشد، والكندي، فقد تناولوا الجنون على نحو ما هو سائد في كتب التراث فيما سبق، ولكنهم فصلوا الحديث عن أمراض النفس، وفرقوا بينها وبين اختلاط العقل كما هو الحال عند الإمام أبي حامد الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين"، واهتم ابن سينا في كتبه: الشفاء، والنجاة، والإشارات، بالرذائل وطرق علاجها بوصفها من أمراض النفس أيضًا، وحاول البعض مثل ابن رشد والكندي تقديم أدوية كيماوية، وكان اعتراض الأول على الثاني هو أن الكندي اعتمد في تركيبه للأدوية على النسبة الهندسية، وليس على أساس المقدار عدديًا(٢٥)، لكنها تأتي بعد أدوية الجنون بالرقى والذبائح اتقَّاء شر الجن، ولقد ألف الكندي رسالة، بحث فيها خصائص الجنون العارض من مس الشياطين، والجنون الناتج عن أسباب أخرى مثل الأسباب الكيماوية أو الاجتماعية أو النفسية.. وقد تطرق الأمر لبعض القضايا التفصيلية مثل العلاقة بين النوم والتعب، وكيف يمكن دفع الأحزان، وهذا يقرب كتابات الفلاسفة العرب من علم النفس والتصوف وعلوم الحكمة.

الهوامش:

١- يغلب على هذه الدراسات عرض آراء فوكو. انظر كتاب د. محمد علي الكردي. نظرية المعرفة والسلطة لدى ميشيل فوكو، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٢م.

٢- قدم هابرماس هذا النقد في كتابه الخطاب الفلسفي للحداثة، انظر تحليلاً له في كتاب رمضان بسطاويسي فلسفة هابرماس: العقل التواصلي والحداثة (قيد الطبع).

٣- يقال جنت النبتة إذا غلظت وكبرت، ونعتت بعض الحيوانات بالجنون، فقيل هذه ناقة مجنونة إذا اشتدت سرعتها، ونسب فعل الجنون إلى بعض الحشرات، فقالوا جن جنون الذباب إذا قوي طنينه وكثر ترنمه في طيرانه. انظر مادة (جنن) في لسان العرب.

٤- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٥٣م، ص ١٣٥.

٥- النيسابوري، عقلاء المجانين، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت، ص٨.

٦- ورد هذا الحديث النبوي في معجم لسان العرب، مادة "خفع" ومادة "صرع".

٧- هذه الأسماء تعكس حالات العقل ودرجاته المتفاوتة، التي لها انعكاس على مستوى الإدراك والتمييز والفهم، وهي تشترك في سمات معينة، مثل أن يغمى المصاب بها عليه، حتى يفقد وعيه، وتحدث الجاحظ في كتابه الحيوان عن هذه الأنواع، وحاول تحديد أسبابها، فبين أن الخفع يحدث نتيجة ضعف أو مرض، والصرع له سمات محدودة معروفة، أما الموتة، فيرجع تسميتها بهذا إلى أنه يحدث عنها سكوت كالموت، يقول الجاحظ "والموتة جنس الصرع إلا أن صاحبه إذا أفاق عاد إلى كمال عقله".

٨- يذكر الجاحظ في كتابه البيان والتبيين أن "ثلاثة يعودون إلى أجن المجانين، وإن كانوا أعقل العقلاء: الغضبان والغيران والسكران". الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق محمد عبدالسلام هارون، القاهرة: طبعة مكتبة الخانجي، ١٩٧٥م، ص ٣١٠.

٩- يعتبر المجنون مريضًا من وجهة نظر العقيدة الإسلامية فقد رأى الرسول قومًا مجتمعين حول إنسان، فسألهم عن الأمر فقالوا له إنهم مجتمعون على مجنون، فرد عليهم: «هذا مصاب» (ورد في لسان العرب: مادة "جنن").

١٠- الجاحظ، الحيوان، تحقيق محمد عبدالسلام هارون. القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٥م، ص ١٨٦.

١١- أنظر لسان العرب، مادة "هام"، ومادة "كلب".

١٢- تحدث الجاحظ في كتابه الحيوان عن مضار لحم الماعز قائلاً: "إياك ولحم الماعز فإنه يورث الهم ويحرك السوداء ويورث النسيان ويفسد الدم، وهو والله يخبل الأولاد"، ص ٤٦١.

١٣- الجاحظ، الحيوان، ص ٤٧٩.

١٤- ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والألاف، بيروت: دار مكتبة الحياة، د.ت، ص ١٦٧.

١٥- ذكره النيسابوري في كتابه عقلاء المجانين، ص ٨.

١٦- ذكرت صفة الجنون في أربع عشرة سورة وترددت في عشرين آية: (سورة الأعراف الآية: ١٨٤، سورة الحجر الآية: ٦، سورة المؤمنون الآيتان: ٢٥، ٧٠، سورة الفرقان الآية: ٨، سورة الشعراء الآية: ٢٧، سورة سبأ الآيتان: ٨، ٤٦، سورة الصافات الآية: ٣٦، سورة الدخان الآية: ١٤، سورة الذاريات الآيتان: ٣٩، ٥٢، سورة الطور الآية: ٢٩، سورة القمر الآية: ٩، سورة القلم الآيات: ٢، ٦، ٥١، سورة التكوير الآية: ٢٢).

١٧- أحمد خصخوصي، الحمق والجنون في التراث العربي من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٩٣م، ص ٦٨.

١٨- المرجع السابق، ص ٦٨.

١٩- المرجع السابق، ص ٦٧.

٢٠- ورد هذا الحديث في سنن أبي داود، في باب الحدود، سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، القاهرة: دار إحياء السنة النبوية، د.ت، ص١٧.

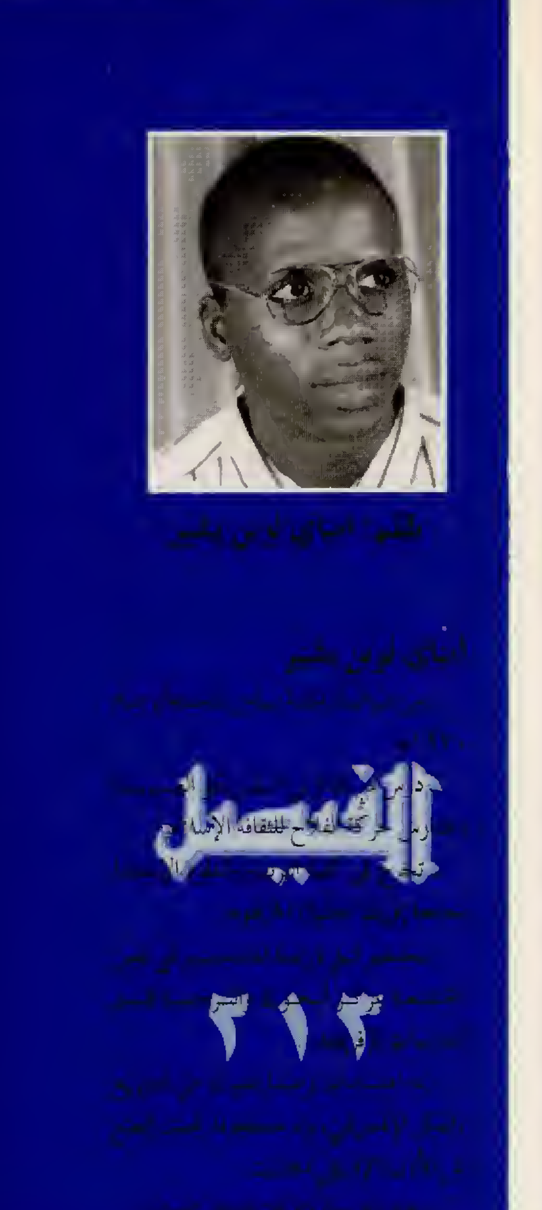
٢١- أحمد خصخوصي، الحمق والجنون في التراث العربي، ص ٧٠.

٢٢- العاملي، الكشكول، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ١٩٦١م، ص ٣٤.

٢٣- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت: دار مكتبة الحياة، د.ت، ص ٤٥٠ - ٤٥١.

٢٤- تذكر بعض كتب التراث مثل ابن عبدربه، في العقد الفريد، أن الحبس قد يكون اختياريًا من قبل الشخص، رغبة في العزلة والانفصال عن الناس، وقد يكون إجباريًا. لكن لايمكن الترجيح بعزل المجنون.

٢٥- أحمد فؤاد الأهواني، الكندي فيلسوف العرب، القاهرة: سلسلة أعلام العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٤م، العدد ٢٦، ص ٢٣٥.



الشيخ أحمد بمبة
الشاعر المجاهد

إن تاريخ إفريقيا الإسلامي لجدير بالبحث والتمحيص، لإخراج مافيه من أمثلة وصور رائعة للجهاد الإسلامي، الذي طالما خاضه أبناء هذه القارة المسلمة ضد المستعمرين.

فلايكاد الباحث يقف في بقعة من بقاع إفريقيا، حتى يجد عند سكانها رواية عن بطولة شيخ من شيوخهم المجاهدين، أو يسمع منهم وقفة من وقفات المناضلين في ساحة المستعمرين.

وكثير من هذا التراث النضالي ذاب ـ لقدمه ـ في طيات الزمان، وتحوّل من طابعه الواقعي إلى طابع خيالي أسطوري، وكل ذلك يرجع إلى أن الإنسان الإفريقي يعتمد في حفظ تاريخه على الرواية، أكثر من الكتابة والتدوين، ولله در الشيخ أحمد همبات المالي القائل: "كلما توفي شيخ من الشيوخ عندنا فكأنما مكتبة أُحرِقت".

نعم قيمة هؤلاء الشيوخ لاتقل عن قيمة المكتبات العلمية التي تحفظ لنا تراث الماضي ووقائعه، حتى نعتبر منها لمواجهة الحاضر والاستعداد للمستقبل.

إذن ليس هناك شيء أوجب على أبناء القارة المسلمة بصفة عامة، وعلى الباحثين منهم بصفة خاصة، من أن يركزوا جهودهم لإخراج هذا الكنز الإسلامي المدفون تحت التقاليد والعادات، والثورات، كي يؤدوه إلى هذه الأجيال المسلمة، التي تحتاج إلى طاقة من تراثهم وذخيرة من تاريخهم الإسلامي، حتى يجتازوا تحديات الواقع المرير، وهذا البحث عن الشيخ أحمد بمبة السنغالي جزء من هذا المشروع الإحيائي المثمر إن شاء الله.

في منتصف القرن التاسع عشر بدأت فرنسا إنجاز خططها الاستعمارية المباشرة لكل السنغال، فعينت الجنرال فيدربه Faiderbe سنة ١٨٥٤م أميرا لشبه جزيرة سانلوي، التي كانت عاصمة للإدارة الاستعمارية الفرنسية في غرب إفريقيا، فبدأ "فيدربه" غزو أواسط السنغال والممالك الإسلامية، التي كانت تقع في شمالها وذلك للتحكم في الزراعة المحلية التي كانت مزدهرة في هذه الممالك.

وكان لهذا الغزو المباشر ردود فعل أحدثت صدى في جميع أرجاء البلاد، فواجهت مقاومة شرسة من الملوك والأمراء الذين رأوا في ذلك تهديدا لملكهم، وزعزعة لعروشهم، فقاموا يجاهدون ضد المد الاستعماري.

وكذلك قام كثير من الشيوخ والزعماء الدينيين بإعلان الجهاد ضد المستعمر الذي يهدد عقيدتهم ودينهم وكرامتهم، فكان في طليعة هؤلاء الشيوخ المجاهد الشهيد عمر الفوتي تال(١) عام ١٨٦٤م، وما إمبوج مالك المتوفى عام ١٨٥٥م، ولتجور جوب الذي قتل عام ١٨٨٦م، وصمبا يحيى المتوفى عام ١٨٩١م، وصمبا لوبي فال الذي قتل في سنة ١٨٨٦م، وعلبر إنجاري الذي قتل سنة ١٩٠٢م، وماكل هؤلاء إلا ضحايا الاستعمار الذي فتك بمناوئيه وحاول تمزيق مقاومتهم



بالقتل والنفي والتشريد.

في هذا الجو الساخن بصيحات الرجال وتكبيرات المجاهدين ولد الشيخ أحمد بمبه عام ١٨٥٣م، في قرية في أواسط السنغال، في أسرة عريقة مشهورة بالعلم، فقد كان جده عالما فقيها، وأبوه كان قاضيا ومستشارا لدى الملك لتجور كوني لاتير جوب ملك إقليم كاجور، ونظرًا لانشغال الوالد بأمور القضاء، أوكل تدريس الولد إلى عمه المفسر الكبير امبكي رمب، حيث حفظ القرآن في سن مبكرة، وبدأ دراسة التفسير وعلوم اللغة؛ لكن المنية عاجلت عمه في ذلك الوقت، فرجع إلى خاله محمد باص، وبدأ في تلقي مبادىء العلوم عنده، ولما توفي الخال رجع إلى والده "ممر انتسل" لينهل من علمه وحكمته، ثم هاجر معه إلى إقليم "سالم" برفقة الملك "لتجور جوب"، ولم يكن في هذا الوقت قد تخطى العقد الثاني من عمره، لكن الأماني الكبيرة بدأت تسيطر على أفكاره، فاشتاق إلى تغيير أوضاع مجتمعه، الذي يسيطر عليه الجهل بحقيقة الدين الإسلامي من جانب، والتعرض لهجمات المستعمرين والمبشرين من جانب آخر.

وفي "سالم" وكله أبوه إلى العالم القاضي "مجقت كل" الذي تألق اسمه في سماء الأدب الإسلامي السنغالي تألق البدر في غسق الدجى، فبدأ القاضي في تصحيح بعض منظومات الشاب مثل منظومته في كتاب "البراهين للسنوسي"، وكذلك بدأ الشاب يتلقى منه دروسا في العروض واللغة، ثم هاجر بعد ذلك إلى قرية "جاج"، حيث تتلمذ على الشيخ "محمد اليدالي" الموريتاني، وهو عالم من علماء الشنقيط.

ولما توفي والده سنة ١٨٨٣م دعاه الشيوخ والأمراء إلى سد الفراغ في بلاط الملك "لتجور"، حيث كان أبوه مستشارا، فقال لهم: "إني لأذهب إلى الأمراء ولا أرغب في دنياهم ولاأطلب الكرامة إلا من الله رب الأرباب(٢) ثم أنشد قصيدة رد فيها عليهم ومنها:

فقلت حسبي ربي واكتفيت به
ولست أرضى بغير العلم والدين
ولست أخشى ولا أرجو سوى ملكي
لأنه ـ جَلّ ـ يغنيني وينجيني
أنّى أفوّض أحوالي لمن عجزوا
عن حال أنفسهم عَجْزَ المساكين
أوكيف يعشني حبُّ الحُطَام على
جوار من دورُهم روض الشياطين

وكان لهذه القصيدة دويٌّ بين العلماء وأتباع الملوك الذين كانوا يحاولون ـ ليل نهار ـ نيل شرف الدخول في البلاط الملكي فكيف ينكر هذا الشاب هذا الخير الوافد إليه.

ثم عكف الشاب على الدراسة والتدريس والدعوة إلى الإسلام، بغض النظر عن إغراءات الملوك وتخويفات المستعمرين، فبدأ صيته يمتد في كل أرجاء البلاد، ثم سمّى نفسه خادم الرسول صلى الله عليه وسلم وشاعره، وأنه وارث حسان بن ثابت في ذلك، وأن طريقته غير طريقة التيجانية أو القادرية الجيلانية، بل هي طريقة قائمة على خدمة الإسلام، وحمل مسؤولية الدعوة الإسلامية ونشرها، وهو القائل مناجيًا ربه:

ملكتني وقُدتَ لي إحسانا
ورثت في مدح النبي حسّانا

وفعلا كان الشيخ وارثا لحسان بن ثابت شاعر الرسول عليه السلام، وبدأ مداده ينسكب على كل ورقة ليخط مدائحه للنبي صلى الله عليه وسلم، وشهادته على تأدية رسالته التي أنقذت البشرية من التيه والضلال، ثم الدعوة إلى طريقته القائمة على العمل لأجل الإسلام، وفي هذا الوقت بالذات سنة ١٨٩٣م(٣) كان المد الفرنسي الاستعماري بلغ أوجه واشتدت سطوته على أرجاء البلاد، فبدأ الشيخ يفكر في كيفية مواجهة هذا المد التبشيري الاستعماري وكان أمامه خياران:

الأول: أن يظهر معارضته لهم ويشهر سيفه في وجوههم كما فعل كثيرون من المصلحين الدينيين قبله، ممن لقوا حتفهم لضعف إمكاناتهم وأسلحتهم أمام الجيش الاستعماري، والذين انحلت جماعاتهم من بعدهم وتركوا فراغا كبيرا في ميدان نشر الإسلام استغله المبشرون المستعمرون لأهدافهم.

الثاني: أن يركز الشيخ على الجانب الحواري مع المستعمرين حتى يجد فرصة

كلما توفي شيخ من الشيوخ عندنا فكأنما مكتبة أُحرِقت

لنشر الإسلام في كثير من المناطق التي ظلت وثنية منغلقة على نفسها وحتى يجد مرتكزا شعبيا لدعوته ويجد الإسلام طريقًا إلى هؤلاء الناس.

لقد اختار الشيخ الأمر الثاني فبدأ يحُثُّ أتباعه على العلم والعمل ونشر رسالة الإسلام واجتناب المواجهة العسكرية مع قوات المستعمر المتربص بهم.

وقد طلب منه أحد الملوك الذين أسلموا بين يديه الإذن بمحاربة المستعمر، فقد حكى المؤرخ الفرنسي مونتاي مانصه: "قال علبر إنجاري أحد ملوك جلف للشيخ: لأريد أن أستسلم للمستعمرين سأقاتل الأجانب الذين لايقيمون الصلاة، وسأنزل منك منزلة سيدنا علي كرم الله وجهه من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم" فقال الشيخ أحمد بمبه "إني لمتيقن بأن الله قدر لهؤلاء الأجانب أن يستعمروا بلادنا وإن قاتلتهم حرضت أناسا على أن يُقتلوا ـ وهم لم يعتنقوا الإسلام بعد ـ وإن عاشوا اعتنقوا الإسلام"(٤). فالشيخ في هذه النصيحة يقدم أولوية نشر الإسلام على المواجهة العسكرية التي تعطي للمستعمر ـ بتفوقه العسكري ـ فرصة إعاقة المد الإسلامي في الأراضي السنغالية.

ومن أتباع الشيخ المتأخرين من أساء فهم كلام الشيخ فادّعى أن الشيخ يعارض مبدأ الجهاد بالسيف لأنه يحقق أغراضا دنيوية، أو لأنه يميل إلى الهيمنة، وبث النفوذ على الناس دون أيّ غرض(٥)، وهذا لاشك بهتان على الشيخ وافتراء عليه وعلى سيرته، فرية يحوكها ضعاف العقول وتجار العلم والدين لتشويه سمعة الشيخ دون أدنى دليل. وقد تمكن الشيخ خلال مدة وجيزة من أن يبني قاعدة قوية لدعوته مما دفعه إلى بناء قرية خاصة به سماها طوبى عام ١٨٨٧م، حيث عسكر حوله أنصاره الذين انجذبوا لعلمه وورعه وأخلاقه، وهذا ماأغضب الأمراء والشيوخ الذين أخذ نفوذهم يتدهور وسط أتباعهم الذين بدأوا يتناقصون في كل يوم، وأغضب كذلك حلفاء المستعمرين فبدأوا الوشاية والسعي به، وقد وجدوا الفرصة سانحة في قصائده التي أصبحت مؤنس الأنصار وزاد الغرباء والركبان، والتي كان يشيد فيها بتلك القلة من الأمراء الذين وقفوا أمام أطماع المستعمرين، مثل قوله مادحا لهم ولموقفهم من نشر الإسلام:

كانت الوفود تدخل في الإسلام على يديه يوميًا

المسلمون على خير بلا كمد
مادام فيهم ملوك زحزحوا الكمدا
الله أسأل أن يرعى لنا رُؤسا
قد أخرجوا من بلاد الله مافسدا
كل من الناس لايخفى عليه على
من زحزحوا جورهم فينا ومن رصدا

وهكذا بدأت عيون المستعمر تتربص بالشيخ وجماهيره، وفي سنة ١٨٩٤م أظهرت إدارة الاستعمار قلقها وخشيتها من الشيخ، فرمته بإثارة الفتن واتخاذ الدين وسيلة لتحقيق مطامع سياسية لتأسيس دولة خارجة عن إدارة المستعمر، فانعقد المجلس الخاص الاستعماري في ٥ أيلول/سبتمبر سنة ١٨٩٥م، وقرر إبعاد الشيخ عن السنغال إلى "غابون" (جمهورية غابون الحالية)، بتهمة ارتكاب جريمة التحريض ضد الإدارة الاستعمارية(٦).

وهكذا تم نقل الشيخ من طوبى وسط جماهيره الذين عزموا على مقاومة القرار ولو أدى ذلك إلى موتهم جميعًا، غير أن الشيخ هدأهم وودعهم وداع مسافر يرجع عما قريب، لا وداع مبعد لايعرف متى يؤوب، فكتب رسالته إلى جميع أنصاره قال فيها: "إنه منّي إلى جميع الأنصار ويدخل الجميع في السلامة والعافية في الدنيا والآخرة. أما بعد فإني أمرت كل من ناصرني لوجه الله تعالى الكريم بتعلم العقائد والتوحيد وأحكام الطهارة والصلاة والصيام وغيرها من كل مايجب على كل مكلف"(٧).

وقد كان هذا التغريب حادثا مهما ومؤثرا في حياة الشيخ، فقد أكمل خلاله مواهبه التأليفية والإنشادية فصار شاعرًا إسلاميا وبطلا وطنيا له مكانته في تاريخ الإسلام، فقد كتب قصائد كثيرة أخلاقية وتاريخية في قصة إبعاده ومدائح للرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن أشهر هذه القصائد تلك التي أنشدها وهو في طريقه إلى المنفى، حيث بين اختلاف منهجه عن منهج النصارى الذين أخرجوه من دياره، وأيّد فيها دعوته بأنه خادم الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه متوكل على الله وحده ليس غير، فقال:

أسير مع الأبرار حين أسير
وظنّ العدا أني هناك اسير
ونصري وتأييدي وحفظيَ لدى العدا
من الواسع الوهاب فهو نصير

إلى أن يقول:

قصوري خَلَتْ والأهل مني تفرقت
لمدحي الذي عنه المديحُ قصيرُ
غرور الورى عزّ النصارى بكيده
وظنوا ظنونا والظنون غرور
يظنونني وقت اغترابي لديهم
أسيرا لهم والكل منه يخور



به سِرْتُ من ربي لربي موحدًا

وحولي النصارى والبحور تمور(٨)

وقد تضاعفت في هذه الرحلة مؤلفاته ومنظوماته حتى بلغت مائة قصيدة(٩).

قضى الشيخ سبع سنوات في منفاه يعبد الله بلسانه وقلبه، وقد لاقى خلالها أبشع محاولات حيكت ضده للتخلص منه والاعتداء على حياته، إلا أن هذه المحاولات جميعها قد فشلت، لذا أرجعوه إلى بلده في تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٠٢م، ورست السفينة التي أقلّته من منفاه في ميناء داكار، وهتفت الجماهير الغفيرة مستقبلة له بتلك الحفاوة البالغة، وكانت الوفود تدخل في الإسلام على يديه يوميًا، بل كثير من أعداء المستعمر أصبحوا من أتباعه ومحبيه ينتظرون منه الإذن بالجهاد ضد الفرنسيين المستعمرين، ولذلك اتهمه الحاكم الفرنسي بعد ستة أشهر من رجوعه بأنه أخلّ بالنظام العام، وأنه يجمع الأسلحة لمحاربتهم، وفي ١٣ يونيو/حزيران سنة ١٩٠٣م أبعدته الإدارة الاستعمارية مرة ثانية إلى موريتانيا فانتهز فرصة إقامته فيها واتصل بالشيوخ والعلماء، وناقش في هذه المدة كثيرا من القضايا الفكرية مثل قضية التصوف والتفكير(١٠).

وبعد ثلاث سنوات من إقامته في موريتانيا أُعيد إلى وطنه في تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٠٦م بعد توسط الشيخ إبراهيم فال، وهكذا ردوه إلى وطنه مرغمين مرة ثانية.

وفي اليوم السادس عشر من كانون الثاني/يناير سنة ١٩١٢م سمحت له إدارة الاستعمار أن يذهب إلى إقليم جربل، حيث بنى جامعا كبيرا رمزا لكفاحه، ومكانا يؤدي فيه الشعائر مع ذلك العدد الكبير من الذين اعتنقوا الإسلام على يديه، ولم يستسلم الشيخ للمستعمرين بل تابع إثراء المكتبة الإسلامية بعشرات من مؤلفاته التي مازال أكثرها مخطوطا لم ينشر بعد، ثم حمل على من أبعدوه واضطهدوه، وهاجم النصارى الذين يُثلثون الله، وجهر بأنه مسلم مخلص عزم على الدفاع عن الإسلام، ثم اعترف بما اتهم به من أسلحة ومدافع، وأن هذه الأسلحة هي العلم والتقوى والقرآن الكريم والسنة النبوية ليس غير، وذلك في أخريات قصائده كقوله:

ياجملةً قد ثلّثوا بضلالهم

من لم يكن ولدٌ له أو والد

أخرجتموني ناطقين بأنني

عبد الإله وإنني لمجاهد

وظننتم أن المدافع عندنا

والكل منكم ذو قِليً لي حاسدُ

ومقالكم حقٌ فإني عبده

وخديم عبدالله وهو الحامد

ومقالكم أني أجاهد بالعلوم وبالتقى

عبدا خديما والمهيمن شاهد

ومدافعي اللاتي بها أنفي العدا

وبها يفارقني عنيد قاصد

ذِكرٌ حكيم أُحكِمَتْ آياته

ممّن يزحزح مايريد وطاردُ

وهكذا حار الفرنسيون في أمر الشيخ، فتركوه في أرضه ينشر الإسلام، ويحدّ من مَدِّهم التبشيري، فربع سكان السنغال اليوم من أتباع الشيخ، وكذلك غامبيا وغرب مالي وموريتانيا، وقد قال عنه الفرنسي - مدير إقليم جربل - حيث مدينة الشيخ: "إن الشيخ راسخ القدم في العلوم العربية، وهو محسن جدا، وهو أتقى الناس(١١).

توفي الشيخ في ١٩ يوليو/تموز عام ١٩٢٧م في مدينة جربل، ونقل جثمانه الطاهر إلى مدينته (طوبى) رضي الله عنه، وأرضاه حيث وقف شاعر موريتانيا الكبير والزعيم الديني في غرب إفريقيا الشيخ "سعد أبيه" لينشد قصيدته الرائعة في رثاء الشيخ التي استهلها بقوله:

حلف الزمانُ ليأتينَّ بمثله

حنثت يمينك يازمانُ فَكَفِّرِ

فالشيخ أحمد بمبه في حياته وجهاده سيبقى رمزا شامخا للشباب في العالم الإسلامي بصفة عامة والإفريقي بصفة خاصة.

الهوامش:

(١) راجع صور من كفاح المسلمين في إفريقيا الغربية، الحاج عمر الفوتي، حياته وجهاده، أحمد أبو بكر خالد يا.

(٢) راجع الأدب السنغالي العربي للدكتور عامر صعب مدير المعهد الأساسي لإفريقيا السوداء، ط: الجزائر، ص ٢٨٨.

(٣) راجع بالتفصيل السنغال تحت الحكم الفرنسي ١٨٨٥ - ١٩٦٠م، رسالة ماجستير في التاريخ الإفريقي الحديث للطالب محمود فريد شديد زمزم، ص ٧٣ فما فوق، جامعة القاهرة.

(٤) نقله د. عامر صعب في كتابه الأدب السنغالي العربي، ص ٢٢٨.

(٥) راجع كتاب حول شعائر الشكر بمناسبة عيد التعظيم في طوبى، ص ٣٢، أعدته اللجنة الثقافية لدائرة الطلبة المريدين بجامعة داكار في تشرين الأول. أكتوبر ١٩٨٦م.

(٦) راجع السنغال والثقافة الإسلامية، جورتي سيس، دار شمس المعرفة للطبع والنشر والتوزيع، ١٩٨٩م.

(٧) الأدب السنغالي العربي، د. عامر صعب، ص ٢٧٥.

(٨) يقصد بالبحور هنا الأمواج حيثُ إنه نقل بواسطة سفينة.

(٩) ذكر د. عامر صعب مدير المعهد الأساسي لإفريقيا السوداء في كتابه الأدب السنغالي العربي وجود مائة قصيدة عندهم في المعهد، ص ٢٤٤.

(١٠) راجع كتابه مسالك الجنان.

(١١) راجع الأدب السنغالي العربي، د. عامر صعب، ص ٢٢٠.

المرأة في فلسفة الكواكبي

للكواكبي آراء وأفكار، ضمنها كتابه «أم القرى» الذي نشره منذ مائة عام تقريبًا، على هيئة مؤتمر تخيّله، وجمع فيه مسلمين من كل مكان، عقد في مكة المكرمة، وأحدث صدى عند صدوره، لأنه يرنو إلى إيقاظ المسلمين من رقدتهم، وتنبيههم من غفلتهم، وأن أساس ذلك الاهتمام بالعلم الشرعي، وفي حديثه عن المرأة وتعليمها، مستشهدًا بما كان عليه أسلافنا من حب في تعليم المرأة، حيث كان يوجد في نسائنا كأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكمئات من الصحابيات والتابعيات راويات الحديث والمتفقهات فضلاً عن ألوف من العالمات والشاعرات اللاتي في وجودهن في العهد الأول، حجة تدفع أنوف الذين يزعمون أن جهل النساء، حفظ لعفتهنّ، فضلاً عن أنه لايقوم لهم برهان على مايتوهمون، حتى يصحّ الحكم بأن العلم يدعو للفجور، وأن الجهل يدعو للعفة، كما يقول الحريصيون على عدم تعليم المرأة.

يقول الكواكبي: نعم، ربما كانت العالمة أقدر على الفجور من الجاهلة، لكن الجاهلة أجسر عليه من العالمة، ثم إن ضرر جهل النساء وسوء تأثيره في أخلاق البنين والبنات أمر واضح غني عن البيان، إنما سوء تأثيره على أخلاق الأزواج فيه بعض خفاء يستلزم البحث.. وهذا من نظرته الفلسفية في هذا الأمر، حيث يردف قائلاً: إن الرجال ميّالون بالطبع إلى زوجاتهم، والمرأة أقدر مطلقًا من الرجل في ميدان التجاذب الأخلاقي، ولايتوهم عكس ذلك، إلا من استحكم فيه تغرير زوجته له، بأنها ضعيفة مسكينة مسخرة لإرادته، حال كون حقيقة الأمر أنها قابضة على زمامه تسوقه كيف شاءت، وبتعبير آخر يغرّه أنه أمامها وهي تتبعه، فيظن أنه قائد لها، والحقيقة التي يراها كلُّ الناس من حولهما دونه، أنها إنما تمشي وراءه بصفة سائق لاتابع.

وفي مكانة المرأة في الإسلام يقول: وماقدّر قدر دهاء النساء مثل الشريعة الإسلامية، حيث أمرت بالحجب والحجر الشرعيين، حصرًا لسلطتهن، وتفرغهن لتدبير المنزل، فأمرت باحتجابهن احتجابًا محدودا، بعدم إبداء الزينة للرجال الأجانب، وعدم الاجتماع بهن في خلوة، أو لغير لزوم، وأمرت باستقرارهن في البيوت إلا لحاجة، ولاشك أنه ماوراء هذه الحدود إلا فتح باب الفجور، وماهذا التحديد إلا مرحمة بالرجال، وتوزيعًا لوظائف الحياة.

وقد أمرت الشريعة برعاية الكفاءة في الزوج، وذلك أيضًا مرحمة بالرجال، وأكثر الأئمة المجتهدين أغفلوا لزوم تحري الكفاءة في جانب المرأة للرجل، وأوجبوا أن يكون هو فقط كفؤًا لها كي لاتهلكه بفخارها وتحكمها، على أن لرعاية الكفاءة في المرأة للرجل أيضًا موجبات عائلية مهمة منها: التخيّر للإسلام والتخيّر لتربية النسل، وللتساهل في ذلك دخل عظيم في انحلال الأخلاق في المدن، لأن التزويج بمجهولات الأصول أو الأخلاق، أو بسافلات الطباع والعادات، أو بالغريبات جنسًا، أو الرقيقات في الدين مفاسد شتى، لأن الرجل ينجّر طوعًا أو كرهًا لأخلاق زوجته، فإن كانت سافلة يتسفّل لامحالة، وإن كانت غريبة بغّضته في أهله وقومه، وجرّته إلى موالاة قومها، والتخلق بأخلاقهم، ولاشك أن هذه المفسدة تستحكم في الأولاد أكثر من الأزواج.

وربما كان أكبر مسبب لانحلال أخلاق بعض الناس من المسلمين، أتاهم من جهة الأمهات والزوجات السافلات، إذ كيف يرجى من امرأة نشأت سافلة رقيقة ذليلة، أن تترك بعلها، وهو في الغالب أطوع لها من خلخالها، أن يجيب داعي الشهامة أو المروءة، أو أن تغرس في رؤوس صبيتها ميولاً سامية أو تحمسهم على أعمال خطرة.

كلا لاتفعل ذلك أبداً، إنما تفعل ذلك الشريفات اللاتي يجدن في أنفسهن عزة وشهامة. وهذا هو سر أن أعاظم الرجال لايوجدون غالباً إلا من أبناء وبعول نسوة شريفات، أو بيوت قروية.

وهذا هو سبب حرص أمراء العرب، وبعض الإفرنج على شرف الزوجات، ثم يقارن ذلك بحالة بعض الشعوب في الأرض دون الهدف الديني فيقول: والصينيون وهم أقدم البشر مدنية، التزموا تصغير أرجل البنات بالضغط عليها، لأجل أن يعسر عليهن المشي والسعي في إفساد الحياة الشريفة، ذلك الشرف الذي هو من أهم مقاصد الشرقيين، بخلاف الغربيين، الذين لايهمهم غير التوسع في الماديات والملذات.

[كتاب أم القرى ١٧٩ ـ ١٨١].

د. محمد بن سعد الشويعر

د. محمد ميشال الغريب:
من العلمانية إلى الإسلام

في حي «الخندق العميق» في بيروت، كانت إطلالته الأولى على الحياة، بين جيران معظمهم مسلمون، وطالما استهواه في طفولته منظر مئذنة جامع "رفيعة"، وهي تطل باسقة في شموخ على منازل الحي، وحاراته العتيقة.

كان الطفل ميشال الغريب يهرول نحو النافذة كلما سمع صوت مؤذن المسجد يرتفع بالأذان مذكرًا المؤمنين بدخول وقت الصلاة، فيصغي بسكينة وشغف، يفوق سنوات عمره، ويود وهو يرى المسلمين يمشون زرافات زرافات متوجهين إلى الصلاة لو أمكن له أن يفعل مثلهم، ويخلع نعليه، ليدخل المسجد، ويجلس على سجادته العتيقة.

رهبة وخشوع

تلك كانت أحلام الطفل، التي لم يفكر أحد أنها سوف تتحول يومًا إلى واقع يعيشه ويحياه حين يكبر.

كبر ميشال، صار صبيًا، وبدأ يفهم مايقوله المؤذن ويستوعبه، ويشعر بالرهبة والخشوع كلما تناهى إلى سمعه صوت المقرىء وهو يرتل القرآن الكريم، بمعانيه الرائعة، وأسلوبه الفريد المعجز.

ذلك كان شعوره رغم انتمائه إلى أسرة نصرانية تعتنق المذهب الماروني، الذي لم يحس يومًا بالانتماء إليه، أو الرغبة فيه.

القرآن الكريم.. معلمًا

عاش ميشال الغريب طفولة كلها شظف وحرمان، إذ كانت أسرته فقيرة، واضطر أن يعمل إلى جانب الدراسة لمساعدة والده في تغطية نفقات الأسرة.

وعشق اللغة العربية، لكنه لم يكن يملك من المال مايعينه على شراء الكتب التي تساعده على تقوية لغته، إلا أنه بإلهام فطري، تغلب على هذه المشكلة، إذ لجأ إلى قراءة القرآن الكريم، ليستفيد من بلاغة كلام الله وإعجازه اللفظي في تملك ناصية لغته، والارتقاء بمفرداته.

وبكثرة تلاوته للقرآن الكريم، بدأت آيات الله البينات تتغلغل في حنايا صدره، وبدأ يشعر بالغذاء الإيماني، والخشوع أمام كلمات الخالق المتعالي، وراح يدون في دفتر صغير بعض الآيات.

واكتشف من خلال قراءته للقرآن الكريم زيف ماأخبره به القسس من كون المسلمين لايوقرون عيسى عليه السلام، ولاأمه العذراء مريم، إذ وجد كلام الله يصف عيسى عليه السلام بأصدق الأوصاف، وأكثرها توقيرًا، وكذا بالنسبة لوالدته العذراء مريم.

مع العلمانيين

رغم ذلك لم يفكر ميشال في اعتناق الإسلام، إلا أنه - في الوقت نفسه - لم ترقه أفكار النصرانية ومعتقداتها، التي لم يستطع عقله أن يهضمها بما حوت من تناقضات، وطلاسم وألغاز لامعنى لها.

لذا عُرف بين زملائه في الجامعة بأنه لاديني (علماني)، وأسهم في تنامي اتجاه العلمانية لديه أن معظم مثقفي العصر من نصارى العرب كانوا من دعاة العلمانية، رغبةً في احتواء التيار الأصولي السلفي الإسلامي، الذي كان قد بدأ يتنامى في أقطار عربية عدة، واستمر لديه هذا المعتقد حتى بعد حصوله على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية، واشتغاله بالتدريس في الجامعة اللبنانية.

تناول موضوعي للإسلام

برغم علمانية ميشال الغريب، وحرصه الشديد على التأكيد عليها من خلال كتاباته وأبرزها كتاب "الطائفية الإقطاعية في لبنان"، إلا أنه كان حين يتناول الإسلام - كعقيدة وشريعة - يحرص أن يكون تناوله موضوعيًا، كما كان معظم الأصدقاء الذين ارتبط معهم بعلاقات وثيقة من المسلمين، بل إن شقيقته تريزا تزوجت من مسلم سني.

ولعل هذه العلاقات الوثيقة بالمسلمين كانت سببًا في إسهامه مع بعض المثقفين النصارى في إنشاء "منظمة المسيحيين الديمقراطية"، من أجل الرد على الدعاوى العنصرية الحاقدة التي كانت تُروج.

دوافع إسلامه

دوافع عدة ومبررات كثيرة قادت ميشال الغريب - في نهاية الأمر - إلى إعلان إسلامه، وقد تدرج الأمر بحيث يصعب علينا أن نحدد متى أسلم بالضبط، فنداء الفطرة نما في داخله مع الزمن، حتى إنه ليمكننا القول بأنه كان مسلمًا بالفعل، قبل أن يشهر إسلامه بالقول.

العامل الأول في إعلان ميشال الغريب

إسلامه يعود إلى تشككه في صحة تعاليم النصرانية، وزعمها وجود ثلاثة أقانيم لله ـ تعالى الله عما يقولون ـ، وأيضًا الزعم بألوهية المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وهي فكرة تناقض نفسها، بخاصة حين نضع في الاعتبار مايزعمون عن صلبه ـ عليه السلام ـ فداء لخطيئة البشرية!!

في المقابل وجد د. ميشال الغريب في القرآن الكريم، مايجيب عن تساؤلاته الحيرى حول طبيعة الله عز وجل، وحقيقة عيسى عليه السلام، كما وجد الإسلام دينًا وسطًا ينمي الجانب الروحي في الإنسان، ولايهمل الجانب الدنيوي، ويضع شريعة متكاملة صالحة لكل العصور، تنظم علاقة العبد بربه، وعلاقة العبد بالعبد، وتجعل التقوى أساس المفاضلة بين الناس.

القرار

كل العوامل السابقة وعوامل أخرى كانت سببًا في اتجاهه إلى دار الفتوى في بيروت وإشهار إسلامه، والتسمي باسم "محمد ميشال الغريب"، ولاقى قراره ردود فعل متباينة ممن حوله، ففيما رحبت شقيقته تريزا المتزوجة من مسلم بالقرار، تحفظت زوجته، ولكنها لم تعارض، بينما انقسم الأصدقاء مابين مرحب، ومعترض، وأقدم بعض المعترضين على الانتقام منه والتشهير به، محاولين تصوير قراره بأن وراءه أهدافًا مادية ودنيوية.

إلا أن د. محمد ميشال الغريب، وقد هداه الله لنعمة الإيمان، لم يُلقِ بالاً لهذه الدسائس وعمليات التشهير، ومضى في طريقه، لايخاف في الحق لومة لائم، متحملاً من الاتهامات الكاذبة أصنافًا وألوانًا، محتسبًا أجره عند الله تعالى.

في رحاب الأراضي المقدسة

لقد مَنّ الله على د. محمد ميشال الغريب بشرف أداء فريضة الحج، وتحول من داعية للعلمانية يدعو إلى فصل الدين عن الدولة إلى داعية للإسلام، ولايترك فرصة أو مناسبة إلا ويعبر فيها عن اعتزازه بهذا الدين القيم، منوهًا بمحاسنه، مشيرًا إلى المزايا التي يحققها لمعتنقيه، وأولها العتق من النار.

لقد أسهم د. محمد ميشال الغريب بكتاباته ـ حتى قبل إسلامه ـ في خدمة العديد من القضايا التي تهم المسلمين، ففي كتاب "حريق المسجد الأقصى" الذي ألفه بناء على طلب من مركز الأبحاث الفلسطيني، أوضح أن الحريق يؤكد على الطبيعة العدوانية التي تأسست عليها الدولة اليهودية، وجاء كتابه "التمييز العنصري في إسرائيل" ليفضح ـ بمنتهى الوضوح ـ حقيقة الوجه البشع لهذا الكيان الذي قام ويعيش على أشلاء الضحايا.

نصائح للدعاة

ويرى د. محمد ميشال الغريب أن الدعاة مقصرون في وسائلهم للدعوة إلى الله، فما تزال هذه الوسائل تقليدية لم تتغير منذ زمن طويل، برغم تغير ظروف العالم، وعلى الدعاة إن أرادوا تحقيق نتيجة فعالة أن يواكبوا التطور الفكري والعلمي للبشرية.

فمن غير المقبول أن تقتصر الدعوة على الخطب والكتب، وأشرطة الكاسيت، وإنما يجب أن يسهم المسلمون بسلوكهم في تقديم صورة ناطقة لعقيدتهم ، بما لها من صفات عظيمة، ومميزات عديدة.

ثم إن عالم اليوم قد أحالته وسائل الاتصالات الحديثة إلى قرية كبيرة، يرتبط بعضها ببعض بارتباط وثيق، واستغل اليهود ـ بذكاء ـ ذلك حين سيطروا على معظم وسائل الأنباء العالمية، وسخروها لخدمة الصهيونية، في وقت يملك فيه المسلمون مقدرات مادية كبيرة، وإمكانات بشرية عظيمة، لكنهم لايستغلون جزءاً يسيرًا منها في خدمة الدعوة.



لاأصل للعلمانية في الإسلام

كما يرى د. محمد ميشال الغريب أن هناك فرقًا ينبغي التنبيه إليه حين نناقش مَنْ يدعون إلى العلمانية، ذلك أن العلمانية لاأصل لها في الإسلام، الذي هو ـ كعقيدة ـ دين ودنيا، أو شريعة ونظام، فلا مجال للعلمانية في ظله، بينما قامت العلمانية في بلاد النصارى نتيجة للنزاع بين القسس من ناحية، ورجال السياسة من ناحية أخرى، على مطالب دنيوية مثل جباية الضرائب، وتنظيم المحاكمة الكنسية، فكانت العلمانية وليدة هذا النزاع.

ويلح د. محمد ميشال الغريب على أهمية تحقيق ترجمات معاني القران الكريم باللغات البشرية المختلفة لإيصال الدين الحنيف إلى الشعوب الناطقة بتلك اللغات، حتى لايترك المجال أمام الأحبار والرهبان لتقديم صورة مشوهة لجوهر العقيدة الإسلامية، وقيمها النبيلة.

فضيلة الشيخ د. صالح بن سعد اللحيدان

قيمة نقد الرواة

مَنْ أولُ من فتش عن الرجال، وماقيمة نقد الرواة؟

جعفر آدم سيد، الخرطوم، السودان

ظهر نقد الرجال أول ماظهر في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - تمحيصًا لهم، وبيانًا لحقيقة أمرهم، إذ الدين مبناه على الوحي والعقل السليم الخالي من عوارض المرض، سواء كانت نفسية أو عقلية أو فكرية أو عقدية. لذا جاء في الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بئس أخو العشيرة هو" قاله عن رجل طرق عليه الباب فأدخله ضيفًا. وقد جاء في الصحيح أيضًا: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب فرُبّ مبلّغ أوعى من سامع» واستدل علماء الجرح والتعديل - أو نقد الرجال الواردين في السند - بهذين النصين على ضرورة التثبت من النقلة الذين يروون الأخبار كما هو مدون في فتح الباري ١٥٧/١ و٥٧٣/٣ و٢٩٣/٦، و٣٢٤/٨، والنووي على مسلم ٢٤٦/٤، وكما ورد في "مقدمة المجروحين لابن حبان" ١٠/١.

ولهذا جاء في (الكامل) لابن عدي عن البراء بن عازب أنه قال: «ماكان بعضنا يكذب على بعض»، وقال أنس بن مالك: «ماكنا نعرف الكذب»، ولكن حينما تفشى الكذب، وانتشرت البدعة، كان ابن عباس يقول: "سَمُّوا لنا رجالكم"، ويقول ابن المبارك: "الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ماشاء".

وقد حفلت مقدمة صحيح مسلم - يرحمه الله - بطرحٍ علمي دقيق عن دراسة السند المؤدي إلى المتن، وكذا نقد الرجال، وكل ذلك من أجل حفظ الله تعالى للسنة وحمايتها من العبث والكذب والمبالغة والزيف.

وكم يطيب لي أن يتجه: المؤرخون، والأدباء، والباحثون في علوم الشريعة، خاصة: القضاء، والفتيا، إلى نظر كل سند يدونون متنه في الأخبار، والسِّيَر والعبادات، والمعاملات.

الشريعة كل لايتجزأ

من كان لايصلي لكنه إذا جاء رمضان صام وصلى، فهل عمله هذا موافق للنص؟

م.م.ل.أ. وسلطان ب.أ - الدمام

الشريعة الإسلامية لاتتجزأ، كقضية الحاكمية، فإن الإسلام جاء شاملاً للدين والدنيا، فالصيام والصلاة وبقية الأركان الثلاثة متلازمة لاينفك بعضها عن بعض بصورة من الصور، كما قال تعالى: ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾ أي: ماهذا؟ لايصلح أبدًا ولايكون، بل لابد من الإيمان بكل ماجاء به: القرآن والسنة، فمن يصوم ويصلي في رمضان فقط، ثم يترك الصلاة، أو يصلي أحيانًا، ويترك أحيانًا أخرى، فلاصحة لصومه، ولاصحة لصلاته، وحظه منهما المشقة فقط، فالإسلام ارتباط دائم، وشعور بالمسؤولية.

الحقنة في رمضان وترك السحور

ماترون في الحقنة في نهار رمضان؟ وكذا النوم دون سحور؟

محمد جليل سلامة الباتلي، أرامكو، الظهران

الحقنة إذا كانت مُغذية فإنها تفطر الصائم، لأنها طعام جاء عن طريق تركيبات كيمائية طبية، والصائم منهيٌّ عن هذا، والقصد من الصوم العبادة، والامتناع عن الطعام ومافي معناه، وعن الغيبة والنميمة.

وإن كانت الحقنة مُسكِّنَةً للألم فقط فهي جائزةٌ - إن شاء الله تعالى - والصوم صحيح.

أما السحور فهو سنة، وقد ورد فيما صح «تسحروا فإن في السحور بركة»، وهو بجانب كونه سنةً عظيمةً، فإنه يقوِّي على الصيام، خاصة في الأيام التي يكون نهارها طويلاً، ومن تركه لاشيء عليه، لكن إذا ترك السحور للنوم - كما هو السؤال - فمعناه تَرْكُهُ لصلاة الفجر مع الجماعة، وهذا ذنبٌ كبير.

رؤية الهلال بالعين المجردة

اختلف العلماء حول تحديد رؤية الهلال لدخول الشهور، فهل استخدام المنظار المقرب للرؤية يعتبر دليلاً على دخول الشهر عند رؤيته به؟

مصطفى بن سليمان زبادي، أنديانا، الولايات المتحدة

الوسائل العلمية المستخدمة في مثله عظيمة الفائدة، فهي تساعد على تحديد مكان الهلال، واتجاهه وبعده وقربه. لكنها من الناحية الشرعية لايتعلق بها حكم شرعي، لأن الخطاب الآمر نصٌّ على رؤية العين المجردة - العين البصرية - فجاء الحديث الصحيح «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غُم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يومًا».

فـ (رؤيته) أي بالعين المجردة دون وسيلة مقربة، فإن لم يُر الهلال بسبب كثافة السحب، أو انتشار الغيوم الداكنة فهنا يحسب لشهر شعبان مدة تمام الشهر، وهو ثلاثون يومًا. ولاأذكر خلافًا في هذا - حسب علمي - فإن حصل فهو خلاف لفظي لوضوح النص والله أعلم

هجرت الشعر من أجل القصة



فؤاد قنديل

بعد أن مرَّ مايقرب من ثلاثين عامًا منذ نشرت أول مقالة، ومنذ نشرت أول قصة، يحق لي ويحق عليّ أن أرفع رأسي قليلا عن الورق، وأرسل النظراتِ إلى المدى البعيد والقريب على حد سواء، وأفتح الكتاب، كتاب السنين والتجربة.

يحق لي ذلك وأنا أتأمل تلك الجدلية الدائمة، والحوارية المتصلة التي ضمت على مدى السنين ذاتًا غير متكيفة مع واقع متناقض، تتصارع فيه الجغرافيا مع التاريخ، وتتعانق فيه الحكمة مع الجنون، ويتشرد العلماء ويعتلي العروش جهلاء، ويدق باب هذه الذات زمن لايفتأ يُغيِّر من لغته وأشكاله، يجري وراء ظروف لايكفّ بحرها عن التلاطم والهياج، تحملنا أمواجها حينًا إلى أعمق الأعماق، وفجأة، وبعد أن يحيط بنا اليأس من كل جانب، تباغتنا دفعة تلقي بنا إلى الشاطىء، نفترش الرمل الحنون، وتحدق فينا سماء صافية.

ويحق للقارىء أن يطالع بعض صفحات هذه التجربة لعله يلتمس منها قبسًا يُجنبه - على الأقل - مغبة الضياع في درب زلق، وخاصة لمن تخامرهم حرفة الأدب وهم كثرة، ولعلها تكون ذات نفع لمن مسته بالفعل نار الإبداع وألهبت وجدانه، ولم يعد له منها فكاك، وماأسعده بذلك وأسعدنا.

لاأحسبني مبالغا إذا قلت إن القراءة هي مفتاح العالم.. أي عالم، وكيف أكون مبالغا، وقد كانت أول كلمة أُوحى بها الله إلى النبي الكريم محمد بن عبدالله صلوات الله عليه وسلامه، ليبلّغها للبشر كافة.

القراءة مفتاح العلم والفن والجمال، مفتاح القوة والشخصية والاكتشاف، مفتاح الجديد والغريب، وكانت سلاحًا مهمًا لي ولغيري ممن قطع شوطا في الكتابة والتأليف أو العلم والابتكار، وتلحق بها ولاتقل عنها أهمية تجربة الإنسان الخاصة مع الناس، والظروف من خلال العيش والرحلة والعمل، ومن دون القراءة والتجربة لن يكون أديب ولا عالم ولا سياسي.

كان وقوعي - وأنا في سنوات الصبا وأول الفتوة - على كتب طه حسين والعقاد وأحمد أمين والمنفلوطي، ثم سلامة موسى وشوقي وحافظ عهدا جديدا يختلف اختلافا جذريا عما سبقه.. أدركت أني كنت نائما فصحوت، وكنت ضالا فهداني الله، وكنت بلا هوية فغدوت ذا هوية، بل كنت دون أهلٍ وعثرت في هؤلاء على أهلي وسكني.

قرأت كثيرًا في البداية دون تمييز، كنت فرحا بالثقافة وبالمعلومات.. بالتاريخ وبالأدب.. بالفلسفة وعلم النفس.. بالقصص العربية والأجنبية، كنت أقرأ إلى درجة أني أذهل عن الطعام والشراب والنوم، ولا أشعر بمن حولي، وأرفض كل دعوات الخروج ولعب الكرة الذي كان - من قبل - ديدني.

ثم شعرت أني بحاجة إلى كتابة خواطري حول فكرة ما، أوحى إليّ بها فصل في كتاب، وأحسست في مرحلة تالية أن هناك فكرة تناولها كاتب، لكنه لم يعطها حقها من التأمل والتحليل، ولم يوفق في

اختيار الزاوية التي كان عليه أن يلج من خلالها إلى عمق هذه الفكرة، فأسحب الورق وأكتب الفكرة كما أراها، وقد كان ذلك يسعدني لولا ماأشعر به تجاه صياغتي التي ظلت طويلا لاترضيني، فهي تبدو لي فاترة وعاجزة، وعباراتي قعيدة وغير محلقة كعبارات هذا الكاتب أو ذاك، فأمزق ماكتبت وأنسى المسألة، وسرعان ماتتجدد الرغبة بعد حين وقد تحسنت قليلا، ولم يكن من سبيل إلى رَدّى عن ذلك وأنا أغلب الوقت مشحون

الرواية أقدر على التعبير عن عالم معقد يمور بالأحداث والشخصيات

ومستنفر.

وكان يوم، كتبت فيه سطرين ظهرا لي كبيتين من الشعر، عكفت عليهما أهذبهما وأسوّي من ألفاظهما حتى يقتربا مما قرأت لإبراهيم ناجي أو علي محمود طه.. وكانت التجارب العاطفية الوليدة آنذاك مشجعة ومعينة وملهمة.

كررت التجربة ولقيت استحسانًا، وتماديت فألقيت بعض القصائد في المدرسة الثانوية، وكنت أتولى إذاعتها ونشاطها الثقافي، وكتبت الأغاني أيضًا، ولقي ذلك كله اهتمامًا غير متوقع.

في الجامعة، ومع دخولي عهد الشباب، ومع كثرة قراءاتي ومتابعتي الدائمة لأحداث الوطن وظروفه، خامرني شعور بأن الشعر غير ملائم لمزاجي، بدا لي في أغلب نماذجه حريصًا على التحليق والابتعاد عن الواقع رغم تأثيره فيه وتأثره به، وتفجرت في داخلي الرغبة الجامحة كي أقبض أكثر على الأشياء والمعاني، وأنغمس في تأمل بنية المجتمع والتعامل مباشرة مع مشكلات الناس ودوافعهم النفسية بصورة تحليلية، تكشف درامية الوجود الإنساني، لذلك فقد تصورت أن بغيتي هي القصة والرواية، وأنهما قادرتان على استيعاب رؤيتي المتغيرة والشاملة، لواقع دائم التحول ممتلىء بالوجوه والمرايا والأحداث والطموحات والإحباطات.

لقيت أنسًا حقيقيًا في القراءة للروائيين الكبار من أمثال ديستوفسكي وهيمنجواي وديكنز وشتاينبك وزولا وهوجو وبلزاك، ومن العرب طه حسين ومحمود تيمور والمازني.

كتبت عدة قصص امتدحها مَنْ حولي، لكني بإحساس داخلي غامض كنت أشعر أنها غير ناضجة بشكل كاف، ويحدث هذا في العادة لكثير من الشباب الصادقين مع أنفسهم والمميزين بموهبة أصيلة، فباستطاعة الكاتب الناشيء - خاصة الذي لم يصبه الغرور - أن يدرك السمات الحقيقية لعمله الذي أبدعه، وبإمكانه - مع التمرس المتواصل - أن يعرف ماينقصه، لذلك فليس ثمة مايدعو للدهشة إذا وجدنا كاتبا أبدع قصيدة أو قصة لايريد نشرها حتى وإن أعجبت غيره، ثمة شيء يمنعه. حدس ما يوحي إليه بأن بها نقصا ما، نقصًا ضئيلاً جدا، لكنه أبدا لن ينشرها إلا بعد أن يهتدي إليه، وقد يهتدي إليه بعد سنوات، قليلة أو كثيرة، وقد لايهتدي.

التقيت فجأة أمام مبنى روز اليوسف بالناقد الكبير د. محمد مندور على سلم الدار الصحفية، فحييته وعَرَّفته بنفسي، وقدمت له بعض القصص المخطوطة لأعرف رأيه، فطلب إلي أن ألقاه في اليوم نفسه من الأسبوع التالي وفي الساعة نفسها وعلى الدرجة نفسها من السلم.

عندما لقيته في الموعد المحدد من الأسبوع التالي، قال الناقد الكبير رحمة الله عليه: دع طه حسين ومحمود تيمور واقرأ يوسف إدريس ويحيى حقي، سألته عن رأيه في قصصي قال: لقد قلت رأيي في خمسة كُتّاب دفعة واحدة.

أقبلت على يوسف إدريس ويحيى حقي رحمة الله على الجميع، فوجدت طعمًا آخر، وأحسست بالفعل أنني قريب من يوسف والخميس ويوسف الشاروني وأمثالهم.

كانت أول قصة قصيرة لي، وقد نشرت في مجلة الجامعة هي "الفوج القادم" سنة ١٩٦٦م عن أم تنتظر عودة ابنها الكبير من حرب اليمن، وكلما رأت العائدين، تسألهم عن ولدها فيقولون لها: إنه سيأتي في الفوج القادم. وفي العام نفسه نشرت أول مقالة أدبية عن دريني خشبة رائد الثقافة المسرحية في الوطن العربي، وكان الدكتور زكي نجيب محمود رئيس تحرير مجلة الفكر المعاصر قد رحب بها عندما اقترحتها عليه.

وتوالت القصص التي كتبتها ونشرتها في

دوريات مختلفة، ولكني كنت لازلت أشعر بحاجتي إلى رأي محدد يوضح ماوصلت إليه، وموقعي بين أقراني من كتاب هذه الفترة، ولم أكن مغرمًا بارتياد المنتديات الأدبية.. كنت أزورها لماما لكنها لم تجذبني، بل على العكس أحسست دائمًا بالرفض لها، وعلل البعض ذلك بأني بطبيعتي انطوائي، ولاأعرف بالضبط ـ رغم هذه السنوات ـ إن كان رأيهم هذا صحيحا أم لا.. لذلك رأيت الاشتراك في بعض المسابقات المهمة.. وكان في مقدمتها نادي القصة

د. محمد مندور

بالقاهرة. وكان التقدم للمسابقة يتم على مستوى العالم العربي، حيث يتجاوز عدد المشاركين الألفين. اشتركت في هذه المسابقة ثلاث مرات، وكانت النتيجة السابع ثم الخامس بين الفائزين في سنتي ١٩٦٧م،١٩٦٩م، وحصلت عام ١٩٧١م على الجائزة الأولى من الثقافة الجماهيرية، وبعدها حصلت على جائزة نادي القصة بالإسكندرية، ثم توقفت بعد أن حصلت على ماأبتغي وهو أن أعرف الرأي في كتاباتي بشكل محايد وموضوعي، دون تهويل أو تهوين، ودون مجاملة أو تجاهل.

كانت القصة القصيرة ـ حتى وهي بعد نطفة ـ تمثل لي لحظةً من الإشراق الجميل تراودني وتخامرني، تدور في أعماقي.. تشغلني وتشاغلني، تلح وتلح وأنا في البداية جاهل بها ومتوجس حيرة أو خيفة من فكرتها، ثم أسلم لها نفسي وأتأملها، وسرعان ماأكتشف حاجتي إليها وحاجتها إلى النضج والاكتمال، أخوض فيها وتخوض فيّ وأبتعد بها عن الناس كنبتة صغيرة تبتغي الاحتضان والعناية الخاصة، ومع الأيام والاهتمام يصبح شكلها الضبابي الهلامي محددًا ومتميزًا، عندئذ أتذكر قولة تشيكوف: إنك حين تتحدث في قصتك عن الحصان تشعرني أن حصانك مختلف تماما عن آلاف الأحصنة التي تركض حولنا، وقولة فرانك أوكونور: إننا خلال حياتنا نلتقي بملايين الأطفال لكن طفلك أنت في قصتك تلك لن أنساه أبدا، مع أنه قد يكون بائسًا وشريدًا.

لاأكتب القصة بالأمر، وكذلك القصيدة وأي عمل إبداعي آخر، لكنها تكتب نفسها من خلال وقت تشاؤه، وهي ـ تقريبًا ـ من خلال روحي تعرف الوقت المناسب لميلادها، وقد عودتني على ذلك، فلست في أي وقت مستعدًا لأن أجلس إلى المكتب مهما كان إلحاحها، وكيف يحدث هذا وأنا مشغول بولدي الشقي أو بصراخ الزوجة أو أسطوانة الغاز التي تنتظرني لأحملها إلى المستودع، وكيف أسحب الورق لأكتب قصة أتصور أنها أروع ماألهمت وأتصور صداها بين الكُتّاب والقراء، بينما أعاني من أصبع قدمي المتورم أو صوت (الخبط) الذي سمعته اليوم في السيارة.

كل ذلك يؤجل الطرح النبيل، في انتظار لحظات صفاء تام، لحظات لاتجيء في الغالب إلا إذا أغلق باب المطالب الحياتية وباب المزعجات البشرية ولو مؤقتا. وأفسح المجال لما يسعد الروح ويغذيها.. تعالي أيتها الغالية، لقد اكتمل لك كل شيء وترابطت في الذهن أعضاؤك، وانسجمت تقريبا ملامحك، لاشيء يبدو غير منطقي، كل حدث وكل خطوة



د. زكي نجيب محمود

معللة، لاشيء بلا داع، ليست هناك شخصية دخيلة أو بلا دور، بل ليست هناك عبارة أو كلمة مكررة أو زائدة أو يمكن الاستغناء عنها، ويسمح لها بالبقاء ولو من أجل الزينة. وتبقى فقط مشكلات البداية وهي طبيعية ولابد أنها تواجه كل الكتاب حتى الباحثين والنقاد وإن كان الأمر يختلف.

كيف تبدأ القصة؟.. سؤال هام والإجابة عليه يمكن أن تكون مادة مقالة طويلة وقد يكون بحثا أدبيا تدعمه نماذج من كتابات القصاصين، ومحاولاتهم العديدة لكتابة

بداية مُرضية وتطور هذه المحاولات.
يتميز الكاتب الموهوبُ من المحرومِ من هذه النعمة، بميزات كثيرة منها هذا التطور الدائم في مداخل القصص، وليس في كل قصصي قصة واحدة تشبه الأخرى، خاصة في البداية التي ظلت تتطور باستمرار، ولا أعلم شيئًا محددا عن آخر ماوصلت إليها، ولا أحسب أنها ستصل إلى شكل ثابت.. المهم أن هناك جهدا إبداعيا كبيرا ومتألقا يجب أن يبذل لحساب هذه البداية التي يمكن أن يبنى عليها جمال القصة وجاذبيتها، والحق أنني أحيانًا

يحيى حقي

أبالغ، فأعتبر القصة هي البداية لأنها قادرة على أن تجذب إليها حتى من لايحب القصص وقد تُنفِّر المغرمين بالقصص، الصابرين على تقنياته.
لم يمر طويل وقت على كتابتي القصة القصيرة حتى شعرت بعد التخرج من الجامعة والعمل والانغماس في الحياة ومشكلاتها أن الرؤية تتغير لتكشف عن تعقد أسباب كل موقف وتشابك أطراف الحياة وامتدادها، وأن أيّ شيء ليس بسيط التركيب مهما بدا كذلك، وأن المشكلات ليست في الغالب جديدة لكنها متوازنة، وليست بدايتها مانحن فيه، ولكنها ناتجة عن مشكلة من مشكلة من مشكلات.
من هنا فكرت في الرواية بوصفها أقدر على التعبير عن عالم كبير معقد يمور بالأحداث والشخصيات.. فكتبت رواية "أشجان" عن حرب ١٩٦٧م وتهجير أهالي السويس، وكان ذلك عام ١٩٦٨م ولم تنشر - بسبب فقدها - إلا عام ١٩٨٠م، وكتبت روايتين قصيرتين هما "السقف" و "الناب الأزرق" عن تأثير الديكتاتورية والاستغلال على سلوك البشر بأسلوب رمزي ولا معقول، وقد لقيتا ترحيبًا من البعض وإعراضًا من البعض الآخر بسبب الدهشة والحيرة إزاء العملين الجديدين، ولم تكن الواقعية السحرية لجارثيا مركيز قد عُرفت بعد في الوطن العربي، ولاأخفي شخصيا شعوري بالرضا عن هاتين الروايتين.
كتبت "شفيقة وسرها الباتع" عام ١٩٨٦م عن رياح التغيير العنيفة التي حملها الانفتاح المجنون إبان السبعينات والثمانينات إلى القرية المصرية فزلزلها وهدد قيمها، ثم كتبت "موسم العنف الجميل" عن حرب أكتوبر ١٩٧٣م، ثم "عصر واوا" عن الوحوش البشرية التي تجري في شوارع القاهرة، وأخيرا "بذور الغواية" عن الكيفية التي تتربى بها شخصيات غير سوية سرعان ماتصبح قادرة على الالتهام.. التهام أي شيء بلا رحمة.
وهكذا توالت الأعمال الروائية حتى بلغت ثمانية أعمال، وتوالت المجموعات القصصية حتى بلغت خمسًا، وفي الطريق اثنتان.
كان هناك في كل رواية موضوع جديد ومعالجة جديدة، تنقلت خلالها بين الواقعية والرمزية، والواقعية الشعرية والسحرية، واللامعقول وتيار الوعي وغيرها، لأني أومن بأن الرواية والأدب الإبداعي عمومًا هو المتعة الثقافية التي تليق بالقارىء المعاصر، ويتعين لذلك أن يتوافر لها كل أشكال الفن والإبداع، وأن تتجدد دائما وتتلون وتلتقط كل غريب وتعدم المدهش والمثير حتى تقف شامخة بين مختلف قنوات الثقافة والإعلام كالتلفاز والفيديو والمسرح، الأمر الذي يحقق للفن القصصي تميزاً يفقدُه ولاشك إذا اقتصرت أدواته على الأساليب التقليدية، وهذا هو المأزق التاريخي الذي يتعين على القاص أن يتنبه إليه حتى يستطيع أن يواصل الإبداع وتواصل جماهير القراء الإقبال عليه، مقتنعة أنها واجدة لديه مالن تجده عند غيره.
وتظل علاقة الكاتب بالكتابة علاقة غريبة ومثيرة، علاقة تختلف أُحيانًا من كاتب لكاتب، لكن المؤكد أن مكانة الكتابة في نفس صاحبها، لاتعادلها مكانة، إذ تنطوي هذه المكانة على منظومة ثرية من المشاعر الغامضة، تتراوح بين الحب والاحترام، والاشتياق والوجد، والنزوع للمغامرة والاكتشاف، والرغبة في عناق الحياة والناس والدخول إلى عوالمهم من أرفع وأروع الأبواب.

- العنوان: هيروين على الشفاه.
- المؤلف: عبدالله عمر خياط.
- الناشر: سحر للإعلان، جدة، ط ١، ١٤١١هـ. (١٦١ص).


عبدالله خياط

استأثرت قضية المخدرات باهتمام المسؤولين والمفكرين والأدباء والباحثين، فراح كل واحد يبذل قصارى جهده، ويحمل معوله ليقوّض أركان أخطارها، وليجتثّ جذورها المتغلغلة في ثنايا نفوس الكثيرين من عباد هذا العصر المجنون، وكل ماقدموه في صدّ تياراتها العنيفة كان يصدر من منطلق الحرص والحفاظ على صحة مواطنيهم النفسية والخلقية والاجتماعية والجسدية، فضلاً عن الدافع الإنساني من وراء تلك المجهودات.

وها هو ذا الأستاذ عبدالله عمر خياط، يدلي بدلوه، ويحمل معوله مع سائر الرجال المخلصين لبلده وأمته العربية والإسلامية، يهدم كل مايقوى على هدمه من دعائم هذا الوباء الذي أخذ يجتاح عالمنا العربي. ولم يكن سلاحُهُ غير قلمه الذي خط لنا به هذا الكتاب «هيروين على الشفاه»؛ الذي كان في البدء مشروع بحث عن المخدرات، ودراسة لعالمها وأخطارها وأسرارها ومروّجيها عبر العالم. ولكن مقدم الكتاب عبدالله الجفري اقترح عليه الاستفادة من ذلك المشروع «ليكون عملين ضخمين بحق: عمل في مجال الدراسة والبحث والمعلومة والتوثيق والأبعاد الفكرية، وعمل في المجال الإبداعي: الرواية وتأثيرها في المتلقي بأحداثها وبشخوصها وبمفاجآتها وباعتيات الكتابة فيها» وقد سُرَّ الأديب الجفري بإقناع الأستاذ الخياط بالاقتراح، لأنه أعاد «كتابة الجانب الروائي الأدبي الإبداعي.. ليدخل الكاتب مجالاً جديداً بالنسبة إليه، لم يكن قد خاضه من قبل، وهو كتابة القصة والرواية». وهكذا اقتنع الخياط أيضًا بأن عمله استحال إلى فن قصصي؛ لذلك رأيناه يقول في خاتمة مقدمته: «في هذه القصة التي أقدمها بكل تواضع لعزيزي القارىء ليرى فيها بعض الأخطار التي تحدق بشبابنا مما يجري في عالم المخدرات، ومايخطط له تجارها لتدمير الشباب وتحطيم مستقبلهم. كما سنرى في فصول هذه القصة التي هي بنت الواقع الذي يشبه الخيال وأكثر».

ولقد احتوى الكتاب على معلومات عديدة عن ذلك العالم الرهيب، عالم المخدرات، سواء ماجاء في المقدمتين: مقدمة الجفري والخياط، أو ماجاء خلال مجريات وسياق أحداث القصة. فمما أفاض فيه الجفري هو أن التاريخ يذكرنا بحرب «الأفيون» بين الصين وبريطانيا في عام ١٨٣٩م، حين هزمت الصين الاستعمار البريطاني، وذلك بعد سلسلة من المصادمات بينهما، ولاسيما بعد أن أغرقت بريطانيا الصين بالأفيون ليقضي على الطاقات الكامنة في الشعب الصيني، وتعود اللعبة الاستعمارية في استخدام ذلك الأسلوب الفعّال للقضاء على المقاومة العربية، ولإخماد صوت العرب المطالب بالحقوق المشروعة»، وذلك بإغراق المجتمعات العربية بتلك المخدرات لقتل إرادة الإنسان العربي أو إماتته وهو حي. «إنها لعبة إسرائيل عراب الاستعمار الحديث» وأولى البلدان المستهدفة كانت مصر، حين أغرقتها بكميات هائلة من المخدرات.

كما أفاض الخياط في مقدمته عن وضع المخدرات في أمريكا، لأن أحداث قصته تقع فيها، فهي بكامل قوتها وعتادها وإمكاناتها المتقدمة قد عجزت عن صد هجمات المهربين..» وإن جميع ماتستطيع الإمساك به من مخدرات مهربة إلى أمريكا لايتجاوز الثلاثة عشر إلى خمسة عشر في المائة مما يحاول المجرمون إدخاله إليها». أما المعلومات التي جاءت عن طريق سياق القصة وحوارات أبطالها فهي كثيرة، وتزخر بها سائر مشاهد القصة التي بلغت أربعة عشر مشهدًا. فمنها، على سبيل المثال، أن الأجانب يريدون من البطل الفنان أن يعتمد في تسويقه للمخدرات على الشباب وطلاب المدارس والفنانين والرياضيين، فبواسطة المنحرفين الذين يسمونهم (المتعاونين) يمكن ترويج البضاعة على الاخرين، ولو بدون ثمن في البداية، لأن النتيجة الحتمية ستأتي له بأضعاف الثمن الذي قد يخسره في الأول. كما أن في عملية جلب الحشيش إليهم يستطيع أن يعتمد على الفئة ذاتها من الشباب الذين يغريهم مظهر السفر إلى الخارج، فضلاً عما زخرت به القصة أيضًا من عصابات المهربين وبمستواها الدولي.

ولقد روى الخياط قصته بأسلوب المتكلم، وكنا نتمنى لو لم يجعل نفسه البطل المحوري في مجريات أحداث هذه القصة التي بدت مثل التي نشاهدها أو نقرأها عبر الأفلام والمسلسلات والروايات البوليسية.

فقد بدا لنا متمكنًا وواثقًا من نفسه وهو في قلب وخضم أكبر وأخطر عصابة تهريب المخدرات التي يشارك فيها عميل عربي مع بعض الشباب العرب ممن التقى بهم الخياط صدفة في إحدى الحدائق. واستطاع أخيرًا أن ينجو منها بمساعدة ذلك الفنان العربي ويعود لوطنه المملكة، ثم يسافر لمصر ليلتقي بأولئك الشباب بمصادفة عجيبة رغم أنه لايعرف سوى أسمائهم الأولى (بيومي، جمال، محسن، حسام).

ولهذا فالقصة بنسيجها الفني، تفتقد الكثير

من عـدة النسج، ولهـذا أيضـا بدت ألوان خيوط النسيج فاقعة حينا، مهلهلة الحياكة حينا آخر، لأن هم الكاتب كان إبراز الأفكار والمعلومات والرؤى حيال المخدرات بأية وسيلة كـانت بالتصـريح والتـقرير والإشهـار والضجيج، والإدانة والاستنكار. لم يحسن إخفـاء وتغليف تلك الأفكار بقالبـه الفني الخفي الموحي. والعمل الروائي بناء صعب التشييد إلا لأمْهَر البنائين، ويختلف بناء القصة القصيرة التي قد تكون سهلة التناول حتى لو جاءت عن طريق الحكاية السريعة لأحداث خاطفة. ولهذا وجدنا الخياط يفلح في سـرد بعض قصص الشباب المصـرين الأربعة التي سمعها منهم وكانت سبب انحـرافـهـم. وكـذلك في قـصـة الرئيس الأمريكي أيزنهاور حين تسممت قدمه وهو فتى ولم تبتر.

وهذا مايمكننا أن نقول إن الخياط قد غامر بارتياده عالم الرواية، وربما كان الجفري يتحمل مغبة هذا العمل، لأنه أول من غرر به ودعاه.

ولكن يبقى لذلك العمل بعض التوجهات والمواقف والأفكار الصائبة، والكاشفة لكثير من الأخطاء والعيوب والمساوىء التي تردّى بها بعض الشباب.

وإن جـاءت بـذلك الأسلوب الـصـارخ، كـقـولـه: «عـدت إلى الطاولـة، وأنا أكـاد لأصدق مارأيت. هل صحيح أن من يسمون بالثوريين الذين يزعمون أنهم سيحررون العالم العربي من الصهيونية، ولا يجد الفقراء من إخوانهم مايوفر لهم لقمة العيش، هم جالسون على موائد القمار، يبددون الأموال في تعاطي المحرمات وتناول المخدرات».

- العنوان: ديوان: وهج الشباب - أشواق وآهات - الإنسان - جلنار - آفاق وأعماق (المجموعة الكاملة)
- الشاعر: إبراهيم خليل العلاف.
- الناشر: مطابع الصفا - مكة المكرمة - ط ١، رمضان ١٤٠٩هـ/ إبريل ١٩٨٩م. (٧٠٢ص).


الشاعر ابراهيم علاف

هذه هي المجموعة الشعرية الكاملة، خمسة دواوين، للشاعر إبراهيم العلاف.. قام بطبعها عام ١٤٠٩هـ، وضمت أربعة دواوين كان قد طبعها تباعًا، وبعضها طبع أكثر من طبعة، فضلاً عن الديوان الخامس "آفاق وأعماق" الذي لم يطبع من قبل. وقد طبع ديوان: "وهج الشباب" - "البعث" سابقًا - مرتين الأولى عام ١٣٧٣هـ، والثـانيـة عـام ١٣٨٤هـ. وديوان: "أشـواق وآهات" طبع مـرتين أيضـًا، الأولى عـام ١٣٨٠هـ، والثـانيـة عـام ١٣٨١هـ. وديوان: "الإنسان" طبع مرة واحدة في عام ١٣٨٤هـ، وكذلك ديوان "جُلنار" في عام ١٣٩٠هـ.

وهكذا فقد جمع الشاعر هذا الكم الغزير من شعره في ديوان واحد، وعلى حسب التسلسل الزمني بدءاً بعـام ١٣٦٥هـ وانتـهـاءً بـعـام ١٤٠٩هـ، أي على مدى خمسة وأربعين عامًا تقريبًا.

وإذا عـرفنا أن مـيلاد الشـاعر كـان في عـام ١٣٥٠هـ، في مكة المكرمة علمنا أنه بدأ ينظم الشعر وهو في سن الخامسة عشرة. ولهـذا التسلسل الزمني فضيلة واحدة، هي متابعة القارىء - وبخاصة الناقد - تطور الفن الشعري عند شاعرنا العلاف. وفي الحقيقة فإن ذلك التـسلسل الزمني يؤدي إلى ضـيـاع وتشـتت الوحدة الشعورية لقارئـه. فتارة يكون في الشعر التأملي الوجداني، وثانية مع الوطني، وثالثة مع الرثاء، ورابعـة مع المناسبات الدينيـة - أي مع الشعر الديني - وخامسة مع الغزلي، وسادسة مع الاجـتـمـاعي.. وهكذا يظل القـارىء بين مـد وجزر، تتقاذفه أبيات هنا وهنالك. كما أن ذلك قد يوقع الشاعر والقارىء معًا في مفـارقة مستنكرة، حين نجد أن قصيدتين متلاصقتين في الجوار مختلفتان ومتناقضتان في المضمون، وعلى سبيل المثال تقرأ قصيدة (تبذّل) في (ص٣٨٦)، التي تحوي وصفًا حسيًا، ثم تقرأ في الصفحة المجاورة الملاصقة (ص ٣٨٧) قصيدة (موسم الخير)، ومن أبياتها:

رمضان أقبل واسع البركات
متميزاً بتعاقب الطاعات
وتهجّد يهب الصلاة خشوعها
وبوادر الإحرام والزكوات

وإن تلك الفضيلة لاتشفع له هذا المأخذ، ولعلنا نجد له عـذراً أو فضيلة أخرى بهـذا الجمع التسلسلي وهي أن للشاعر (ثنائيات) كثيرة، وقـد أدرج الكثـيـر منـهـا تحت ذلك العنوان، متعددة المضامين، فلايقوى على توزيعها على تلك الأبواب العريضة، كما أن الشاعر لايتسم بالنفس الطويل، والكثير من قصائده لاتشكل بضعة أبيات في الصفحة الواحدة.

ولقـد أدرج الشـاعـر مـقـدمـات دواوينه في مواضعها من هذه المجموعة الكاملة، والمقدمات كـثيراً مـاتكون ضرورية، سـواء أكـانت بقلم الشاعر أو بقلم غيره، لاسيما إن قـامت بدور الكاشف والمستخلص لبعض المزايا للشـاعـر وفنه، ولننظر فيها، ماذا سنجد؟!

استـغرقت مـقـدمـة الـديوان الأولى ثمـاني صفحات: صفحتان عن جائزة نوبل - ويبدو أن المقدمة كانت عن المجموعة الكاملة لأنه وضع لهـا عنوانًا هو: بين يدي الديوان - وعن إقصـاء الجائزة عن الشـعر العربي، لأن الشـعر ديوان

العرب، ومنحها للقصة العربية لأنها مستوردة الفن من الغرب. وصفحتان أخريان عن قيمة الشعر، وإطلاق بعض التعريفات له مثل: «وهو الرقص باللسان والجمل، وهو خمر الحديث ونشوته» أو «هو الخروج بك عن المعتاد والمألوف»، وهذا من التصور الحداثي عن التراث ورفضه لأنه يقوم على ثوابت الأصالة والفطرة اللتين لاتخرجان عن «المعتاد والمألوف». كما اعتبر البيت التالي من الشعر الرائع، لأنه «يقابل بين المتناقضات والمتنافرات فيحسن الوئام بينها ومعانقة بعضها بعضًا»، ويطلب منا أن نسمعه:

تِهْ أحتملْ، واستطِلْ أصبرْ، وعِزَّ أهُنْ،

وَوَلِّ أُقبلْ، وقلْ أسمعْ، ومُرْ أُطعْ

وإن تحقق في هذا البيت التناقض المعنوي والترصيع اللفظي، فإنه لم يحسن الوئام أو الانسجام الصوتي في الجرس والإيقاع، لأن اللسان يتعثر في نطق حروفه ومفرداته، وفي ذلك خروج عن مبدأ «الفصاحة» في بلاغتنا العربية، الذي يقوم على سهولة النطق.

وتنتهي المقدمة ولم يشر بكلمة لمجموعته، ربما اكتفى بـ «تصدير» الدكتور الرمادي لها أو بمقدمتي الطبعتين. أما في المقدمة الثانية ـ بلغت إحدى عشرة صفحة ـ فيبين فيها التغيير الذي طرأ على شعره بعد سبع سنوات من إصدار ديوانه الأول، وأظن إعجابه بشعر امرىء القيس، لاسيما ذلك البيت الذي فيه هذا التطويل والتفصيل والبراعة الفنية لمائة قبلة:

فقبلتها تسعًا وتسعين قبلة

وواحدة أخرى وكنت على عجل.

ثم إعجابه بتلك المترجمات الأدبية والنقدية الغربية، أمثال «العلامة الفيلسوف الفرنسي جان ماري جوير باقال»، فأورد كلامًا طويلاً من تلك المترجمات وبخاصة عن الصوت والإيقاع، ثم يختم المقدمة ببضع كلمات، أو بالأحرى بضعة أسطر، دون ذكر لأي علاقة أو ربط بين ماااستطرد فيه وبين مضامين وأساليب ديوانه، أي لم يطبق الأفكار المنتزعة من الفكر الغربي على شعره، أو ماهو في شعره من تنظير الغرب الشعري.

أما مقدمة الديوان الثالث ـ الإنسان ـ فكانت تسع صفحات للدكتور جمال الدين الرمادي قضى فيها (ساعة مع قلب إنسان عربي)، ذكر شيئًا عن أحاسيسه ومعانيه مستشهدًا ببعض شعره، دون التفات إلى الجانب الفني والتصويري، مع أن النص يتوجب ذلك مثل قصيدة «النافورة».

ومع سبع صفحات لمقدمة ديوانه الرابع، نجد كلاماً يندرج تحت علم العروض أو التفعيلة المكرورة في الشطر الواحد الأفقي، وقيمة ذلك التكرار في شعرنا العمودي، خلافاً لشعر التفعيلة الواحدة الذي نجده في الشعر الحر الذي لم يذكره، على أنه قرن ثنائية التكرار بأعضاء الإنسان، وبكثير من مظاهر الطبيعة وغيرها. وأحال القارىء إلى بعض الكتب العربية المعاصرة التي تطرقت لمثل هذا الموضوع. كما نوه في هذه المقدمة أنه لم يتطرق لقضية فلسطين في ديوانه هذا، وقلة إنتاجه الشعري في تلك المرحلة لأسباب مرضية ونفسية. كذلك لم يستفد من تلك المعلومات الأدبية أو الشعرية أو العروضية في تقويم شعره مضمونًا وفنًا. وكذلك الحال مع خمس وعشرين صفحة لمقدمة ديوانه الأخير «آفاق وأعماق» لم يشر فيها إلى شخصية الشعر إلا ببضعة أسطر أيضًا، ذكر فيها أن قصائده أو ديوانه «منذ أول قصيدة فيه عام ١٣٦٥هـ وحتى آخر قصيدة فيه عام ١٤٠٩هـ وهي قصائد آثرت تسلسلها تاريخيًا لا موضوعيًا»، ثم ذكر التطور الذي لحق الأوضاع في وطنه والعالم بعد الحرب العالمية الثانية التي مضى عليها أكثر من أربعين عامًا. وكل ماأورده قبل ذلك كان نصوصًا وآراء لكبار الأدباء والنقاد العرب في قضايا متعددة عن الشعر وعناصره، والشعر العمودي والحر. فضلاً عن عودة ثانية لجائزة نوبل ونجيب محفوظ، ووقوفه مع المناوئين له، وتراجعه عما كان قد وقفه حياله قبل أن تنجلي له الأمور والمواقف.

إننا ونحن نستطرد في الكلام عن هذه المقدمات، كنا نتمنى من الشاعر العلاف لو أشار فيها إلى بعض الاستدراكات أو التعقيبات تحاشيًا لكل تناقض أو ازدواجية وقع فيها رؤية وموقفًا، وهذا ليس بغريب على الشعراء، طالما أن الشاعر متطور في فنه وفكره خلال مراحل عمره، ولكن مهما يكن من أمر، فالاستدراك والتعقيب ضروريان في كثير من مواقفه، مثلما صنع حين تراجع عن قصيدة ومحتواها التي أشاد فيها بنجيب محفوظ وجائزته، قبل أن يتبلور له المنظور الإسلامي عن رواية «أولاد حارتنا»، وحين أكد ذلك التصور الإسلامي بقوله: «هذه الكتب، ومنها دواوين نزار قباني وأمثاله، أساءت أبلغ الإساءة إلى مفاهيمنا الصحيحة، وساهمت في اختلالها واضطرابها دينيًا وخلقيًا.. إلخ». علمًا أن للشاعر نصوصًا كثيرة، مثل التي ذكرناها، غزلية وحسية تستوجب التعقيب في الهوامش، ولكنه يستدركها بهوامشه تأكيدًا لانفيًا، وعلى سبيل المثال فإنه، يؤكد في ص ٣٥٨ من هامشه أنه يقصد بـ (السلسال) الخمر اللينة، وليس الماء العذب في قوله:

والثغر ياقوتة من خلفها درر

ضمتهما هالة والريق سلسال

على أن الشاعر العلاف شاعر ديباجة عربية أصيلة في سبك مفرداته وجمله، وإحكام تراكيبها، بصياغات يختار لها ثيابًا قشيبة تليق بموضوع المقام، وبخاصة في موضوعات ومناسبات وطنية أو تراثية أو تاريخية أو فكرية، وهو يمدح، مثلاً الملوك، أو يشيد بموضوعات أو أحداث لها جذور عريقة في تاريخنا العربي والإسلامي، فنراه يعتني بجودة الألفاظ، وحسن التصوير، وروعة المعنى، وإننا لنستغرب من الشاعر، وهو في مرحلة الصبا والفتوة، ولما يتجاوز الخامسة عشر من عمره، يصوغ لنا شعرًا متقنًا بنسيج محكم وكأن صائغه أو حائكه قد عركته السنون، وأشابته التجارب والمحن،

فصقلت يديه اللتين أحسنتا الصنعة، صنعة الصياغة والحياكة.. يضاف لهما صنعة الصباغة.. صباغة ألوان نسيجه.

ولو قرأنا أي قصيدة من شعر (الباكورة) لوقعنا على الصورة المجسدة الناطقة.. فصوره فنية وحية ومتحركة برشاقة تنعكس على معانيه فتكسبها خفة وبهجة.. لأنها تتحول إلى لوحات شعرية طيبة، ولنقرأ أولى قصائده «ابتسام الحياة»، ولنختر مما قاله عن الطائف:

والطائف الخصب جنات محمّلة
يترجم الطير فيها سيرة الشجر
كم مجلس برباها الخضر متسق
خلاله البشر، طلق الجو والزهر
تألّف الصحب طرًا فيه واتصلت
به الكؤوس(١) حلالاً طيب الأثر
يكاد يخطف ضوءَ العين رونقُه
ويستعيد به الأعمى سنا البصر
كأنه الذهب المحلول متقدًا
وقد طفا فوقه نثر من الدرر

ومما أتمه عن البركة:

وبركة عجب تزهو برقتها
يمضي النسيم بها ريّان من خدر
كأنها الماس لولا أن صفحتها
خفاقة كفؤاد العاشق الحذر
تجري الجداول منها في مراوغة
مثل الثعابين فرّت خيفة الخطر
كأنه الطوق في جيد الفتاة بدا
من فضة لمعت في سمرة البشر

ونجد مثل هذا التصوير الفني في القصيدة الثانية «معرض النعيم»، وفي قصيدة «تبرج الرياض».

ثم يفرق الشاعر بمثل هذه الحسية التصويرية في ديوانه الثاني، وهي أثر من آثار التقليد للصورة الفنية للشعر العربي القديم، وبخاصة الجاهلي والأندلسي. فتبدو لنا صوره وكأنها مألوفة للعين والخيال بعيدة عن التوليد والابتكار. يقول مثلاً في قصيدته «رحلة إلى الظفير»، وقد جعل صفة المشبه أقوى وأوضح منها في المشبه به:

وأزاهير كالنجوم؛ ولكن
أين منها النجوم عَرْفًا مديدا؟

أو قوله في ص ١٤٦ من قصيدته «نزهة في القناطر»

والجُلنار حولها جمرات بلا شرر

أو مايقوله في قصيدته «من أحضان البادية» ص ١٥٣، وقد وصف جمعًا من البدويات المتبخترات كالغزلان:

روافلُ في حرز العفاف كأنما
يعافير تمشي زايلتها المخاطر

ويقول في قصيدته «رائدة النشء» التي يصف بها مجلة «الروضة» وهي للطفل أنشأها الشاعر الزمخشري:

عمل به أمل الأبوة يسطع
وإليه تقصير الأمومة يفزع
وبه الطفولة بسمة وتفتح
كالزهر ينعشه الندى يترعرع

كما يقول في قصيدته «تحية المنهل»، وهو يصف طلائع الشباب وتوثبه في ص ٢٢٢:

إني لأرقبه حيًا، توثبه
كالموج يدفق يحتثّ الملايينا

ومن قصائده النادرة والفريدة في مجازها وتصويرها وتألقها في هذا الديوان الثاني قصيدة «قبسات» وقد بلغت ثلاثة وعشرين بيتًا، يحيي فيها ذكرى المولد النبوي، وتشفّ فيها نفسه عن حس إسلامي عربي أصيل.

أما في ديوانه الرابع «جُلنار»، فقد وقفنا على بعض قصائده التي تعتمد التصوير الحسي والمعنوي، منها قصيدة «تجاذب» و «لبنان»، حيث نجد فيهما الصورة المركبة، والتشخيص الحي الجذاب. يقول في نهاية «لبنان» ص ٣٥٦:

بسمة الثلج في الذرى كل صبح
وهي تهمي بأدمع جذليه
بسمة الثلج للمفاتن شاعت
وتداعت برقة غزليه
حولها الأرز أذرع مشرعات
حاميات مؤديات تحيه

وشعره المدحي، وبخاصة للملوك، يقوم على عناصر الصورة المدحية القديمة التي خطها لنا النابغة الذبياني في مديحه للنعمان:

وإنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب

فيقول العلاف في مديح الملك فيصل:

وأطلّ للإسلام وجه مشرق
كالشمس تخترق الضباب فيرحل

كما تقع في هذا الديوان أيضًا على قمة الروعة الشعرية في تصوير لوحة فنية، تتناسق فيها باتقان مرسوم حركات دقيقة مجسمة حينًا، ومشخصة حينًا آخر لبعض مظاهر الطبيعة في عملية الإخصاب بين ماء السماء وجدب الأرض، قصيدة «موكب الندى»، ص ٣٧٨.

والمقام لايسع لذكر خصائص الديوان الخامس والاستشهاد بنصوصه، ولكننا نحيل القارىء إلى بعض قصائده الجيدة أو أبياتها. مثلاً نقع على مرثيتين: الأولى في رثاء الملك فيصل ص ٤٥٤، والثانية لأحمد شطا ص٤٣٢، ووصفًا لـ «الطائرة النفاثة» ص٤٣٤، وقصيدة «منتزهات» عشر صفحات ص ٤٥٦ ـ ٤٦٥، يعدد فيها عشرات الأماكن في المنطقة الغربية والجنوبية. وقصيدة غزلية ص ٤٦٦، يحاكي فيها الشعر الغزلي القديم الذي يتباهى الشاعر فيه بنعت المحبوبة بأوصاف ومفردات قديمة تجسد فقه اللغة في دقة الموصوفات، ثم قصيدة «حسان عبدالعزيز» التي يترجم فيها سيرة الشاعر الغزاوي مع أقرانه، وتبعتها قصائد أخرى عنه. وفي ص ٥٢٥ قصيدة يمدح فيها الأمير عبدالله الفيصل، يضمنها موقفه من التراث الشعري، عن جائزة نالها، ثم في ص ٥٧٤ نقع على قصيدة يترجم فيها ذكرياته مع الإعلام ونخبة من رواده، وعلى رأسهما، الشاعران: عبدالله بلخير، ومحمد حسن عواد.

الهوامش:

(١) الموصوف هنا هو الشاي.

المسلمون في الصين

صفحات مشرقة

قسم الترجمة بالمجلة

نجلاء حسن حامد



مسجد موريش ويدو واضحًا عليه تأثير الفن الإسلامي

استطاع الفاتحون الأوائل النفاذ إلى عرين المارد الأصفر ونشر راية لاإله إلا الله منذ قرون.. والآن يتراوح عدد المسلمين في الصين بين ٥٠ و ٧٠ مليون نسمة، تتركز غالبيتهم في إقليم سينكيانج الغني بموارده الطبيعية في شمال غرب الصين، واللغة السائدة فيه تكتب بأحرف عربية، وقد تعرض المسلمون على مدى عصور التاريخ لمذابح عديدة، وإن كانوا قد شهدوا فترات سلام نسبي عندما أصدر امبراطور الصين عام ١٣٢٥م "أن الإسلام دين الحق"، وكذلك عندما أعلن الدكتور صن يات صن في ١٩١١م أن "المسلمين هم أحد العناصر الأساسية الخمسة الذين تقوم عليهم البلاد". والآن بعد المعاناة والقمع في ظل الحرس الأحمر والثورة الثقافية استرد المسلمون حقوقهم الدينية وبدأت صفحة جديدة مشرقة في حياتهم، يؤكدون فيها من خلف سور الصين العظيم أن الإسلام بخير.

الصين

تقع جمهورية الصين الشعبية في شرق آسيا، وتبلغ مساحتها ٣ر٤ مليون ميل مربع، وتُعتبر أول دولة في العالم من حيث عدد السكان البالغ ألف مليون نسمة، وهم ينقسمون إلى ثلاث قوميات: الصين والسيكنيك والتبت.

وكانت التبت قد تعرضت للفتح الإسلامي في عهد يزيد بن معاوية والوليد بن عبدالملك وغيرهما من الخلفاء، أما منطقة سيكنيك فكانت موطنًا لقبائل "الإيجور" وهم من عناصر الأتراك الشرقيين، وقد فتحها المسلمون بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي عام ٩٥هـ، ومعظم سكان هذه المنطقة من المسلمين.

أما علم الصين الذي يتكون من خمسة ألوان فيشير إلى خمسة أجناس كبيرة تعيش فيها، وهي من الأسفل إلى الأعلى: أحمر للصين الداخلية، أسود للمنشوريين، أبيض للمسلمين، أخضر للتبت، أصفر للمغول.

وتاريخ الصين مليء بالعجائب والأحداث، وتمتد حضارتها إلى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، وكانت تنقسم قديمًا إلى عدة قبائل لكل منها استقلالها التام، أما في الوقت الحاضر فتنقسم إداريًا إلى ٢٤ ولاية وتنقسم تلك الولايات إلى عدد من المناطق والألوية، يتمتع عدد منها بالحكم الذاتي.

وكانت أول امبراطورية في الصين قد قامت عام ٢٣٥٧ ق.م، ثم تعاقبت عليها عدة ممالك، ومن أهم المناطق الأثرية الشهيرة فيها "سور الصين العظيم"، الذي يعد من عجائب الدنيا السبع، وقد بناه الامبراطور "شن" في القرن الثالث قبل الميلاد، ويبلغ طوله ٢٨٠٠ك.م، وكان الهدف من بنائه حماية البلاد من غزو قبائل منغوليا الشمالية، ولايزال هذا السور باقيًا حتى الآن.

وقد ورد أول ذكر للإسلام في تاريخ الصين أيام أسرة تانج (٦١٨ - ٩٠٧م) كما جاء في كتاب "تاريخ الحدود الغربية" وكان سكان الصين آنذاك يسمون المسلمين الأوائل "هوي" ويقولون إنهم جاءوا من بلدة اسمها (تشي كوي) أي الجزيرة العربية.

وتؤكد بعض الأخبار التاريخية أن الصينيين كانت لهم معرفة جيدة بالإسلام بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام بنحو خمس سنوات، ومن المعروف أن الإسلام انتشر في الصين بداية من القرنين السابع والثامن الميلادي، عبر الطريق البحري والطريق البري التجاري المسمى "بطريق الحرير".

٥٥ أقلية

يعيش في الصين أكثر من ٥٥ أقلية، يُشكل المسلمون عددًا كبيرًا منها، وتشير الإحصائيات الرسمية إلى أن عدد المسلمين في الصين يبلغ نحو ١٤ مليونًا، وتؤكد المصادر غير الرسمية أن عدد المسلمين يتراوح بين ٥٠ و ٧٠ مليونًا، ويقدرهم البعض بنحو ١٠٠ مليون.

وأيًا كان الحال، فإن المسلمين ينتشرون في كل إقليم من أقاليم الصين حتى التبت ومنغوليا ومنشوريا بقسميها (الداخلي والخارجي) غير أنهم ينتشرون انتشارًا كبيرًا في تسعة أقاليم، يبلغ مجموع مساحتها ٧٥٣ر٣٥٢ر١ ميلاً مربعًا، وعدد سكانها ٠٠٠ر٢٤١ر١٨٣ نسمة، وهذه الأقاليم هي:

يونان - شينسي - قانصو - هونان - شانتونج - زتشوان - سينكيانج - شانسي.

ويشكل الإسلام الأغلبية في ثلاثة أقاليم هي:

* يونان، وعاصمته كونيج، ومساحته ٣٤٢ر١٦٢ ميلاً

وفي معظم المدن الصينية، يوجد مسلمون وتوجد مساجد، أينما ذهب المرء تطالعه لافتات بالعربية والصينية معًا "مطعم إسلامي"، والمطعم الإسلامي لايقدم الخمر ولا لحم الخنزير، بل يقدم وجبات تماثل العربية، أهم عنصر فيها لحم الضأن.

أولى البعثات

تختلف الآراء وتتعدد بشأن كيفية دخول الإسلام الصين لأول مرة، بيد أن الراجح أن الإسلام دخل الصين أول مادخل مع التجار المسلمين - ولاسيما العرب - الذين كانوا يؤمّون الموانىء الصينية للحصول على السلع الصينية مقابل منتجات الهند ومنتجات البلاد التي كانت تخضع لسلطان الإسلام.

ومن المؤكد أن الصين استقبلت أولى البعثات الإسلامية في عهد ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - (٦٤٤ - ٦٥٥م) وأن هذه البعثات استمرت بمعدل بعثة كل أربع سنوات، وأنها أقامت علاقات طيبة مع امبراطور الصين في ذلك الوقت "تانغ"، ومنذ ذلك الحين، بدأ انتشار الإسلام.

ولم يبذل المسلمون محاولة جديدة لفتح الصين، فإن قُتيبة بن مسلم، قائد الوليد بن عبدالملك (٨٦ - ٨٩ هـ) - (٧٠٥ -٧١٦م) بعد أن فتح بخارى وسمرقند، وتقدم من الحدود الشرقية لبلاد



أكثر من ٥٠٠٠ مسلم يؤم هذا الجامع كل جمعة

مربعًا، وعدد سكانه ١٠٫٨٥٣٫٠٠٠ نسمة.

* قانصو، وعاصمته كاولان، ومساحته ١٥١٫١٦١ ميلاً مربعًا، وعدد سكانه ٦٫٢٥٦٫٠٠٠ نسمة.

* سينكيانج (التركستان الصيني)، وعاصمته تيهوا، ومساحته ٧٠٥٫٩٦٢ ميلاً مربعًا، وعدد سكانه ٤٫٣٦٠٫٠٠٠ نسمة.

وفي هذه الأقاليم الثلاثة يكوّن المسلمون أكثر من ٨٥٪ من عدد السكان، ومعظمهم من الجنس الطوراني (التتر والأتراك).

ويمكن القول بأن غالبية المسلمين في الصين من البجوارس، ولكنْ هناك كثيرين غيرهم، فمنهم التتار، والقازاق، والتاجيكس (الطاجيك)، وكلهم من ذوي أصول تركية، وكانوا يعيشون في تركستان الشرقية التي ينحدر سكانها من قبائل شهيرة في آسيا الصغرى، وكثير منهم تربطهم صلة قرابة بسكان تركستان الروسية، يتحدثون لغة لايمكن تمييزها عن التركية الحديثة، والاختلاف الوحيد هو استخدامهم للخط العربي، فالأتراك المسلمون في الصين مازالوا يستخدمون الخط العربي التقليدي، أما الأتراك في بلادهم فلا.

الصين، رجع عنها، ولعل الأحوال السياسية في دولة الخلافة لم تكن لتسمح بعد بهذا الفتح العظيم. وكان بالفعل قد وصل إلى الحدود الصينية الغربية، واحتل مدينة "كاشغر" عام ٧١٤م.

وفي عام ٧٥١م اشتبك العرب مع الجيش الصيني في معركة "طلاس" قرب مدينة "كاشغر"، وقد انتصر العرب فأسروا عشرين ألفًا من الجنود الصينيين، وكان من بينهم الصناع في مختلف الحرف، فانتشرت بعد ذلك صناعة الورق في سمرقند، ثم دمشق، وعن طريق العرب انتقلت إلى أوروبا.

وفي عهد المنصور استنجد عاهل الصين "سوتسون" بقواته لقمع تمرد قام به قائدان لديه من التتار عام ٧٥٧م، فأرسل إليه المنصور بضعة آلاف من الجنود المسلمين، ولما أخمد التمرد، استقر بعضهم في الصين، وتزاوجوا من نساء البلاد، فكانوا بالإضافة إلى تجار المسلمين في الشواطىء الصينية، نواة تقدم الإسلام في هذه البلاد، كذلك هاجر الآلاف من مسلمي فارس والتركستان إلى بلاد الصين فرارًا من جيوش المغول فاستقروا هناك.

قومية هوي

عندما احتل قوبلاي خان ـ حفيد جنكيز خان ـ الصين، أسس أسرة يوان المنغولية (١٢٧٩ ـ ١٣٦٨م)، وكان المغول يجندون المسلمين إلى صفوفهم من عرب



موقع جامع شيان الكبير الذي بناه تجار عرب منذ أكثر من ١٢٠٠ سنة

وفرس وأتراك، كما أجبروا أصحاب الحرف المسلمين على تأدية الخدمة في جيشهم، فوصل هؤلاء المسلمون إلى الصين مع الجيش المنغولي، ورابطوا في أماكن متفرقة في معسكراتهم، ومن ثم استوطنوا، وتزاوجوا، وتحولوا مع مرور الوقت إلى قومية صينية تُعرف بقومية "هوي"، إذ إن من بين القبائل التي اعتنقت الإسلام في وقت مبكر، وأتت إلى الصين مع المنغول؛ قبائل خوارزم، فاتُخذ المقطع الأول لخوارزم "خوا" اسما لهؤلاء المسلمين، حتى يُعرف الإسلام بين الصينيين بدين "هوي".

وكان المسلمون في عهد المغول يتمتعون بامتيازات خاصة، لأن الحكام المنغول هم قلة قليلة، بينما كانت الأغلبية الساحقة من السكان من قومية "هان"، لذا عملوا على إيجاد توازن للقوى داخل الصين، فصنفوا السكان إلى أربع طبقات: المنغول في المرتبة الأولى، ثم المسلمون «يُطلق عليهم أصحاب العيون الملونة»، ثم أهل قومية "هان"، ثم النوبيون منهم، لأن جنوب الصين هو آخر مااحتلته المنغول بعد قتال عنيف. وارتقى بعض المسلمين مناصب عالية، فتوصل "أهاما" أو "أحمد" إلى وزير، وعُين عبدالرحمن رئيسًا لبيت المال ويوننغ "قطب الدين" أصبح وزيرًا للملكة.

ولكن أبرز المسلمين في أسرة







(أعلى اليمين) طفل صيني في الزي «الماوي»، ثم ثلاث طفلات بملابسهن التقليدية الزاهية الألوان

يوان هو عمر شمس الدين "ساي ديان تشي شانسي دين" الملقب بالسيد الأجل (١٢١١ - ١٢٧٩م) لما له من شرف القرابة من صاحب الرسالة، فهو من البطن الواحد والثلاثين من آل البيت - كما يقال -، وكان قد جاء إلى الصين من بخارى، وعُين حاكمًا لمقاطعة شنسي، ثم مقاطعة يونان، وقام خلال مدة حكمه بإنشاء المساجد والمدارس، وبناء وشق الطرق الجبلية، وبناء الجسور ومشاريع الري، وتحسين البذور وإقامة مراكز البريد، ومازال هذا السياسي النزيه العادل يحظى باحترام أهل يونان حتى اليوم.

وقد خلف السيد الأجل خمسة أولاد، هم ناصر الدين وحسن وحسين وشمس الدين ومسعود و١٩ حفيدًا، فكانوا جميعًا خير خلف لخير سلف، عملوا على رفع كلمة الله، وترسيخ الإسلام في المقاطعات التي حلوا بها.

وفي سنة ١٣٢٥م أصدر عاهل الصين اعترافًا بأن الإسلام هو "الدين الحق الخالص"، فزاد هذا من مكانة الإسلام وعمل على اجتذاب الناس لاعتناقه في كافة ولايات الصين.

وفي أواخر هذا العهد، والعهد الذي يليه تكونت قومية صينية مسلمة تُعرف بقومية "هوي" ذات الأصول الوافدة من الخارج،



وامتزجوا بالمجتمع الصيني، وأصبحوا يتصرفون لا باعتبارهم أجانب وافدين؛ بل أصبحوا يتصرفون كمواطنين، وأصبحوا يحملون أسماءً صينية إلى جانب أسمائهم الإسلامية.

ترجمة القرآن الكريم

عرف المسلمون الصينيون معاني القرآن الكريم عن طريق أئمة المساجد، وقد جمع هؤلاء معاني بعض السور في كتاب أسموه: "خاتمة القرآن" وتضم سور الفاتحة ويس والملك والطارق والأعلى والضحى والانشراح والقدر والزلزلة والتكاثر والماعون والعصر والفيل وقريش والكوثر والكافرون والنصر والمسد والإخلاص والفلق والناس، ثم ظهرت مجموعة أخرى من "خاتمة القرآن"، تضم بعض الآيات من سورة البقرة وآل عمران والفتح ويس والملك وجزء عمّ.

وفي القرن السادس الميلادي ظهر الإمام "يو تشاو"، وهو أول من دعا إلى تأسيس الكتاتيب بعد عودته من الحج في مكة، وكان القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة تُدرس باللغة العربية والصينية. وفي الفترة الأخيرة من القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر، ازداد عدد الأئمة والعلماء المسلمين، وكانوا يجمعون بين اللغتين العربية والصينية، وظهر منهم عدد كبير خاصة في مدينة نانكين، العاصمة الجنوبية للصين.

وخلال ثلاثة عشر قرنًا من انتشار الإسلام في الصين، ظهر عدد كبير من الأئمة الصينيين، عكفوا على دراسة الدين، وزاروا الحجاز ومصر لأداء الحج أو الدراسة في الأزهر الشريف، من بينهم "دون هوان" الذي عاش في أواسط القرن الثامن الميلادي، وكان أسيرًا للعرب في معركة طلاس قرب مدينة كاشغر، وقد عاش بين العرب ١٢ سنة، وزار بلادهم، وألف كتابًا بعنوان "رحلة إلى بلاد الكتاب"، سجل فيه أحوال العرب والمسلمين، ولايزال هذا الكتاب مرجع المسلمين في الصين في أمور الدين.

غير أن أكمل ترجمة لمعاني القرآن الكريم، ظهرت في منتصف









أداء الصلاة جماعة وتلاوة القرآن الكريم صور من ممارسة مسلمي الصين لشعائر دينهم

القرن الحالي، وقد عكف على ترجمتها الأستاذ "محمد مكين ماجيان" الذي درس في الأزهر الشريف ثماني سنوات في الفترة من ١٩٣١م وحتى ١٩٣٩م، وظهرت هذه الترجمة عام ١٩٥٢م، ولاتزال هي المرجع الأساس لمسلمي الصين الذين لايتحدثون اللغة العربية، وخاصة كبار السن منهم.

شيان ومسجدها

تُعد مدينة شيان Xian وهي مدينة قديمة، أول مدينة دخلها الإسلام في الصين، فقد بلغتها أول بعثة إسلامية في عهد الخليفة عثمان بن عفان عام ٦٥١م ـ كما تقدم ـ، وكانت وقتئذ عاصمة للصين في عهد أسرة "تانغ".

وتقع شيان إلى الجنوب الغربي من بكين، ويرجع تاريخها إلى ثلاثة آلاف سنة، وكانت عاصمة للصين في بعض فترات التاريخ القديم، وفيها متاحف لأقدم الحقب الصينية، ولايزال فيها أكبر مجتمع للمسلمين في الصين.

ويقول الحاج الإمام محمد يونس أو الإمام مالينجيه ـ فالأئمة لهم اسمان واحد صيني والآخر إسلامي ـ وهو إمام المسجد الكبير في شيان: "إن في مقاطعة شينسي وحدها يعيش ١١٠ آلاف مسلم، منهم ٥٠ ألفًا في شيان وحدها، ويتواجد معظم المسلمين في غرب الصين، فالإسلام جاء عن طريقين: من الجنوب عن طريق ماليزيا وإندونيسيا، ومن الشمال عبر طريق الحرير وقوافله التي كانت تتجه شرقًا للتجارة. ولمسجد شيان قيمة أثرية وتاريخية كبيرة.

مذابح بالجملة

عاق انتشار الإسلام وتقدمه في الصين المذابح التي تعرض لها المسلمون على مر العصور المختلفة، ففي عصر أسرة المانشو (١٦٤٤ ـ ١٩١١م) وكانوا أعدى أعداء الإسلام، تعرض المسلمون لحرب إبادة، وقتل المانشو عشرة ملايين مسلم من الشمال والشمال الغربي، وعندما ثار المسلمون ونادوا بالجهاد أبادت قوات المانشو مقاطعات بأكملها.

وعندما أُعلنت الجمهورية في الصين في ١٠ اكتوبر سنة ١٩١١م، سارع مسلمو جنوب الصين إلى تأييد الجمهورية واستجابوا لنداء الدكتور صن يات صن الذي دعاهم فيه إلى إقناع مسلمي المناطق الشمالية الغربية بالوقوف وراء الثورة والتعاون معها، وفي المقابل بادرت الجمهورية الوليدة برئاسة الدكتور صن يات صن إلى الاعتراف بالمسلمين باعتبارهم أحد العناصر الأساسية الخمسة التي تقوم عليها البلاد.

وفي سنة ١ٹ٢٨م ـ كما يؤرخ كتاب "الصين المتحررة" الصادر في بكين عام ١٩٥٧م ـ حدث أن قام المسلمون في مقاطعتي قنصو



شباب من مسلمي الصين بزيهم التقليدي جلسوا يستمعون إلى حديث ديني

وليشيا بثورة مسلحة ضد فساد حكم شيانغ كاي شيك، وقد ذهب ضحية هذا الجهاد المسلح العادل نحو عشرة آلاف مسلم، ذهبوا في مذابح بشعة، فضلاً عن إحراق منازلهم.

وحينما قام المسلمون يطالبون بحقهم في الحياة ـ يضيف الكتاب ـ فإن آلافًا آخرين ذبحوا فيما بين عامي ١٩٣٠و١٩٤١م في مقاطعتي هيوان وكويوان، وقد بلغت وحشية رجال الكومنتانغ حدًا جعلهم يجبرون بعض الجنود المسلمين في الجيش على أن يقوموا هم أنفسهم بهذه العمليات الوحشية ضد إخوانهم المسلمين.

وقد أدت هذه المذابح بالإضافة إلى الفقر المدقع، وهدم المساجد في شيوشين وبكين وموشيا وشويخ وغيرها، إلى اتجاه المسلمين لتأييد القوى الوطنية بزعامة الرئيس ماو في مظاهرة كلفتهم آلاف الأرواح. ورغم هذا شكل المسلمون (قومية هوي) جيشًا عُرف باسم "الجحافل الحديدية"، تزعمه ضابط مسلم اسمه هابن تشاي، قاوم اليابانيين في شمال الصين، وأوقف محاولات استيلائهم على سينكيانغ.

هدنة مؤقتة

كانت السنوات التي انقضت فيما بين (١٩٠٠ ـ ١٩٤٩م) ـ رغم ماتخللها من ملابسات ـ بمثابة مرحلة التقاط الأنفاس



القنص (الرياضة العربية الأصيلة) يمارسها مسلمو الصين

بالنسبة للمسلمين.

فكانت مدارسهم ومعاهدهم في تزايد، وجمعياتهم تتدعم وتتوسع، كذلك تجددت صلاتهم بالعالم الإسلامي، وعادت وفود الحجاج الصينيين إلى بيت الله الحرام، وقطعت الجمعيات الإسلامية الأهلية شوطًا في إيفاد المبعوثين للدراسة، إذ سافر خمسة أشخاص عام ١٩٣١م، ومثلهم في العام التالي، ثم ثلاثة في عام ١٩٣٣م، وستة في عام ١٩٣٤م، ثم ١٦ مبعوثًا دفعة واحدة عام ١٩٣٧م، أطلق عليهم "البعثة الفاروقية" مجاملة لملك مصر آنذاك "فاروق". وبهذا بلغ عدد الصينيين الذين درسوا في الأزهر فيما بين (١٩١١ - ١٩٤٩م) نحو ٣٥ شخصًا، كذلك طبع المصحف الشريف باللغة العربية أربع مرات وطُبعت بعض الكتب الإسلامية الأخرى، وقد برز في هذه الفترة عدد كبير من العلماء المسلمين منهم:

ـ الشيخ وانغ جينغ تشاي، كان إمامًا ومعلمًا ومحررًا لمجلة "نور الإسلام" التي أنشأها، وساهم هو وأفراد عائلته في طبعها وتوزيعها. ورغم أنه لم يلتحق بمدرسة نظامية، إلا أنه أجاد الصينية والعربية والفارسية، ترك ترجمات عديدة، أشهرها ترجمة القرآن الكريم المطبوع عام ١٩٤٥م، وكتاب "العمدة"، وهو كتاب فقهي شائع في الصين منذ ثلاثة قرون "وكلستان" ديوان الشاعر الفارسي "مساري"، ثم القاموس العربي الصيني.

ـ الشيخ محمد تواضع يانغ شي كشيان، المتوفى سنة ١٩٥٨م، كان عالمًا أزهريًا من بين أول مجموعة التحقت بالأزهر، عمل إمامًا ومحررًا ومعلمًا، وهو أول من جلب حروف الطباعة العربية إلى الصين، وألف كتاب "ذكريات تسع سنوات في مصر" وترجم كتاب "تاريخ التشريع في العالم الإسلامي".

ـ الشيخ ماليانغ جيون، المتوفى عام ١٩٥٧م، يعتبرونه إمام الأئمة في سينكيانغ، كان يكتب ويترجم الكتب الدينية باللغات الصينية والعربية والفارسية، من أشهر أعماله المترجمة "المبسوط" للسرخسي و "الخمخمات" باللغتين الصينية والفارسية، وهي مجموعة قصائد دينية.

ـ الأستاذ محمد مكين ـ سبقت الإشارة إليه ـ درس في الجامع الأزهر ودار العلوم، ومن مؤلفاته "سيف محمد"، و "موجز شرح القرآن الكريم"، ومن ترجماته "القرآن الكريم"، و "رسالة



تأثير الفن الإسلامي يبدو واضحًا في هذا المسجد الذي بني على الطراز الصيني

"التوحيد"، و"حقيقة الدين الإسلامي"، و"تاريخ علم الكلام".

تأميم النشاط الإسلامي

حينما دخل الرئيس ماو بكين في ١١ اكتوبر ١٩٤٩م - كما أسلفنا - كانت القيادة الجديدة في هذا العام وخلال الأعوام التي تلته تتحدث بلغة الثورة، ولم تكن قد تمرست بعد على حسابات قاموس لغة الدولة.

وفي ظل هذا المناخ، لم تكن قضية المسلمين مثارة إلا بالقدر الذي يُحسّن علاقات الصين مع دول العالم الإسلامي، ومن ناحية أخرى لم يكن هناك سبب جوهري يدعو إلى قلق المسلمين في ذلك الوقت، ومن الواضح أنهم كانوا في حالة ترقب، يدل على هذا أننا لانعثر على أي نشاط خارجي للجمعيات الإسلامية الموجودة في هذا الوقت، فلا حجاج ولابعثات سافرت منذ مغادرة البعثة الفاروقية البلاد عام ١٩٣٧م.

ولكن في عام ١٩٥٣م، وبعد أربع سنوات من تولي السلطة الجديدة، ظهرت إلى الوجود "الجمعية الإسلامية الصينية" كجمعية وحيدة ممثلة للمسلمين في الصين، بينما لانجد آثارًا لبعثة الجمعيات التي كانت موجودة من قبل، ولا لأي نشاط صادر عنها.

وفي شهر مايو ١٩٥٣م انعقد أول مؤتمر للمسلمين الصينيين، ثم أصدرت مجلة باسم "المسلمون في الصين" في العام الذي يليه، وأُنشيء معهد إسلامي تابع للجمعية في عام ١٩٥٥م، ثم طُبع القرآن الكريم باللغة العربية لأول مرة في عصر مابعد التحرير.

وفي المرحلة ذاتها صدر دستور ٥٤ الذي تضمن إعلانًا للحريات، نص في المادة ٨٨ منه على "حرية الاعتقاد الديني"، وقد شهدت هذه الفترة اشتراك المسلمين في مجلس نواب الشعب "البرلمان" وفي مختلف المجالس الإقليمية.

ويمكن وصف هذه الفترة حتى عام ١٩٥٧م بأنها كانت مرحلة تأميم للنشاط الإسلامي ونقل إداراته وتوجيهه من الجمعيات الأهلية إلى الدولة والحزب.

بداية الهجمة

يُصنف عام ١٩٥٨م في القاموس الصيني بعام "القفزة الكبرى"، وفيه تم إنشاء الكوميونات الشعبية في الصين جميعها، وكان الواضح أن السلطة أقدمت على هذه الخطوة لإحكام الهيمنة على النشاط الاقتصادي، بعد أن استطاعت خلال الفترة من ١٩٤٩م إلى ١٩٥٨م ترتيب "البيت" من الداخل وتثبيت السلطة السياسية.

وجاء نظام الكوميونات مجحفًا للمسلمين، وموقظًا لقلقهم القديم، ذلك لأنّ تطبيق هذا النظام أدى إلى توزيع العاملين كل في اختصاصه، وقد شمل هذا التطبيق رجال الدين ودفع بهم إلى المزارع والمصانع فجأة.

وتلى ذلك ظهور كتابات في الصحف تتساءل عن جدوى أعداد المساجد المنتشرة بكثرة في بعض القطاعات، وتدعو إلى استغلال أمثل لها، يوفر للأقليات حرية العبادة، ويتيح الفرص لتوظيف منشآت المساجد توظيفًا اقتصاديًا ملائمًا، وشيئًا فشيئًا أُغلقت بعض المساجد وحُولت لأغراض اقتصادية لأول مرة منذ ١٩٤٩م.

ثم توقف المعهد التابع للجمعية الإسلامية، وهو معهد بكين الإسلامي في عام ١٩٥٩م، بعد أربع سنوات من إنشائه عن استقبال الدارسين، وكان هو المكان الوحيد لتعليم مسلمي الصين الفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة العربية، بخاصة بعد توقف إرسال البعثات إلى الأزهر منذ ١٩٣٧م. وقد بلغ عدد الذين أُتيحت لهم فرصة تعلم شيء عن الإسلام منذ عام ١٩٤٩م وحتى عام ١٩٨٠م مائة شخص، هم عدد الذين تخرجوا من المعهد خلال سنوات عمله الأربعة.

وبإغلاق معهد بكين لم يبق أمام مسلمي الصين منفذ واحد يستطيعون من خلاله إعداد كوادر إسلامية تقوم بمهام الإمامة والخطابة والوعظ.

وتلى هذا توقف إصدار مجلة "المسلمون في الصين"، رغم أن الطبعة الثانية من القرآن الكريم بعد التحرير كانت قد صدرت عام ١٩٥٩م، ثم توقف سفر بعثات الحج بعد عام ١٩٦٣م.



مسجد صغير وقد كتب في واجهته بالعربية: بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله محمد رسول الله



ثم حدثت حركة تهجير واسعة من وإلى مناطق الكثافة السكانية للمسلمين في بداية الستينيات، فقد نُقلت آلاف الأسر الصينية من قومية الهان ـ القومية اللادينية ذات الأغلبية الساحقة ـ إلى سينكيانج خاصة، ونُقلت آلاف الأسر المسلمة من يونان إلى مختلف المقاطعات. وعندما حدث انفجار شعبي في سينكيانج عام ١٩٦٢م تدخلت السلطات الصينية لقمعه فلجأ الآلاف إلى داخل الحدود السوفيتية (سابقًا).

الثورة الثقافية

في بداية الستينيات حدثت "الثورة الثقافية" التي استهدفت تغيير وجه الصين وتاريخه، والتي كانت إعصارًا اقتلع كل شيء في طريقه من الدين إلى الثقافة، إلى الأدب، إلى الإنسان نفسه، حيث أصبح في مفهوم هذه الثورة شيئًا كغيره من الأشياء التي لم يعد لها ثمن عند جحافل الشباب من الحرس الأحمر الذين تعرض رجال الدين وعموم المسلمين للضرب والأذى على أيديهم.

ويقول الحاج إلياس شين نائب رئيس الجمعية الإسلامية: إن رجال الدين المتواجدين في العاصمة "بكين"، لم ينلهم أذى بدني كبير بسبب وجود سفارات الدول الإسلامية، ولكن في الأقاليم اعتقل رجال الدين وعُذبوا، والذين لم يُسجنوا ضربوا في الشوارع، أو اقتيدوا وسط تهليل الجماهير وسخريتهم، وقد عُلقت على ظهورهم كلمات مثل: "الشياطين" و "الأشباح" و "الغيلان"، كذلك اقتحم شباب الحرس الأحمر بيوتهم، وأخذوا مالاقوه من مصاحف وكتب، وأحرقوها علنًا في الشوارع، وبسبب هذه الحرائق فقد المسلمون مئات الكتب المخطوطة النادرة، وهي خسارة فادحة لأن رجال الدين كانوا يحتفظون بعشرات المخطوطات المتوارثة منذ قرون مضت، والتي كان يلجأ المسلمون لكتابتها بخط اليد لتعذر طباعتها.

ثم امتدت الحملة إلى المساجد التي أُغلقت جميعها خارج بكين، وهُدم بعضها، وحول البعض الآخر إلى ورش ومخازن ومحال تجارية، وقد أبقوا على مسجد واحد في بكين «مسجد تونغ سي بالو» ليصلي فيه الدبلوماسيون المسلمون في الأعياد والمناسبات، ويقول أحد الدبلوماسيين إنه ذهب إلى مسجد العاصمة ليصلي الجمعة فلم يجد سوى خمسة أشخاص فقط: الإمام ومساعده والمؤذن وخادمين.

محراب أحد المساجد يضم آيات قرآنية وحديثاً شريفاً

أساليب القمع

لم يكن الأذى البدني والنفسي والجسمي هو كل مانال المسلمون على أيدي قوات الحرس الأحمر، بل تعددت أساليب القمع المعنوي ضدهم حتى شملت أشياء في صلب معتقداتهم وشعائرهم منها:

ـ أُلغيت عطلة عيد الأضحى والفطر "حتى لايتعطل الإنتاج"، وكانا من الأعياد المعترف بها، والتي يُسمح للعاملين من المسلمين بالتغيب أثناءها، وهما يومان فقط في العام.

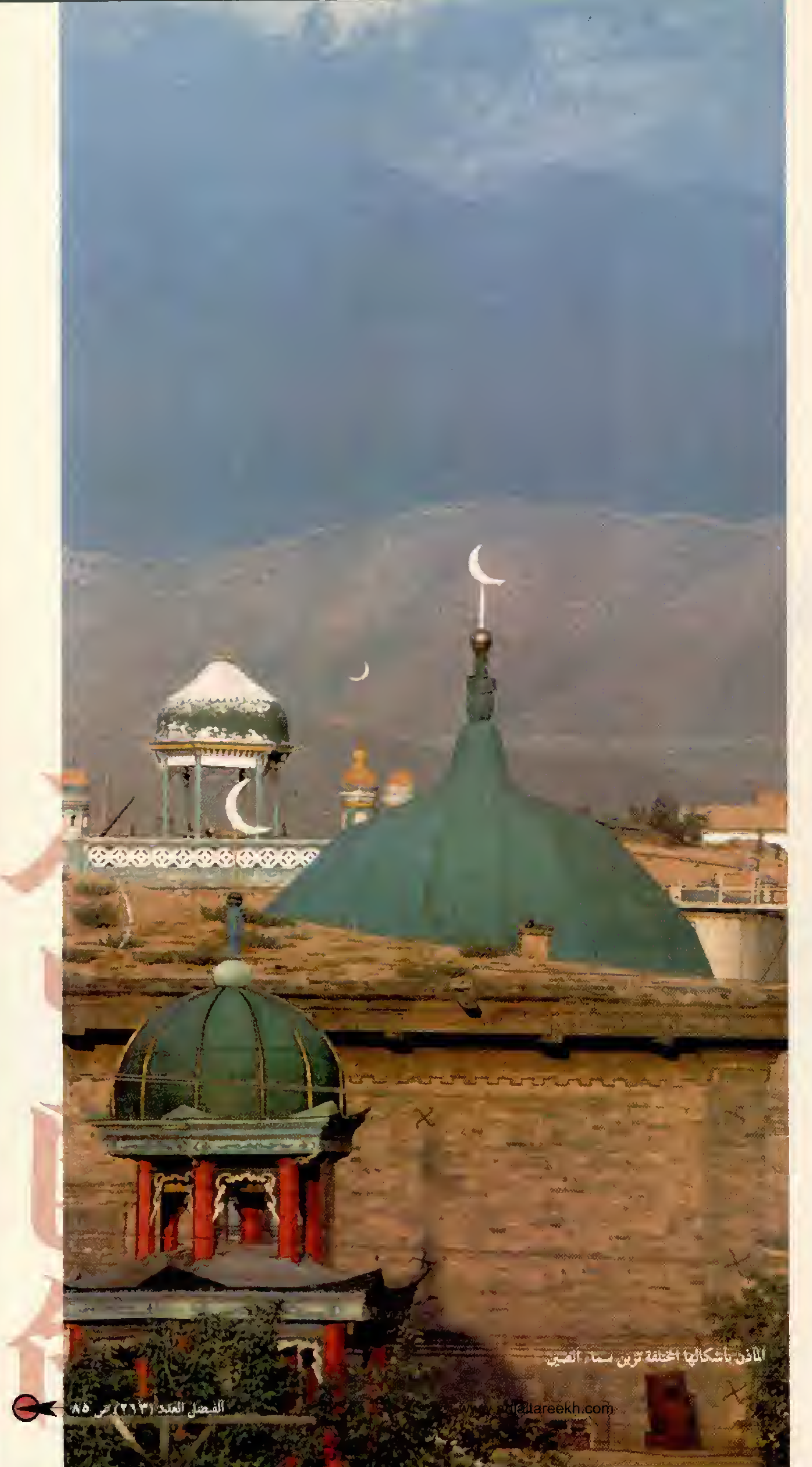
ـ مُنع المسلمون في مقاطعة سينكيانج من استخدام الحروف العربية في الكتابة، وأجبروا على استخدام الحروف الصينية، والحروف العربية يستخدمها المسلمون ذوو الأصول التركية الذين يُعرفون بقومية "الاويغور".

ـ مُنع المسلمون في مناطق الكثافة السكانية الإسلامية من ارتداء ثيابهم القومية، وأُجبروا على استخدام الثياب الرسمية الزرقاء (الجاكت المغلق والبنطلون).

ـ ضُيق على المسلمين في تقاليدهم وحياتهم الخاصة، فقد أعلن وقتئذ أن كل مسلم ـ مثلاً ـ يموت يأخذ ١٥ قدمًا من القماش الأبيض للكفن، وذلك بمقتضى كوبونات خاصة، تعطي المسلمين هذا الحق في حالات الوفاة مراعاة لتقاليدهم، ولكن قيادة الثورة الثقافية اعتبرت هذا الاستثناء عبئًا اقتصاديًا على الدولة، فضلاً عن أنه عادة رجعية يجب التخلص منها، وفعلاً أوقف صرف هذه الكوبونات للمسلمين.

ـ كذلك دعت الثورة الثقافية إلى إحراق جثث موتى المسلمين أسوة بغيرهم من الصينيين، بحجة أن مقابر المسلمين تمثل مساحات من الأرض، مما يعوق فرص استثمارها، ويبدو أن رد فعل المسلمين كان عنيفًا بدرجة أوقفت تنفيذ هذا الاقتراح.

وقد استمرت معاناة المسلمين عشر سنوات هي عمر الثورة الثقافية التي بدأت عام ١٩٦٦، وانتهت ١٩٧٦م، والمؤسف أن صدى هذه الثورة وماعاناه المسلمون خلالها من صنوف



المآذن بأشكالها المختلفة تزين سماء الصين

العـــذاب، انعكس على الدول الشيوعية المجاورة، فأُبيد ثلث المسلمين في كمبوديا، وكان الإعدام يتم بطريقة مبتكرة، حيث يوضع المسلم في كيس من "النايلون"، ويظل معلقًا فيه بإحكام بعد إغلاقه مدة طويلة.

ولعل المنظر الذي أوردته صحيفة سيدني مورننج هيرالد لهرم يبلغ ارتفاعه خمسة عشر مترًا من جماجم القتلى والشهداء الذين تولت عصابة "الخمير الحمر" قتلهم وإبادتهم أمرًا لايمكن نسيانه.

مرحلة جديدة

في منتصف السبعينيات تلاحقت الأحداث سريعًا، بدءًا بمحاولات ماو كبح جماح الثورة الثقافية وحصار نشاطاتها، ثم وفاة الرئيس الصيني عام ١٩٧٦م،وماأعقبه من صراع على السلطة انتهى بسحق عصابة الأربعة بزعامة أرملة الرئيس ماو، وأعقب هذا، الإعلان عن طي صفحة الماضي وبدء مرحلة جديدة عام ١٩٧٨م.

وقد أسفر هذا عن الاعتراف بحرية الاعتقاد الديني، ولضمان عدم الإساءة إلى المتدينين ورجال الدين وإعرابًا عن حسن النية من جانب السلطة الجديدة التي جاءت بعد وفاة الرئيس ماو، أضيفت في عام ١٩٧٩م مادة إلى قانون العقوبات رقم (١٤٧) تنص على أنه "يُعاقب موظفو الحكومة



بالسجن بحد أقصى سنتين إذا ماأفرطوا في تجريد المواطنين من حريتهم في عقيدتهم الدينية، أو انتهكوا أعراف وعادات أبناء الأقليات القومية على نحو غير شرعي".

ورغم هذا يبدو أن الإطار القانوني الذي يُفترض أن يحمي نشاطات المسلمين والمتدينين عمومًا من العدوان والانتهاك، قد تمت صياغته بأسلوب غريب ومثير للدهشة. ذلك أن النص الذي أُضيف إلى قانون العقوبات السابق ينص على أن يُعاقب الذين يفرطون في تجريد المواطنين من حريتهم في العقيدة من حيث المبدأ، ولايعارض انتهاك تقاليد الأقليات من الأساس، أي إن التجريد إذا تم بغير تفريط، والانتهاك إذا تم على نحو شرعي فإنه يصبح قانونيًا ومقبولاً.

وقد يعيد هذا إلى الأذهان معاناة ماقبل الثورة الثقافية (١٩٥٨ - ١٩٦٦م)، والثورة الثقافية نفسها (١٩٦٦ - ١٩٦٧م)، ورغم هذا جاءت سنوات مابعد عام ١٩٧٨م بانفراج نسبي ظهر في إجراءات إيجابية منها الوعد بإعادة فتح المعهد الإسلامي، وطبع القرآن الكريم للمرة الثالثة منذ عام ١٩٤٩م، وإصدار مجلة "المسلمون في الصين" وإيفاد بعثات الحج، وفتح المساجد، وفي سينكيانج وحدها أعيد فتح ١٩٠٠ مسجد، وإعادة عطلتي عيد الفطر والأضحى.

عصر الانفتاح

بعد سنة ١٩٧٨م عاشت الصين عصر الانفتاح، وقد أرادت أن يكون انفتاحها أكبر على الدول العربية، وأن يدخلها العرب بكثرة كسياح أو رجال أعمال وذلك لعدة اعتبارات منها: أنها تعتبر نفسها واحدة من دول العالم الثالث مثل الدول العربية، وأنها ترى أن معظم الدول العربية غنية يمكنها أن تثري حركة السياحة في الصين، ولذا فهم يجعلون من مسلمي الصين وسيلتهم إلى العالم العربي، وقد بدأوا الآن يحسنون معاملة المسلمين ويرصدون المبالغ اللازمة لتوسيع المساجد، وترميمها، ويحرصون على أن يأخذوا أي سائح مسلم لزيارة المسلمين ومساجدهم.. ويشجعون الطلاب المسلمين على الالتحاق بمعهد بكين الإسلامي، وإن كان هو المعهد الإسلامي الوحيد في الصين كلها.

وعندما تفشت ظاهرة وأد البنات في القرى مع بدء تطبيق قانون الولد الواحد في الصين عام ١٩٨٠م، لجأت الحكومة إلى أئمة المسلمين وأشركتهم في جميع لجان التوعية في القرى، وكانت النتيجة أن هذه الظاهرة كادت تختفي الآن بعد أن خرجت البنت الصينية إلى الحقول لمساعدة أبيها في الزراعة.

وكان المسلمون قد تصدوا لتطبيق قانون الولد الواحد، لأنه ينافي أحكام الإسلام.. وتصدوا لسياسة الدولة في إجهاض الزوجة التي لديها ولد، حقيقة إن قانون الولد الواحد مطبق على المسلمين كمواطنين، ولكن من الناحية العملية غير موجود، إذ إن المسموح لهم هو إنجاب أكثر من مولود، وإن كان الإجهاض يُطبق قسرًا على بقية المواطنين.

ولكل قومية من القوميات المسلمة عدد معين من مجالس نواب الشعب من مختلف الدرجات، كما أن في مجلس الوزراء عددًا غير قليل من المسلمين يتقلدون مناصب وكلاء الوزراء، ومنهم من يتولى مناصب الرئاسة للمناطق المستقلة ذاتيًا، ومناصب وكلاء حكومات المقاطعات ورئاسة البلديات والمراكز والولايات، بل إن من هذه المناصب مايشغله سيدات مسلمات.

كذلك نشطت الحركة التعاونية بين الفلاحين والرعاة من المسلمين حتى انتظم أكثر من ٩٠٪ منهم في التعاونيات التي تسعى إلى حياة



يكتب العربية بالأسلوب الصيني التقليدي (الفرشاة والحبر)



نقوش إسلامية على مسجد تم بناؤه في العام ١٨٧٣م

أفضل، كما تكونت الجمعيات التعاونية الإنتاجية في الأوساط الصناعية، وهناك نهضة صناعية كبيرة في مجالات التعدين والبترول والحديد والصلب.

وللمسلمين مدارسهم الابتدائية والثانوية ومعاهد عُليا وجامعات في جميع أنحاء البلاد.

اسمان للمسلم

مسلمو الصين من أهل السنة في غالبيتهم العظمى، يتبعون المذهب الحنفي، وهناك نسبة ضئيلة للغاية من الشيعة الإسماعيلية (يقال إنهم ٢٠ ألفًا فقط)، ينتمون إلى قومية الطاجيك، ويتوزعون على الحدود الصينية الأفغانية.

وحتى الآن لاتزال كتب الفقه الحنفي المتداولة هناك مكتوبة باللغة الفارسية، بل إن الصلاة ومايرتبط بها، ومسميات الفرائض الخمس كلها فارسية. فالصلاة (نماز)، والآذان (بانك)، والوضوء (آبديس)، والصبح (بام بداد)، والظهر (بيشين)، والعصر (دكر)، والمغرب (شام) والعشاء (خوفتن) وهكذا.

والشائع بين المسلمين أن أعمدة الدين الأربعة هم: الإمام والخطيب والمؤذن وخادم المسجد، والإمام غير الخطيب في كثير من المساجد، بحيث يلقي الخطيب خطبته يوم الجمعة مثلاً ولكن الإمام هو الذي يقوم ليؤم الصلاة.

وللإمام وضع خاص ومتميز في مجتمعات المسلمين في الصين، وله دوره عندما يولد الشخص وعندما يتزوج وعندما يموت أيضًا.

فبمجرد أن يُولد الطفل يُدعى الإمام، ليتلو إلى جواره بعض آيات القرآن الكريم والأدعية، ثم يقرأ الآذان في أذنه حسب التقليد الشائع عند المسلمين، ثم يقوم الإمام باختيار اسم للمولود ذكرًا أو أنثى.

وفي قومية هوي - أعني المسلمين ذوي الأصول العربية والفارسية - فإن للمسلم اسمين، اسم الصين واسم الدين كما يقولون، الأول هو الرسمي المدون في شهادة الميلاد والأوراق والوثائق الرسمية، وهو عادة ذو منطوق وتركيب صيني في شكله على الأقل، أما اسم الدين فهو أحد الأسماء المتداولة في مجتمعات المسلمين: محمد أو محمود أو فاطمة أو خديجة.

وتقليديًا فإن الطفل يُختن بعد أربع سنوات في إحدى مستشفيات المدن، وفي القرى يقوم به واحد من ذوي الخبرة، وتعطي الأم طفلها بعد الختان بيضًا بالسكر. وفي سن الخامسة يُلقن الطفل الشهادتين وفاتحة الكتاب، ومثل هذه الأعمال يقوم بها الوالدان، ولكن الإمام يظهر في مرحلة تعليم الطفل وتحفيظه القرآن الكريم، وهو ماكان يتم في المسجد قبل قيام الثورة الثقافية، وتقام له احتفالات التهنئة والتكريم.

خطاط صيني يكتب باللغة العربية على جدران أحد المساجد

الزواج

للإمام دور كبير في زواج المسلم أو المسلمة. والقاعدة أن المسلم يتزوج فتاة تنتمي إلى قوميته وليس دينه فقط، ويسود نظام الزواج المدني طبقًا للقوانين الصينية، ولكن المسلمين يصرون على أن يعقدوا عقدًا شرعيًا يتولاه الإمام بنفسه، ويسمونه في شمال غرب الصين "الإجابة"، لأن العروس تجيب فيه بالموافقة على الزواج. وعادة بعد أن يتم التسجيل في مكتب الزواج، يقيم الأهل احتفالاً في المنزل، يُدعى إليه الأقارب والأصدقاء ويتصدره الإمام، الذي يبدأ بقراءة آيات من القرآن الكريم، ويقف ليلقي "خطبة النكاح"، وهي عبارة عن موعظة للزوجين اللذين يتزوجان على سنة الله ورسوله. وبعد "خطبة النكاح"، يتوجه الإمام إلى العروس، ويسألها هل قبلت؟ عندئذ تجيب بكلمة "كردم"، وهي كلمة فارسية تعني القبول.

أما مبلغ المهر فهو لايزيد عن كونه مبلغًا رمزيًا، وقد أصبح الآن يتراوح بين ٢و٥ يوانات (الدولارالأمريكي يوازي يوانًا وربع).

وفي الماضي كان العريس يهدي زوجته خاتمًا ذهبيًا، ولكنه الآن يهديها ساعة، وتتم حفلات الزواج بهدوء في بيوت المسلمين



في مختلف أنحاء الصين، باستثناء الأطراف، وبخاصة الشمال الغربي حيث لاتختلف حفلات الزواج عن مثيلتها في أي بلد شرقي من حيث الصخب والطعام والغناء والرقص.

الإمام والوفاة

للإمام في الصين دورٌ هامٌ في الوفاة كذلك. فالغسل يتم تحت إشرافه ويتولاه خادم المسجد الذي يأخذ بعضًا من ملابس المتوفى كجزء من أجرته، وفي الجنوب توضع على رأس الميت عمامة بيضاء كُتب عليها عبارة «لا إله إلا الله»، وفي الشمال تُكتب العبارة على قبره، ويعطر كفنه بماء الورد، ثم يوضع في نعش مصنوع من خشب الجوز أو الزان المطلي باللون الأصفر الغامق.

وعند الخروج للجنازة يقف الإمام في الصدارة، ويعصب أهل المتوفى رؤوسهم بقطع قماش بيضاء، ويوضع الجثمان في قبر مستطيل الشكل، وقد ينثر داخله مسكٌ أو عنبرٌ، ويُسجّى جسد المتوفى بحيث يكون الرأس متجهًا إلى الشمال والقدمان إلى الجنوب، والوجه مقابل للكعبة المشرفة.

احتفالات الأعياد

تُقام احتفالات الأعياد في أفنية المساجد، ويحتفل مسلمو الجنوب (يونان) بعيد الفطر أكبر من احتفالهم بعيد الأضحى، في حين أن مسلمي الشمال يهتمون أكثر باحتفالات عيد الأضحى، وتشمل احتفالات العيدين الغناء والرقص والولائم.

ويقضي التقليد في الشمال أن يذبح كل سبعة من الرجال والنساء بقرة، ويذبح كل بالغ ماعزًا يطلقون عليها "قربة"، ويجرى ذبح الأبقار والماعز في فناء المسجد بعيدًا عن المكان المخصص للصلاة.

ويُحتفل بعيد الفطر في العادة يومًا واحدًا، أما عيد الأضحى فيحتفلون به مدة ثلاثة أيام (العطلة الرسمية يوم واحد)، وتضع ربات البيوت الكعك والحلوى ويتبادلونه فيما بينهم. وفي ليلة القدر لاينامون الليل.

٤٠٫٠٠٠ مسجد

في الصين أكثر من أربعين ألف مسجد، تشكل مركز الحياة الدينية للمسلمين، وهناك مساجد مخصصة للسيدات خاصة في المناطق التي تسكنها قومية "هوي" المسلمة.

بالإضافة إلى مسجد شيان الذي يعتبر تحفة أثرية، فيمثل مسجد "دونفسي" قيمة تاريخية كبيرة، فهو يتسع لنحو (٧٠٠) شخص، وهو مسجد أثري في بكين، له صحن كبير مكشوف، أعمدته من الخشب المنسق وفق الطراز الصيني، وقد أعيد ترميمه عام ١٩٧٦م بعد أن أُغلق طوال الثورة الثقافية، وأصبح المسجد الرسمي في الدولة، حيث يؤدي فيه السفراء العرب والمسلمون وكبار الزوار صلواتهم خاصة في الأعياد، وخلال شهر رمضان المعظم وفي المناسبات الدينية.

ومن المساجد الأثرية كذلك مسجد (ينوجيه) وهو مزخرف بالخطوط المذهبة والرسوم الزاهية، وقد ذكر المسؤولون الصينيون أنهم رصدوا نحو ٢٠٠ مليون دولار لترميمه وإصلاحه باعتباره أثرًا وطنيًا، ولايخفى أن المسؤولين يهتمون بترميم المساجد والمباني الخاصة بالعبادة الوثنية لقيمها التاريخية والسياحية والأثرية ليس إلا.

ومن أشهر مساجد الصين كلها، مسجد "هواجيو" الذي بُني في عهد أسرة تانغ (٦١٨ - ٩٠٧م) ومساحته الكلية ١٢ ألف متر مربع، ويقع البناء على مساحة ٤٠٠٠ متر، وتتسع المساحة المخصصة للصلاة بداخل المسجد لأكثر من ١٠٠٠ شخص.



في مسجد صغير في مقاطعة هيوان جلس جمع من المسلمين يتلقون تعاليم دينهم

أما أقدم مسجد فهو مسجد "هوايشنغ"، ويُطلق عليه اسم مسجد السوق.. وهو أول مسجد أقيم في الصين بعد دخول الإسلام فيها، ويُعتبر مسجد برج النور أغرب المساجد، وهو بناء مستدير الشكل من الطوب

بارتفاع ٣٦ر٣ متر، وعلى قمته منارة لإرشاد السفن.

والمساجد الصينية بوجه عام لها طابع خاص، هو الطابع الصيني، فهي لاتشبه مساجدنا، بل هي أقرب إلى القصور الصينية التقليدية. تُكتب النقوش الإسلامية فيها بالعربية والفارسية والصينية، ويتوسط المنبر فناء المسجد، ويعلو قليلاً عن الأرض، والمساجد تحيطها الحدائق من كل جانب، ولاتوجد لها مآذن عالية.

متاحف المساجد

أقام المسلمون في كل مسجد من مساجد الصين متحفًا للآثار الإسلامية، ومعظم هذه الآثار مكتوبة أو منقوشة على الأحجار باللغة العربية، حيث توجد كثير من صفحات المصحف الشريف منقوشة على أحجار كبيرة في المساجد. ويقول أحد الأئمة إن القرآن الكريم في الصين كان في الماضي مكتوبًا كله على أحجار كبيرة، ولذا فإن معظمها موزع الآن على المساجد.

حلم الحج

الإسلام قوي في قلوب مسلمي الصين، ولولا ذلك لما استطاعوا أن يصمدوا وسط موجة الإلحاد العارمة التي كانت تجتاح الصين منذ سنوات عديدة.

ويكفي أن نعلم أنه إذا كانت المرأة الصينية لاتجد حرجًا في التبرج، فإن المرأة المسلمة هي الوحيدة التي تلتزم نفسها بالاحتشام وتغطية رأسها، حتى وهي جالسة في بيتها وسط أهلها، ثم إنها تصلي جماعة في المسجد خلف الصفوف.

وعندما تسأل أي مسلم أو مسلمة عن أمنيته يقول: "إنني أحلم بأداء فريضة الحج".. وأداء فريضة الحج أو مجرد زيارة الأراضي المقدسة هو حلم كل مسلم صيني.

ويتمثل السبب الرئيس في عقبات زيارة الأراضي المقدسة أو الحج، في صعوبة حصول الفرد المسلم على "العملة الصعبة" التي تمكنه من السفر لأداء الحج.. فالعملة الصعبة كلها في يد الدولة، ولايمكن لأي مواطن صيني مسلم أو غير مسلم أن يمسك في يده دولارًا واحدًا؛ لأنها جريمة يُعاقب عليها القانون.

ولكن المسؤولين في مكتب السياحة الصيني الدولي يقولون: "لاتوجد عقبات أمام المسلمين في أداء فريضة الحج بدليل أن الدولة تشكل بعثة من المسلمين سنويًا لأداء فريضة الحج، وهي تسافر سنويًا إلى الأراضي المقدسة عبر باكستان"، ولكن يبدو أنها بعثة محدودة ولاتمثل شيئًا بالنسبة للملايين الذين يحلمون بأداء فريضة الحج.

.. وبعد

يكاد يُجمع كُتّاب غرب أوروبا على أن الصين حقل خصب للتعاليم الإسلامية، ولايحد تقدمه فيها إلا جهل بعض مسلمي الصين بقواعد دينهم وصعوبة اللغة العربية بالنسبة للصينيين، وأنه وإن كان المسلمون في الصين قد شيدوا عددًا من المدارس الابتدائية والثانوية يتلقى فيها طلبتها قواعد الدين الإسلامي - ولاسيما بعد عام ١٩٣٧م -؛ إلا أنها قاصرة جدًا عن الوفاء بحاجاتهم الثقافية الإسلامية.

وحتى الجميعات الإسلامية الموجودة مثل جمعية مرشد المواطنين الصينيين، والجمعية العامة لتقدم الدين الإسلامي، والاتحاد الوطني لمسلمي الصين ورئيسه السيد كلاوو، فإن نشاطها ضعيف جدًا إذا قورن بنشاط الإرساليات المسيحية في الصين.

المصادر:

١- الإسلام والمسلمون في الصين، د.عبدالودود شلبي.
٢- العربي، العدد ٢٦٥، ديسمبر ١٩٨٠م.
٣- الإسلام في الصين، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، فهمي هويدي.
٤- لواء الإسلام، العدد السابع من السنة الثانية، غرة ربيع الأول ١٣٦٨هـ/ أول يناير ١٩٤٩م.
٥- الأمة، العدد السادس والتسعون، السنة التاسعة، صفر ١٤٠٦هـ/ نوفمبر ١٩٨٥م.
٦- العربي، العدد ٢٦٤، نوفمبر ١٩٨٠م.
٧- الرابطة، العدد ٣٤٩، رمضان - شوال ١٤١٤هـ/ مارس - أبريل ١٩٩٤م.
٨- الوعي الإسلامي، العدد ٢٦٢ شوال ١٤٠٦هـ/ يونيه ١٩٨٦م.
٩- العربي، العدد ٢٢٦، يناير ١٩٨١م.
١٠- المسلمون في الصين: معالم وخطوط، محمود شاكر.

الاستقبالات الدبلوماسية في بلاطات الخلفاء

(عرف العرب في جاهليتم ـ كما في إسلامهم ـ فنون الاتصال الدبلوماسي بجيرانهم من الفرس والروم، وتبادلوا معهم الرسل والوفود في أزمان الحرب وأزمان السلام. ومع قيام الامبراطورية الإسلامية ازدادت أهمية العرب الدولية، وتقاطرت عليهم الوفود والسفارات من كل أنحاء العالم القديم. ونشأ عن ذلك تقاليد مراسمية لاستقبال الدبلوماسيين الزائرين هي موضوع هذا المقال).



محمد المكي إبراهيم

مارست الدبلوماسية القديمة مراسم استقبال السفراء كوسيلة لإظهار قوة الدولة وسطوتها وثرائها أمام سفير الدولة الأجنبية، وتحميله عن طريق ذلك رسالة إنذار إلى من أوفده كي لايفكر باستعمال القوة العسكرية ضد دولتهم. فكان استقبال الرسل نوعا من الاحتفالات (الكرنفالات) العامة التي يشارك فيها عسكر الدولة وموظفوها وشعبها في عرض كبير، الغرض منه إدخال هيبة بلادهم في قلب رسول الأعداء، ولأن ذلك الاستقبال الضخم يحتاج إلى إعداد وإخراج، فقد كان مألوفًا احتباس السفير الأجنبي خارج العاصمة حتى يتم إعدادها للاستقبال الفخم. وبعد وصول السفير إلى العاصمة المقصودة يؤخذ لمقابلة الوزير أو الكاتب الذي يجري معه معظم عملية التفاوض، وفيما بعد، يحدَّد له موعدا للقاء الملك، هو في أغلب الظن لقاء رسمي شكلي يقوم فيه السفير الأجنبي بتسليم الرسالة المكتوبة التي يحملها، والهدايا التي كلف بنقلها ثم من بعد تلك المراسم، يقوم صاحب البلاط بتسليم رسالته الجوابية إلى السفير لينقلها إلى مليك بلاده.

هذه، وبشكل تخطيطي، الطريقة التي كان يتم بها استقبال السفراء الأجانب في بلاطات الخلفاء المسلمين، إلا أن الغنى الحقيقي لتلك المناسبات يكمن في تفاصيلها الأسطورية من حيث الحشد الرائع والأبهة الخيالية واستعراض التحف والطرف ونادر المقتنيات، إظهارًا لعظمة الدولة ومابلغت من القوة والثراء.

ينقل ابن الفراء عن كتاب «تصفية الأذهان» هذا الخبر الذي حكاه عن نفسه وزير عربي: "حكى الفضل بن مروان وزير المعتصم قال: كانت الرسل من جهة الملوك إذا جاءت بالهدايا جعل اختلافهم إليّ، فتكون المؤامرات فيما يجري معهم من ديواني"(١).

يريد بذلك أنه كان موكولا إليه استقبال الرسل والتفاوض معهم، فالمؤامرات مقصود بها النظر في الأمور وليس المؤامرات بمعنى المكائد والدسائس. وفي خبر آخر عن محمد بن عبدالملك الزيات الذي خدم ثلاثة من الخلفاء في منصب الوزير يقول ابن الفراء(٢): "فلما وصلوا ـ أي سفراء الروم ـ أخذ محمد بن عبدالملك الزيات الكتب وتوصل إلى علم ماتضمنت، وردها بخواتيمها وقال: أمير المؤمنين مشغول عنها".

وليس واضحًا من هذا الخبر إذا كان الوزير قد توصل إلى علم محتويات الرسالة بسؤال الرسل وإفادتهم له عن ذلك، أم توصل إلى ذلك بوسائل الجاسوسية، ولكنه في كل الأحوال اطلع على مايطلبه الملك الرومي وقرر التلكؤ في الاستجابة له معتذرا بمشغوليات أمير المؤمنين. وربما كان الحق مع ابن الزيات في كل ذلك فقد دارت الحرب بين العرب والروم قبل ذلك بقليل، وقاد الخليفة المعتصم جيوشه بنفسه إلى غزوة عمورية الشهيرة، وبعد عودته منها وصلته هذه الرسالة، فترك لوزيره أن يتحسس ـ لكي لانضع نقطة تحت الحاء ـ عن محتواها ومناسبتها، فلما أستيقنا ذلك اتفقا على عدم مقابلة الرسول، وكانتْ رسالة الملك الرومي تقول: "إن الملوك لم تزل يغزو بعضها بعضا، ويعلو بعضها على بعض. وربما أتيت من وزراء السوء. وقد كان بيننا بزبطرة ما كان وتبينت وجه الخطأ فيه. وقد كلْتَ لي بالصاع أصوعا فيما فعلت بعمورية، وأنا أسألك بالطينة المباركة التي أنت منها أن تنعم علي

الاستقبالات الدبلوماسية في بلاطات الخلفاء

بإطلاق بطارقتي - قوادي - فإنهم مائة وخمسون بطريقا، وأنا أفتدي كل واحد منهم بمائة من المسلمين".

ولكن أمام ذلك العرض المغري، كان من واجب دبلوماسية المعتصم أن تبتلع غضبها(٣) وأن تستقبل الرسول. وتكملة الخبر على هذا النحو: "فكانت الهدية موقوفة ستة أشهر، ثم أذن للرسول فدخل على الملك، فلما رآه المعتصم قال: أرانا قد أضررنا بك لطول مقامك، قال: كلا، إن طول المقام أوجب لي الذمام. ولم نزل نسمع من حكمائنا أن إبطاء الرسول يؤذن بالنجاح. وماضرني مُقام قريب منك، وأشهدني نعم الله عندك. فأعجب المعتصم بما ترجم له من كلام الرسول وقبل هديته".

وقد ظل هذا التدخل الوزاري بين الملوك والسفراء أمرًا مرعيا في الدبلوماسية المعاصرة، واستثناءاته القليلة تحدث بحق الوفود الزائرة والموفدين الشخصيين غير المقيمين. وتفيدنا مصادرنا العربية أن استقبال السفراء في بلاطات الخلفاء كانت من مراسم الأبهة العظيمة، وفي (تاريخ بغداد) لابن عساكر وصف مطول لواحد من تلك الاستقبالات أعده الخليفة المقتدر لرسل ملك الروم. فقد شق الرسل مدينة بغداد عبر شوارع مكتظة بالجند والعامة والنظارة.. وسار الرسول ومن معه من الموكب إلى أن وصلوا إلى الدار، ودخل الرسول فمر به على دار نصر القشوري الحاجب ورأى خلقا كثيرًا ومنظرا عظيما فظن أنه الخليفة، وتداخلته له هيبة وروعة، حتى قيل له إنه الحاجب. وحمل بعد ذلك إلى الدار التي كانت برسم الوزير وفيها مجلسه، فرأى أكثر مما رأى عند نصر الحاجب ولم يشك أنه الخليفة حتى قيل له هذا الوزير" وسار الوفد مرة أخرى بين صفين من الجنود بلغ عددهم مائة وستين ألفا، ثم سار في نفق تحت الأرض إلى أن وصل عند الخليفة وسلمه الرسالة. إلا أن متاعب السفير الرومي لم تنته بعد، فقد طيف به في أنحاء القصر، وليس فيه أحد من الجند وإنما فيه الخدم والحجاب والغلمان. وكان عدد الخدم إذ ذاك سبعة آلاف خادم، قد جعلوا على سطوح الدار والعلالي، وفتحت الخزائن والآلات فيها مرتبة كما يفعل بخزائن العرائس.. وأدخل رسل صاحب الروم من دهليز باب العامة الأعظم إلى الدار المعروفة بباب الخيل، وكان فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهبا وفضة بغير أغشية، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها جلال الديباج بالبراقع الطوال، وكل فرس في يدي شاكري بالبزة الجميلة، ثم أدخلوا من هذه الدار إلى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش، وكان في هذه الدار من أصناف الوحش التي أخرجت إليها الحير قطعان تقرب من الناس وتتشممهم وتأكل من أيديهم، ثم أخرجوا إلى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشي، ثم أخرجوا إلى دار فيها مائة سبع كل سبع منها في يد سبّاع، ثم أخرجوا إلى الجوسق المحدث وهي دار بين بساتين، ثم أخرجوا من هذه الدار إلى دار الشجرة، ثم أدخلوا إلى القصر المعروف بالفردوس، فلطول المشي بهم جلسوا واستراحوا في سبعة مواضع واستسقوا الماء فسقوا".

يُذكّر هذا الاستقبال الطويل بقصة عصرية تروى عن سفير دولة أوروبية متقدم في السن طاف به رجال المراسم (البروتوكول) الشاهنشاهي في أبهاء القصر الامبراطوري كثيرا قبل أن يفضوا به إلى قاعة الاستقبالات الكبرى ليقدم أوراق اعتماده للشاه. ووصل السفير المسن إلى القاعة مبهور الأنفاس، وكان أول مافعله أن سقط مُغمى عليه، وراج يومئذ أنه أغمي عليه استهابة للشاه. وفي الرواية التي بين أيدينا يقول صاحب تاريخ بغداد أن الرسولين كانا شابا وشيخا، فالشاب هو الرسول المتقدم والشيخ الترجمان. وقد كان ملك الروم قد أحسن صنعا بذلك، فمثل ذلك الطواف يمكن أن يقضي على أي سفير، وربما أيضاً على أي ترجمان.

أما حادثة الإغماء فقد وقعت لأحد سفراء الروم لما رأى الجامع الأموي بدمشق، وكان ذلك على عهد الأمويين. فقد وقع مغشيًا عليه وهو يشاهد عمارة المسجد وزيناته، فسئل عن ذلك عند إفاقته فقال: "إنا معشر أهل رومية نتحدث أن بقاء العرب قليل، فلما رأيت مابنوا علمت أن لهم مدة سيبقونها فلذلك أصابني ماأصابني".

ورغم هذا العرض الباهر للقوة والثراء الذي يقام على شرف السفير، فإن شخص السفير كان محل ريبة ومراقبة. فكما رأينا كان السفير يوضع في مايشبه الحظر الصحي في دار للضيافة لايتردد عليها أحد سوى موظفي الدولة المأذون لهم، وذلك حتى لايتسنى له الاتصال بالجواسيس ونقلة الأخبار من جهة، ومن الجهة الثانية حتى لايرى المدينة قبل تزيينها وتحسينها. وفي الفقه الإسلامي استحجاز الفقهاء احتباس السفير وعدم السماح له بالسفر إذا اطلع على عورة من عورات المسلمين من شأنها أن تضر بهم لو وصلت إلى مسامع الأعداء. ويرى الفقهاء أن لايوضع السفير في تلك الحالة في السجن، وإنما يحتبس في مكان إقامته العادية، وإذا أراد السفير أن يقسم على عدم البوح بما رأى فإنهم لا يقبلون ذلك منه. وغالب الظن أنهم يريدون بذلك الرسول العسكري(٤) في حالة القتال الدائر، والذي يدخل معسكر الجيش ليتفاوض على الهدنة أو السلام، ولايريدون به السفير المدني القادم إلى عاصمة الخلافة في أيام السلم، ففي المدن ليس من عورة عسكرية يمكن أن يطلع عليها، وفي الروايات التي بين أيدينا أن المنصور لما اكتمل له بناء بغداد، قدم عليه بطريق من بطارقة الروم، فأمر وزيره الربيع أن يطوف به في المدينة وماحولها ليرى العمران والبناء، فطاف به الربيع فلما انصرف قال: كيف رأيت مدينتي؟ قال: رأيت بناء حسنا إلا أني رأيت أعداءك معك في مدينتك. قال: ومن هم؟ قال: السوقة. فلما خرج البطريق أمر بإخراج السوقة. فههنا سفير أجنبي يطلع على عورة من عورات عاصمة المسلمين فيحدث عنها خليفة المسلمين بدلا من إسرارها إلى امبراطوره الذي أوفده. ولعلنا في هذا الزمان لانرى مارأى المنصور ونصيحَه الرومي، إذ إنه من منعة المدينة العربية أن يسكن داخلها أبناء البلد الفقراء، وأن لايطردوا إلى خارجها على غرار ماكانت تفعل الروم.

وكقاعدة عامة لم يكن السفير الأجنبي شخصا يوثق به أو يجوز التباسط معه في الحديث، ومن

المستحسن جداً أن لايطلع على حقائق الأوضاع في المملكة، حتى تلك الأوضاع التي لاعلاقة لها بالشؤون العسكرية في البلاد. وجرت العادة أن يتحمل الرسول ببعض الهدايا القيمة لمستقبليه وذلك أيضًا من باب إظهار ثراء المملكة التي أوفدته، ولأن الأمر كذلك فإن الدولة المستقبلة كانت تزوده بهدايا مماثلة يحملها إلى مليكه. ويبدو أن هدايا الروم كانت تذكر في صلب الرسالة الموجهة إلى ملك المسلمين، فقد جاء في رسالة تيوفيل إلى الخليفة المعتصم جرد للهدايا التي أرسلها مع سفيره، وكانت أربعين ثوبا من الديباج المذهب طول كل ثوب منها أربعون ذراعا في عرض عشرين. وبعد غزوه لبلاد الروم تلقى هارون الرشيد التماسا من نقفور بإطلاق سراح سيدة معينة أخذها المسلمون في السبايا، فأجابه الرشيد إلى طلبه وبعث السيدة المطلوبة وبعث معها العطور والتمور والزبيب والترياق. وبعد أن تسلم نقفور السيدة والهدايا بعث مع رسول الرشيد (وقر - حمل - دراهم إسلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين ألف درهم، ومائة ثوب ديباج ومائتي ثوب بزيون واثني عشر بازيا وأربعة من كلاب الصيد وثلاثة براذين) ووردت الخليفة الراضي هدية رومية وجاء ذكرها - كما هي العادة - في الخطاب الذي حمله السفير وكانت (أقداحا وجرار فضة، وجواهر وقضبان فضة وسفوراً وثياب سقلاطون ونسيجًا ومناديل).

وبينما كان الخلفاء والأباطرة يسعون لإدخال هيبتهم بعضهم على قلوب بعض، كان تبادل المصالح قائمًا على قدم وساق بين الشعوب التي يحكمونها، فالتجارة رائجة بين المملكتين، والتبادل العلمي مستمر، ومن الحين إلى الآخر يستعصي ذلك على العلماء فيطلبون وساطة الحاكم يستعينون به على ماصعب من الأمر أو يوعزون إليه بالتدخل الرسمي ليذلل لهم ماصعب عليهم من وجوه التعاون العلمي. فمن ذلك استنجاد العلماء بالمأمون ليكاتب ملك الروم بشأن بعض الكتب اليونانية القديمة التي كانوا يرغبون في الحصول عليها وترجمتها إلى العربية. ومن ذلك أيضًا أن مهندسا يونانيا وقع أسيرا في أيدي المسلمين، فجعل المهندسون العرب يناظرونه ويناقشونه، فوجدوه على درجة عالية من العلم والمعرفة. ويبدو أنه أخبرهم أنه تلقى علم الهندسة على يدي أستاذ يدعى (ليو) كان لايزال يحيا ببلاد الروم في حال من الفقر والاحتياج، وليس له من شهرة بين أهله من الروم، وأقنع علماء العرب خليفتهم بأن يبعث في طلب ذلك العالم الجليل ففعل، وبعث إليه رسالة مع تلميذه الأسير، ولكن هذا لم يبعث الرسالة إلى المعنيّ بها مباشرة وإنما راح وعرضها على أحد موظفي البلاط الامبراطوري، فأبلغها هذا بدوره إلى الامبراطور الذي حال دون سفر العالم الرياضي إلى بغداد وقام بتعيينه معلما في إحدى كنائس القسطنطينية. وظل المأمون يحاول استقدام ليو، ويراسله من الحين للآخر عارضا عليه بعض المسائل الرياضية فيقوم بحلها، ثم مضى الخليفة أبعد من ذلك وطلب من الامبراطور أن يسمح للرجل بزيارة قصيرة إلى بغداد ومقابل ذلك عرض على الامبراطور صلحا طويل الأمد وألفَيْ قطعة ذهبية ولكن الامبراطور رفض كل ذلك لسبب لاندريه.

وفي عهد الخليفة الواثق، وتحت رعايته الشخصية، أوفد محمد بن موسى المنجم من سامراء إلى بلاد الروم ليدرس موضع أصحاب الكهف الذين وردت قصتهم في القرآن الكريم. ويبدو أن هذه السفارة العلمية قد صادفت النجاح المطلوب، فقد وصل العالم العربي إلى الموضع المحدد وقام بفحصه فحصا علميا وكتب عن ذلك تقريرا ينبيء عن شكه في ماينسبه الروم إلى ذلك المكان من كونه الكهف الذي لجأ إليه أولئك الفتية المؤمنون: "قال محمد بن موسى: وصلنا إلى بلد الروم فإذا هو جبل صغير قدر أسفله أقل من ألف ذراع، وله سرب من وجه الأرض فتدخل السرب فتمر في خسف من الأرض مقداره ثلاثمائة خطوة فيخرجك إلى رواق في الجبل على أساطين منقورة، وفيه عدة أبيات منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة، عليها باب حجارة فيه الموتى ورجل موكل بهم يحفظهم ومعه خصيان، وإذا هو يحيدنا عن أن نراهم ونفتشهم ويزعم أنه لايأمن أن يصيب من التمس ذلك آفة في بدنه، يريد التمويه ليدوم كسبه، فقلت له: دعني أدخل إليهم وأنت بريء، فصعدت بمشقة غليظة مع غلام من غلماني فنظرت إليهم وإذا هم في مسوح من شعر تتفتت في اليد وإذا أجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها، وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم. غير أني أمررت يدي على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعره وقوة ثيابه، ثم أحضرنا المتوكل بهم طعاما وسألنا أن نأكل منه، فلما ذقنا طعامه أنكرنا أنفسنا وتهوّعنا وكأن الخبيث أراد قتلنا أو قتل بعضنا ليصح له ماكان يموه به عند الملك أنه فعل بنا ذلك الفعل أصحاب الرقيم".

ويبدو أن الروم من جانبهم كانت تستهويهم بعض مظاهر الحضارة العربية فيرسلون رسلهم في طلبها، فمن ذلك مارواه صاحب كتاب الأغاني من أن رسولا لملك الروم قدم على الرشيد فسأله عن الشاعر أبي العتاهية وأنشده شيئًا من شعره، وكان الرسول يحسن العربية فمضى إلى ملك الروم وذكر له أبا العتاهية، فكتب إلى الرشيد يسأله أن يوجه إليه بأبي العتاهية ويأخذ رهائن من أراد من الروم. فكلم الرشيد أبا العتاهية في ذلك فاستعفى منه وأباه.

وبالمثل كانت العرب تستحسن بعض ما بأيدي الروم من الصنائع والفنون ويرسل الخلفاء في طلبها إلى الروم. فقد كان الرخام والمرمر والفسيفساء مما يتوفر بأرض الروم ويتقن عمله صناعها، ولذلك لم يتردد المسلمون في طلبه منهم للاستعانة به في تزيين منشآتهم الكبرى مثل المسجد الأموي بدمشق، وقصر الزهراء بالأندلس. فقد أرسل الوليد بن عبدالملك إلى ملك الروم في القرن الأول الهجري يطلب منه إرسال بعض الصناع لتزيين مساجد دمشق والمدينة المنورة وبيت المقدس بالفسيفساء. وفي القرن العاشر الميلادي كتب الخليفة الأندلسي الحكم المستنصر إلى امبراطور الروم يرجوه أن يرسل له أحد صناع الفسيفساء لتزيين مسجد قرطبة، وقد اصطحب رسل الخليفة عند رجوعهم إلى الأندلس خبيرًا بأعمال الفسيفساء من القسطنطينية وكمية من مكعباتها أرسلها الامبراطور هدية منه. وفيما بعد أرسل امبراطور آخر مائة وأربعين عمودًا من الرخام للخليفة الأندلسي عبدالرحمن الثالث الذي كان مشتغلا ببناء مدينة الزهراء.

ويبدو أن الرسل والسفراء لم يكونوا خارج نطاق هذه المهاداة بل كانوا يتسلمون هدايا نقدية من مليك البلد المستقبل تكون أقل شأنًا من الهدايا الموجهة معهم إلى مرسليهم. وليس بين أيدينا أخبار وافية عن

كل ذلك، ولكن حدوثه ليس خروجا على التقاليد الإسلامية إذ إن الرسول الكريم أهدى للرسل والوفود التي كانت تفد عليه في المدينة المنورة، مما يجعل ذلك التقليد بابا من أبواب السنة الفعلية. وفي العصر الحديث صار الكرم العربي في مهاداة السفراء موضع جدل في أوساط الغربيين، وفي بعض الأحوال موضع تندر منهم وذلك بسبب الإفراط في حجم الهدية وقيمتها، فتتجاوز الحد الرمزي المقبول وتصبح أشبه بالمنحة المالية. وكان ذلك يحدث في ماضينا القريب، حيث كانت الهدايا العربية تشمل السيارات النادرة والمجوهرات الثمينة التي لايكون بوسع السفراء الرد عليها بهدية تقاربها في القيمة، فيخرج بها ذلك من إطار الهدية إلى إطار المنحة المالية المغلفة أو الرديئة التغليف. وفي حق ذلك أصدر الغربيون قوانين منها مايطالب بضم الهدية إلى الخزانة العامة لبلادهم، ومنها ما يحجر على السفير في قبولها. والواقع أن الكرم العربي يخلق للسفراء الغربيين أكثر من معضلة قيمية، فمن جهة يرى السفير أن عقد العمل بينه وبين حكومته ينص له على مكافأة مالية محددة بقوانين الخدمة الدبلوماسية، ولايرى لنفسه حقا في الحصول على ماهو أكثر من ذلك بصفة هدايا أو منح. ومن جهة ثانية لايرى لنفسه حقا في استلام أي جزاء مادي من حكومة أجنبية لأن عقد عمله مبرم مع حكومة بلاده دون غيرها من الحكومات، ولذلك لايقبل المكافأة من غيرها من الدول والحكومات. ومن جهة مهنية يجد السفير في قبول هدية كبيرة من بلد أجنبي تهديدا لمصداقيته المهنية في مقبل الأيام فيتحرز لذلك إما برفضها أو بالتشاور حولها مع حكومة بلاده، فإذا أشارت عليه بالقبول صار وزر الهدية عليها.

إلا أن كل ذلك يعتبر أثرا من آثار الماضي، فقد تغيرت الدنيا حتى لم يعد لذلك النوع من الهدايا من وجود، وثار حولها من اللغط ماجعل رؤساء المراسم العرب لايفكرون ـ مجرد التفكير ـ في التوصية بهدايا من ذلك النوع. ومع ذلك تظل الهدايا الوداعية العربية التي تقدم للسفراء الأجانب من أقيم الهدايا في العالم وأكثرها ذوقا وأعزها على نفوس من توجه إليهم.

وفي العرف الدبلوماسي العام تعتبر أرقى الهدايا التي تمنح للسفير هي وسام الدولة المستقبلة الذي تخصصه للسفراء وتمنحه ـ حسب قوانينها ـ للسفراء الذين أدوا خدمات جليلة للعلاقات الدولية بين البلدين، أو الذين أقاموا إقامة طويلة في البلاد. ويتسلم السفير ذلك الوسام عند انتهاء فترة عمله في البلد المعنيّ وبمناسبة وداعه للملك أو الرئيس، ومع الوسام تأتي هدية رمزية تذكارية من المستحسن أن تقدم هي نفسها لكل سفير مغادر عند انتهاء خدمته وسواء حظي أو لم يحظ بوسام، وذلك إظهارًا لمبدأ تساوي الدول وعدم التفرقة بين ممثليها. وماعدا مناسبة الوداع الرسمية فإن مهاداة السفراء أمر مستقبح إلا إذا شملت كل السلك الدبلوماسي في البلد المعني ودون تفرقة أو تمييز. ففي بعض البلاد وفي مواسم الفاكهة الطيبة يفاجأ السفراء والقائمون بالأعمال بصناديق من فاكهة الموسم تصل إلى منازلهم مصحوبة ببطاقة تحمل تحيات رئاسة الجمهورية، وهي بطاقة لايجوز الرد عليها ببطاقة شكر، ولكن إذا أتيح للسفراء مقابلة الرئيس في إحدى المناسبات فلهم أو لعميدهم أن يثرثر عنها قليلا. وبالمثل فإنه لايحق للسفير أن يهادي رئيس الدولة المعتمد لديها لأن ذلك امتياز لرئيس بلاده وليس من حقه شخصيا، وهنا يوجب عليه أن يقدم الهدية باسم رئيس حكومته. وربما تكون هنالك استثناءات قليلة في حق السفير، كأن يقدم للرئيس هدية من صنعه هو أو من صنع عائلته المباشرة، وربما اقتصر ذلك على لوحة فنية رسمها أو كتاب قام بتأليفه أو زهر نادر من إنتاج حديقته، إن كان من كبار الحدائقيين وأشباه ذلك كثير ولايحكمه إلا الذوق العام وتلطف الرئيس بإبداء الاهتمام بشأن من تلك الشؤون فيعتبر ذلك إذنا بالمهاداة.

وفي المعسكر الاشتراكي السابق كانت حفلات الصيد التي يدعى إليها رؤساء البعثات الدبلوماسية تعادل هدية من أغلى الهدايا، ففي اليوم المحدد يخرج الجميع إلى غابة تكثر فيها الطريدة المعنية، ومع كل واحد منهم مرافق ودليل، ويكون في أطراف الغابة من يتحرش بالصيد ويوجهه جهة الصائدين ليطلقوا عليه النار متى رأوه. وفي نهاية النزهة يجري انتخاب أمير الصيد من بين أكثر الصائدين حظا وتوفيقا، ولكن تلك الإمارة كانت غالبا ماتذهب إلى سفراء الدول الصديقة والحليفة وكأنما بسابق تدبير أو بصدفة مضمونة الحدوث.

هكذا نرى أن المراسم التي وضعها العرب القدماء لاستقبال السفراء ومهاداة الملوك لاتختلف كثيرا عن الممارسات (البروتوكولية) التي تسود دبلوماسية اليوم. ويمكننا أن نلاحظ ذلك في مراسم استقبال السفراء وتسلم أوراق اعتمادهم، إذ تكتسي المناسبة بطابع عسكري يتمثل في تفتيش حرس الشرف الذي تشترك فيه نخبة مختارة من العسكريين يتوخى فيهم فراهة الأجسام، وفي قائدهم علو نبرة الصوت. ولاشك أن ذلك أثر من آثار الدبلوماسية التراثية التي كانت تتخذ من تلك المناسبة ذريعة لإظهار القوة والثراء. وأصول التهادي العربية تتفوق على الدبلوماسية الحديثة بميلها الواضح إلى الكرم وطلاقة اليد، وكل ذلك تراث عظيم يحق للدبلوماسي العربي أن يفتخر به ويعتز.

الهوامش:

(١) ابن الفراء، ص ٦٣.

(٢) نفسه، ص ٦٨ والخلفاء المقصودون هم المعتصم والواثق والمتوكل.

(٣) وأصل ذلك الغضب أن الروم غزت المسلمين وفتكت بالمدنيين فتكا ذريعا وسبت آلافا من نسائهم، فغضب المعتصم للمرأة الهاشمية التي استغاثت به صائحة: وامعتصماه، وأثناء القتال الذي دار بعد ذلك بين الفريقين كتب الملك الرومي ـ باسيل بن أليون ـ إلى المعتصم يسفه عليه ويتوعده ويتهدده، فأمر المعتصم بالرد عليه ولكن أيّا من كُتّابه لم يفلح في التعبير عما يحتمل في صدره من الغضب، فتولى ذلك بنفسه وأملى عليهم هذه الرسالة القصيرة: "بسم الله الرحمن الرحيم.. أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ماترى لا ماتسمع به، وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار".

(٤) جاء في شرح السير الكبير للشيباني: ولو أن رسول ملك أهل الحرب جاء إلى عسكر المسلمين، فهو آمن حتى يبلغ رسالته.. فإن أراد الرجوع، فخاف الأمير الرسول والمستأمن، وقد رأيا للمسلمين عورة، فيدلان عليها العدو، فلابأس أن يحبسهما عنده حتى يأمن من ذلك. إلا أنه لاينبغي أن يقيدهما ولا أن يغلهما.

تجنب القلق

لو قدر لنا أن نقف على الإحصائيات الحقيقيّة لمعدلات الأمراض الفيزيولوجية والوفيات التي يسببها القلق لأصابنا الهلع والفزع. فقد أكد فريق من الأطباء وعلماء النفس المختصين أن القلق يفتك بالبشرية فتكاً ذريعًا يكاد لايقل عن فتك الأمراض والحروب، إذ إن الصلة بين الفكر والجسد البشريين وثيقة ومعقدة ومركبة بحيث يمكن القول معها، بأن القلق يؤثر تأثيراً قاتلاً في شخصية الفرد إذ ينهك قواه ويلتهم نشاطه بطرق غير مجدية مما يسيء إلى صحة الفرد ويجعل حياته لاتطاق.

والقلق لا يشفيه أي عقار من العقاقير العجيبة، فالشفاء يكون على يد الشخص نفسه الذي يعاني منه، فهو موجود في نفوسنا، وإذا عرفنا كيف نراقب طرق تفكيرنا، أمكننا وضع القلق في موضعه وجعل العالم الذي نعيش فيه بهيجاً .

ومن المعروف في عالم الطب أن العقل الباطن مسؤول عن تنظيم وتوزيع المواد الكيماوية المنتشرة في الجسم البشري، كما أنه المُرَاقِب والمشرف على القلب ودقاته وعمليات التنفس والهضم والدورة الدموية وسائر الأعمال البدنية اللاإرادية. وعلى اعتبار أن الدم هو أساس الغذاء العضوي للجسم فإن أي خلل يطرأ على تركيب الدم الكيماوي يؤدي حتماً إلى شلّ الدورة الغذائية، وبالتالي الجسم كله، إضافة إلى أن القلق له تأثير قاتل على الجهاز العصبي لأنه يغير تركيب الدم ويعطل إفرازات الغدد فيختل توازن الجسم بكامله.

ولكن الحقيقة التي يجب ألا تغيب عنا، هي أن القلق في حدود معينة يمكن أن يكون دافعاً قوياً وقوة كامنة خيرة تدفع المرء كي يهتم بحياته ويحقق أهدافه. ولايؤذينا القلق إلا عندما نضيع هذه القوة الكامنة المكبوتة بلا فائدة أو جدوى في مشاكل وقضايا لاوجود لها.

وما العلاج الناجح سوى اعترافنا بالقلق كجزء من حياتنا، وأن نتعلم كيفية الإفادة منه، وذلك بتوجيه هذه القوة التي نسيء استعمالها إلى المجالات المنتجة المجدية.

إن القلق لايقضي على الحزن الذي يمكن أن يخبئه لنا الغد، بل يمتص من اليوم الذي نحن فيه قوته، وهناك وسائل كثيرة يمكننا بواسطتها أن نعاين مصاعبنا ومشاكلنا ونزنها بالميزان الصحيح (فأندريه جيد) كان يعزف على البيانو فيجد أن قلقه قد أصبح تافهاً بالنسبة إلى عظمة الموسيقى التي تنبعث من بين أصابعه، وكان (تولستوي) وهو يتأمل غروب الشمس وراء السهول والغابات، يخجل في حصر تفكيره بأوهامه، في حين أن العالم زاخر بمثل هذا الجمال.

إننا نفتح الباب أمام القلق عندما نضيع وقتنا سدى، وندع الساعات تمر دون أن نشغلها بشيء يتطلب منا كل جهد واهتمام.

وكان الأقدمون يقولون: إذا لم تستطع شفاء حالة تعانيها فما عليك إلا أن تتحملها، إنها مشيئة الله.

وليس للقلق علاج كما يقول (هنري وورد بيتشر) إلا العمل، «العمل لايقتل البشر، إنما القلق هو الذي يقتلهم. فالعمل صحي والقلق صدأ يعتري المدية».

د. تماضر حسون

القصر الهاروني

بين الطبري وعلي بن الجهم

د. نـورة الشملان

تأثر العباسيون بالحضارة الفارسية، فاقتبسوا من أهلها طراز البناء، وزينوا دورهم بالفرش الثمينة، واعتنوا بغرس الأزهار في حدائقهم، وقد سجل الشعراء صوراً لتلك القصور، لعلها في غناها أوضح من الصور التي تركها لنا المؤرخون. وإذا كان المكان المخصص لهذه المقالة لايسمح بالاستعراض والنماذج الكثيرة فإننا نكتفي بنموذج واحد نرى من خلاله صورة قصر من قصور العباسيين كما سجلها قلم مؤرخ منصف، وكما رسمتها ريشة شاعر موهوب.

أما القصر فهو القصر الهاروني الذي ذكره ياقوت ذكراً موجزاً سريعاً فقد قال: «ينسب إلى هارون الواثق بالله، وهو على دجلة بينه وبين سامراء ميل وبإزائه الغربي المعشوق»(١).

والمعشوق الذي يشير إليه ياقوت هو قصر من قصور الخليفة المعتمد وقد بُني بعد الهاروني بفترة طويلة.

الهاروني في كتب المؤرخين:

لم يتعرض ابن الأثير لهذا القصر في تاريخه على حين أشار إليه البلاذري إشارة خاطفة حيث يقول: «... أقام هارون الواثق بسُرَّ مَنْ رأى في بناء بناه وسماه الهاروني حتى تُوفي به، ثم استخلف أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين»(٢).

أما الطبري فذكره بشيء من التفصيل، حيث ذكر أن فيه قبّةً مرتفعةً في السماء بيضاء كأنها بيضة إلا قدر ذراع، فيما ترى العين حولها، وفي وسطها سياج منقوش باللازورد والذهب. وكانت تسمى قبة المنطقة وكان ذلك الرواق يسمى رواق قبة المنطقة»(٣).

الهاروني في ديوان علي بن الجهم:

يطالعنا وصف القصر في ديوان علي بن الجهم، وهو وصف دقيق يرسم صورة واضحة له، والقصيدة قيلت في السجن، ويفترض أن تكون قصيدة شكوى أو قصيدة استعطاف أو عتاب، أو هي على أقل تقدير مدح خالص يستدر به الشاعر عطف الخليفة الذي كان شاعرنا يحتلّ الصدارة في مجلسه، ثم انقلب عليه وحبسه. وتختلف الروايات في تعليل حبسه، وإن كان أكثرها دوراناً على الألسنة القول بأنه حُبس لسوء أخلاقه وكثرة وشاياته بأصحابه وغير أصحابه.

قال:

مازِلْتُ أسمعُ أن الملوكَ
تَبني على قَدْرِ أخطارها
وأعلمُ أنَّ عُقولَ الرجال
يُقضَى عليها بآثارها
فللرُّوم: ماشادَهُ الأوَّلون
وللفُرْس مأثور أحْرارِها
فلمَّا رأينا بناءَ الإمام
رأينا «الخلافة» في دارها
وكُنَّا نَعُدُّ لها نَخْوةً
فطامنْتَ نخوةَ جبَّارِها
وأنشأْت تحتج للمسلمين
عَلى مُلحديها وكُفَّارِها
بدائعَ لم تَرَها فارسٌ
ولا الرومُ في طولِ أعْمارِها
صُحُونٌ تسافرُ فيها العيونُ
وتَحسرُ عن بُعْدِ أقْطارِها
وقُبَّةُ مُلكٍ كأنَّ النُّجومَ
تُفضي إليها بأسرارِها

إذا لَمعَتْ تستبينُ العيونُ
فيها مَنابت أشفارِها
وإن أُوقِدَت نارُها بالعراق
ضاءَ الحجازَ سَنا نارها
لها شُرُفاتٌ كأنَّ الربيعَ
كساها الرياضَ بأنوارِها
نظمنَ الفسيفس نظمَ الحُليِّ
لعونِ النساء وأبكارِها
فهن كمُصطَبحات برزنَ
بفصْحِ النصارى وإفطارِها
فمنهنَّ عاقصةٌ شَعْرَها
ومُصلحةٌ عَقْدَ زُنارِها
وسطْحٍ على شاهقٍ مُشْرِف
عليه النَّخيلُ بأثْمارِها
إذا الريحُ هَبَّتْ لها أسْمَعَتْ
غناءَ القيان بأوْتارِها
وفَوَّارةٍ ثأرُها في السَّماءِ
فليستْ تُقَصِّرُ عن ثارها
تَرُدُّ على المُزنِ ماأنزلَتْ
على الأرضِ من صَوْبِ مدرارِها

فالشاعر كما نلاحظ لم يتحدث عن الخليفة إلا ببيت واحد، ولم يجعل لقصيدة المدح مقدمة غزلية أو طللية كما اعتاد الشعراء، وإنما جعل لها مقدمة وثيقة الصلة بالموضوع، فقد تحدث عن الملوك وشغفهم ببناء القصور وبيّن أهمية تلك المباني في تقويم عقول أصحابها.

وأشار إلى الروم والفرس وماخلفوه من فن معماري باهر، إلا أن هذا الفن يتضاءل أمام قصر الخليفة الذي هو بصدد وصفه.

ويخلص من هذه المقدمة التي هيأ بها القارىء وشوقه لرؤية ذلك القصر، ويتناول القصر من الداخل إلى الخارج، فيبدأ بذكر صحونه الواسعة وقبته المرتفعة التي تناجي النجوم، ويتم التمازج بين علو القبة وهيبة الخليفة.

وإذا كان الطبري كما مرّ بنا قد اكتفى بذكر القبة والرواق فإن علي بن الجهم أكمل الصورة ووضحها، فتحدث عن الشرفات المزدانة بالأزهار، وافتنّ في عرض صورتها، فتارة يشبهها بالنساء الحاليات، وتارة يشبهها بالفتيات اللواتي يحملن الشموع الموقدة في أعياد النصارى، وقد عقصت بعضهن شعرها وأطلقته أخريات، إحداهن تسير والأخرى تصلح زنارها.

وشاعرنا لم ينقل المنظر كما رآه، ولكنه يحاول أن ينقله معتمداً على الإيحاء وماتثيره المشبهات من انطباعات. وينتقل بنا وكأنه دليل سياحي لايفوته أن يُري من حوله ومن يقودهم كل أرجاء القصر.. أقول ينتقل بنا إلى سطح القصر وما فيه من نخيل تتدلى عذوقه، وإذا هبت الرياح ضرب السعف بعضه ببعض فأحدث نغماً جميلاً، ومن هنا فصورته ليست متحركة فقط ولكنها ناطقة أيضاً. ولاينسى شاعرنا أن يقف بنا أمام النافورة التي يبدو أن العباسيين كانوا يعدونها من ضروريات القصور فلايكمل القصر إلا بها، وهو يقف عند علوها مؤكداً هذه الصفة بمطاولتها للسماء، وكأن لديها ثأراً تريد أخذه أو كأنها تريد أن تردّ للسماء ماأعطت الأرض من الماء.

يبدو لي أن علي بن الجهم الذي قال هذه القصيدة في السجن كان يتلهف إلى عودة حياته في القصور، وأنه أدرك تلك النعمة بعد زوالها فسطر ما اختزنته ذاكرته من صورة للقصر الهاروني الذي أمضى فيه أجمل أيام حياته.

وقد استطاع من خلال تلك الصور الجميلة المتآلفة أن يعطينا صورة كليَّة للقصر كما استطاع أن ينتقل من مقدمة القصيدة إلى وصف القصر بيسر وسهولة.

إن جميع مقومات الفن الحضري واضحة في هذا الوصف، كما أن الشاعر استطاع أن يجعلنا نحلق معه في ذلك الوصف الرائع الدقيق وينقلنا من عالم الحس إلى عالم النفس بمهارة فائقة.

وقد كان علي بن الجهم من الشعراء الذين شهد لهم بعذوبة الألفاظ والاقتدار على الإجادة في الشعر.

وهكذا نجد أن الشاعر يرسم بريشته الملونة مايهمله المؤرخ، وأن الشاعر والمؤرخ يتعاضدان في إبراز الصورة وجلاء غموضها.

الهوامش:

(١) معجم البلدان، ج ١٧، ص ٣٨٨.
(٢) فتوح البلدان، ص ٢٩٥.
(٣) تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص ١٣٣٣.

المراجع :

١- ديوان علي بن الجهم، تحقيق خليل مردم بك، الطبعة الثانية، منشورات دار الآفاق.
٢- تاريخ الرسل والملوك للطبري، ج ٩، ط: دار المعارف، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم.
٣- فتوح البلدان للبلاذري، ط دار الكتب العلمية، تحقيق رضوان أحمد رضوان.
٤- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، ج ١٠، ط دار الكتب المصرية.
٥- معجم البلدان لياقوت، ط: دار صادر، بيروت.
٦- طبقات الشعراء، لابن المعتز، تحقيق عبدالستار فراج، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر.

التربية الإبداعية

دلالاتها .. نظرات في إشكاليات

إن دراسة موضوع "الإبداع" مسألة على جانب كبير من الأهمية ولو أنها تتسم ببعض الصعوبات الناجمة عن الهالة التي لاتزال تحيط بالموضوع، حيث إن تصوره لايزال يرسف في غلالات مفاهيم غيبية (كالحدس والإلهام) تجعله مستعصيًا على المعلم، وتدفعه للابتعاد عن ممارسته داخل حجرة الفصل الدراسي، لاسيما أن مجمل الاتجاهات الحديثة في بناء المناهج المدرسية وتطويرها تطالب بإلحاح بنقل التشديد من التعليم إلى التَّعَلُّم، واعتبار المعلم منظمًا لتعلم تلاميذه، أي تطالب بالانتقال من محور التركيز على المعلم إلى المتعلم، واعتباره محوراً للعملية التربوية. لذلك، نجد اهتمام التربية باتجاه جديد، يتمثل في ازدياد الاهتمام بالتعليم والتعلم الإبداعيين (أي التربية في العمق)، مايتوافق مع توفير المناخ الملائم لانطلاق الطاقات الإبداعية الكامنة من عقالها، والمعلم الناجح هو ذلك الإنسان الذي يهيىء الفرص الكافية لخلق أفراد قادرين على فعل أشياء جديدة وليس على تكرارها، حيث إن عملية ممارسة التفكير المبدع أصبحت مفتاح التربية في أكمل معانيها وأوسعها.

تعريف الإبداع

هو إنتاج شيء ما، على أن يكون هذا الشيء جديدًا في صياغته، وإن كانت عناصره موجودة من قبل.

ويعد "الاختراع" أحد جوانب الإبداع، حيث إنه إنتاج مركَّب جديد من الأفكار. أو هو إدماج جديد لوسائل من أجل غاية معينة. والاختراع بهذا المعنى عكس الاكتشاف الذي لايطلق إلا على اكتساب معرفة جديدة بأشياء كان لها وجود من قبل سواء كان هذا الوجود ماديًا أو كان نتيجة تترتب بالضرورة على معلومات سبق وجودها.

والتعليم الإبداعي عملية تساعد المتعلم على أن يصبح أكثر إحساسًا بالمشكلات، والنقائص والثُّغَرات في المعرفة، واختلال الانسجام وما شاكل ذلك. وتساعده أيضًا على تحديد مواطن الصعوبة والبحث عن الحلول، والتكهن وصياغة الفرضيات حول النقائص، واختبار الفرضيات وإعادة اختبارها مع احتمال تعديلها، والخروج أخيرًا بنتائج جديدة يوصلها المتعلم إلى الآخرين.

ويرى برونوفسكي "أن الشخص يصبح مبدعًا... عندما يجد الوحدة في تنوع الطبيعة، أو في الأشياء التي لم يكن يظن من قبل، ولايتوقع أن يكون بينها وحدة".

الإبداع والتعليم المبدع في مدارسنا

ثمة ظروف وعوامل أدَّت بالكتب المدرسية إلى إهمال الدراسة العملية للتفكير الإبداعي الذي يجعله أكثر تميزًا عن غيره من أنواع التعليم الأخرى، ويمكن أن نعرض مجمل الأسباب والعوامل التي أدَّت إلى إهماله والابتعاد عنه:

١ـ صعوبة إقامة معايير عملية للإبداع، حيث إن الأعمال المبدعة التي لاشك في براعتها نادرة جدًا، لأنَّ الإبداع يرجع إلى حد كبير للبيئة (أي المناخ التعليمي الصحي) أكثر مما يرجع إلى الفرد.

٢ـ إن نظريات التعلم صيغت بوجه عام لكي تنطبق على الظواهر التي يسهل وضعها في إطار منطقي، لأن جميع البحوث التي أجريت في هذا الميدان كان الحيوان ميدانًا لها، حيث لاتوجد سمات الإبداع عنده، وإنما تعتمد على التكرار. فإذا كان من الصواب أن نقول إن الفصل الإبداعي حالة من حالات التعليم لأنه يمثل تغيرًا في السلوك يرجع إلى المنبه والاستجابة، فإن النظرية الشاملة للتعليم ينبغي أن تضع في حسابها كلا من الاستبصار والنشاط الإبداعي.

٣ـ يرجع العجز في بحوث التعليم عن دراسة جوانب الإبداع إلى أنها تأثرت تأثرًا كبيرًا بالنظرية السلوكية، تلك التي يرى برت أن طغيانها أو سيادتها قد أدى إلى تشتيت الانتباه عن نماذج

الفهم والتطبيق في المدرسة الابتدائية

النشاط الإبداعي، واستبعاد مفاهيم، مثل (التخيل والتفكير المنتج).

٤ـ الاعتقاد السائد لدى كثير من علماء النفس أن ثمة ارتباطًا بين الإبداع والذكاء، أو بالأحرى التوحيد بين مفهومي الذكاء والإبداع، ومن هنا كان استخدام اصطلاح (عبقري) الذي نشأ أصلاً لوصف الشخص المتميز بإنتاجه المبدع، لوصف الطفل ذي الذكاء المرتفع جدًا. وفي اختبارات الذكاء على اختلاف أنواعها يكون الشخص غير مطالب بالتحديد والتأمل أو الاختراع أو الإتيان بحل طريف.

التفكير الإبداعي

إنّ التفكير الإبداعي في أساسه تفكير افتراقي (أو تغييري) يتميز بالبحث والانطلاق في اتجاهات متعددة، أي هو متميز بالتعامل بطرق ابتكارية طريفة مع الرموز اللغوية والرقمية وعلاقات الزمان والمكان، وهذا النوع من التفكير التغييري، هو ماغفلت عنه اختبارات الذكاء الشائعة. ومما يهم هنا أن نفهم أن ثمة عدم تَطَابُق بين مفهوم الذكاء التقليدي المعروف ومفهوم الإبداع، ونذكر أنّ التحصيل المدرسي يستخدم باعتباره محكًا لصدق الاختبارات العقلية، وهذا التحصيل المدرسي يعني بوجه عام بالنسبة للطفل الحفظ والتذكر والمطالعة والحساب والعلوم.

التلاميذ والإبداع

إنّ الرجل الذي يصبح مبدعًا في رشده، لايتصل بالبيئة الاجتماعية الكبيرة. إلا بعد أن يعيش فترة طويلة في بيئة خاصة محدودة.

الأسرة والتربية الإبداعية

يتلقى الطفل في محيط الأسرة من الخبرات، مايكفي لإعداده للاستجابة (بطريقة إيجابية أو سلبية) للخبرات القادمة في حياته.

فالطفل في الأسرة مثلاً: يدرب أولاً على تنظيم بعض الوظائف الحيوية، ويصحب هذا التدريب جو انفعالي خاص من الحب والتقبل، أو التهديد والوعيد بفقدان الحب أو فقدانه فعلاً، ويتعلم الطفل من هذه الخبرات أنه (الممتاز) الذي يستطيع السيطرة على وظائفه أو أنه سيء لايستطيع إنجاز هذه السيطرة، كما يوجد نموذج آخر من الآباء يعوّدون الطفل على تلقي الحلول الجاهزة لكل مايواجهه من مشكلات، أو لايشجعونه على الخبرات الجديدة، أو يعودونه على عكس ذلك.

في المنزل ـ ذلك العالم الصغير ـ تنشأ عن علاقات الطفل بإخوته ووالديه اتجاهات وقيم (من معلمين ومديرين) بل قد تكون هذه العلاقات بين الطفل وأفراد الأسرة الآخرين أساسًا لتقبله نموذجًا معينًا من المعتقدات الفكرية، فالأطفال الذين كانوا خاضعين لتربية تسلطية كانوا متقبلين للأفكار المهيمنة التسلطية، حيث ينتج عن ذلك خضوع قد يبلغ أقصاه، وبذلك يجد الفرد صعوبة في المغامرة، ويظل يتعامل فقط مع ماثبتت لديه صلاحيته متجنبًا كل ماهو جديد.

المدرسة والتربية الإبداعية

إن نوع الخبرات التي يتعرض لها الفرد في المدرسة قد يكون لها أثرها في الإبداع. والمعلم المبدع ذلك الذي يهتم بالخبرات التي تؤثر في إبداع الأطفال، حيث إن هذه الخبرات لاتؤثر فقط في المواد التي يتعلمها التلاميذ، بل تؤثر كذلك بطريقة إيجابية أو سلبية في اتجاهات التلاميذ نحو المواقف الجديدة للتعلم في المستقبل.

فقد تؤكد التربية القديمة على التعليم بواسطة الطرق التقليدية (التلقين والحفظ والتكرار للتراث القديم) ولا تُعنَى بتنمية المبادأة والأصالة والبحث في العمق، بل قد تعاقب عليهما. وللمعلم دور جديد فعّال في دفع التلاميذ للانهماك في مناشط العملية التعليمية من دهشة فعّالة واستغراب فعّال تدفع التلاميذ للخوض في بحر من التساؤلات، مندفعين للمحاولات المبدعة تلك التي تجعل الغريب مألوفًا أو المجهول معلومًا، بحيث تؤدي العملية التربوية إلى إنتاج إبداعي ينسجم مع متطلبات الوضع القائم، باعثًا في التلميذ المبدع شعورًا من الارتياح والقناعة، هذه السمة يلتقي عندها جميع بني البشر، ويمكن للمدرسة أن تتعهدها بالرعاية والتنمية ومن ثم يتشجع التلاميذ على الابتكار والأصالة، فيستطيعون بذلك أن يبدعوا في جميع مجالات الحياة المدرسية.

التلميذ والجماعة النفسية (السيكولوجية)

إن لهذه الجماعة التي ينضوي فيها التلميذ طوعيًا وبشكل غير رسمي معطيات أساسية، تجعلها الجماعة الصغيرة التي تربط بين الأفراد بروابط عاطفية ومهنية أهمية كبيرة في عملية الإبداع، حيث إن إتمام العمل أو النشاط الذي يُكلَّفُ التلميذ به وحده لايكفي، لأن الشخص المبدع يحتاج في بداية الأمر دائمًا إلى تقديم عمله إلى جماعة تعترف بهذا العمل وتقوّمه، لهذا فإن كل تلميذ مبدع أيًا كان مجال إبداعه: شعرًا أو فنًا أو علمًا يلتف حوله شخص أو أكثر ممن يكوّنون جماعة نفسية (سيكولوجية) له يؤثر فيها ويتأثر بها.

دلالاتها .. نظرات في إشكاليات الفهم والتطبيق في المدرسة الابتدائية

المعلم وعملية الإنتاج الإبداعي

يعتقد بعض المربين الذين يهتمون بتربية الطفل بأن الإنتاج الإبداعي من أكثر مظاهر النشاط ملاءمة لدراسة العمل الإبداعي، أي إن نتاج التفكير الإبداعي يمكن أن يكون مقياساً لدرجة الإبدع لدى التلاميذ، ويمكن اعتماده من قبل المعلم للتمييز داخل غرفة الصف بين التلاميذ الأكثر إبداعًا وأقرانهم الأقل إبداعًا.

وقد ذكر (جامبل) في الجزء الذي كتبه عن تقرير لجنة (محاكات الإبداع) أن الإبداع باعتباره سمة، يقوم على أساس تحديد (السلوك الإبداعي) وتعريفه، ولكي نكون جادين في تمييز السلوك الإبداعي ينبغي أن نقوم بتحليله ومقارنته بالسلوك غير الإبداعي.

وإذا كان يبدو لأول وهلة أنَّه من الصعوبة بمكان القيام بهذا التحليل، فلأنَّ الفصل الأولي للإبداع (فكري) وهو من النوع الذي لايمكن إخضاعه للملاحظة إخضاعًا مباشرًا، على أنه يمكن (تحويل) الفكرة الإبداعية إلى صورة فعل قابل للملاحظة والقياس عن طريق عزلة أفراده، على أنه حتى إذا أمكن إخضاع السلوك الفكري (المحوَّل) للملاحظة فإنه لايمكن الحكم عليه بأنه إبداعي، دون فحص (للإنتاج) وتحليله، لذلك فإن إنتاجات السلوك الإبداعي ينبغي أن تكون في البداية موضوعًا للدراسة، حتى يتمكن المعلم من الحكم على إنتاج معين بأنه (إبداعي)، ومن ثم إطلاقه الصفة على السلوك الذي يُحدث هذا الإنتاج الإبداعي، وكذلك يمكن القول بأن التلاميذ الذين يقومون بهذا السلوك الإبداعي، لديهم إلى حدٍّ ما سمَة الإبداع، علمًا بأنه يجدر بالمعلِّم المبدع أن يفرِّق بين التفكير الإبداعي ومايتطلبه من مهارات، والتفكير في حل المشكلات واتخاذ القرار على أساس (الإنتاج)، ولايجوز للمعلم أن يترك الإبداع للمصادفات، بل لابد من تنمية القدرات الإبداعية، تلك التي يمكن تنميتها بسهولة إذا مااعتمد المعلم الأساليب المناسبة لقيادة العملية التربوية ضمن الظروف المناسبة للتعليم الإبداعي.

وعندما نرى اختلاطًا بين التفكير الإبداعي والتفكير في حل المشكلات عند معظم المفكرين التربويين نجد أنفسنا مضطرين لتحديد الخطوات الأساسية في عملية الإبداع.

خطوات عملية الإبداع:

١- تصور الحاجة لفكرة معينة: هذه الحاجة لايتوصَّل إليها التلاميذ إلا من خلال المواقف التربوية المحددة والمعدَّة بشكل مسبق، بحيث تهيىء المناخ التعليمي المناسب ليشعر التلميذ بالحاجة إلى هذه الفكرة المعينة، وهنا يكمن الدور الفعَّال للمعلم في انتقاء المناشط التعليمية التي تدفع بالتلاميذ للانهماك في البحث عن هذه الحاجة.

٢- جمع المعلومات التي تتصل بها: الشعور بالتوتر والانفعال الناجم عن المواقف التربوية المعدّة من قبَل المعلم تدفع بالتلميذ إلى البحث والتنقيب باذلاً الجهد بشكل لافت للنظر كحلٍّ للتوتر والانفعال.

٣- التفكير في هذه المعلومات (التحليل): يندفع التلميذ إلى ممارسة عمليات عظيمة راقية، وذلك نتيجة للمناخ التعليمي التعلمي المعد من قبل المعلم، في محاولة جادة للتحليل المبدع والفعَّال للجوانب السلبية والإيجابية، بحيث يتمكن التلميذ، بموجب التدريبات المعدة من قبل المعلم، من تمييز الأفكار الرئيسة، وتنظيمها، وعقد المقارنات، والتوصل إلى أوجه الشبه والاختلاف بين الأشياء والأفكار والآراء.

٤- تصور الحلول الممكنة (التفكير التركيبي): يتدرب التلميذ على ممارسة العمليات العقلية التي تتبلور في إيجاد الحلول الممكنة نتيجة لبناء علاقات جديدة بين الأشياء أو الأفكار أو الآراء، ويستطيع المعلم أن يعد الوسائل المناسبة لدفع التلاميذ لبناء العلاقات الجديدة بين هذه الأشياء والأفكار والآراء.

٥- التحقق من الحلول (الاختبار): ويتلخص في تدريب المعلم لتلاميذه على إصدار الأحكام، وتقديم الشواهد المؤيدة للتحقق من الحلول واختبارها.

٦- وضع الأفكار موضع التنفيذ: ويرى علماء التربية أنه لاتوجد للعقول المشرقة لدى التلاميذ العباقرة والموهوبين سوى السرعة في الانتقال من تصور الحاجة لفكرة معينة إلى وضع تصور الحلول الممكنة، بينما يسير باقي التلاميذ في عملية الإبداع عادة مرورًا بالخطوات خطوة خطوة.

المعلم وتنمية القدرات الإبداعية

المعلم المبدع لايكون متسلطًا في قيادته للعملية التعليمية التعلمية، وإنما ينظِّم المواد المراد تعليمها، ومن ثم يعرضها بطريقة تشجع التلاميذ على ممارسة تفكيرهم في المشكلات التي يعرضها عليهم، على أن تتحقق عملية الانهماك في مناشط المواقف التعلّمية بصورة فعالة، بحيث تجعل تلاميذه يفكِّرون بأنفسهم بدلاً من تزويدهم بحلول جاهزة للمشكلات المعروضة، ويمكن ذكر بعض القدرات الإبداعية التي يتوجب على المعلم الإلمام بها بغية تدريب التلاميذ على ممارستها:

١- الحساسية للمشكلات: وتتلخص في القدرة على إدراك العيوب في الأدوات الشائعة، أو النظم الاجتماعية أو في مواقف الحياة اليومية بوجه عام وماتتضمنه من أوجه النقص، أو هي القدرة على التفكير في تحسينات تحتاج إليها هذه الأدوات الشائعة، أو النظم الاجتماعية أو مواقف الحياة اليومية. فالمعلم المبدع ذلك المنظِّم للأنشطة التعليمية التعلّمية التي تدفع بالتلاميذ للانهماك في مناشط الدرس بشكل يدفع بهم إلى ممارسة عمليات عقلية راقية تسهم في تنمية قدرة الحساسية للمشكلات.

٢- الأصالة: هي القدرة على إنتاج أفكار أصيلة. والفكرة الأصيلة تلك التي تتميز بأنها (جديدة أو طريفة)، ولاتعني جدة الفكرة أن أحدًا لم يفكر فيها أبدًا من قبل، فضلاً عن صعوبة فحص أفكار كل الناس حتى لحظة صدور الفكرة (الأصيلة) من شخص معين، فإن صدور إحدى الأفكار الأصيلة عن أحد العلماء أو المفكرين بعد صدورها لايعني

أنها ليست فكرة أصيلة. وتشتمل الأصالة على ثلاثة جوانب رئيسة هي:

أ ـ الاستجابة غير الشائعة: تتبلور في القدرة على إنتاج أفكار غير شائعة أو نادرة إحصائيًا.

ب ـ الاستجابة البعيدة: هي القدرة على ذكر تداعيات بعيدة غير مباشرة.

ج ـ الاستجابة الماهرة: هي القدرة على إنتاج استجابات يحكم عليها عدد من الحكام بأنها ماهرة، ويمكن أن يأخذ المعلّم بعين الاعتبار «أن الحكم بمهارة الاستجابة يعد محكًا جديدًا للأصالة إذ لايمكن الاعتماد على عدم الشيوع وحده كمحك للأصالة».

٣ـ المرونة التلقائية: إن حرية الوجهة الذهنية حرية غير موجهة نحو حل محدد، فيما يتصل بمشكلة محددة والقدرة على تغيير مجرى التفكير وتوجيهه إلى اتجاهات جديدة بسرعة وسهولة بسبب أوضح أو غير واضح.

٤ـ الطلاقة الفكرية: تعني أساسًا سرعة إبراز عدد كبير من الأفكار في أحد المواقف، ولايكون الاهتمام هنا بنوع الاستجابة أو (كيفها) بل بعدد الاستجابات، وتكون الاستجابة هنا عبارة عن أفكار وليست مجرد كلمات مفردة أو استدعاء لفظي.

قدرة التلاميذ على الإبداع

إن الدهشة الفعّالة أو الاستغراب الفعّال الذي تعقبه تساؤلات ومحاولات لجعل الغريب مألوفًا أو المجهول معلومًا بحيث تؤدي إلى نتاج إبداعي ينسجم مع متطلبات الوضع القائم، وتبعث في الشخص المبدع شعورًا من الارتياح والقناعة، هذه السمة يلتقي فيها البشر جميعًا ويمكن أن نلفت انتباه المعلم إلى أن صفة الإبداع يمكن أن توجد في أي نوع من النشاط الإنساني، على أن النشاط الإبداعي ليس مقصورًا على العباقرة والنابغين والموهوبين.. ويمكننا أن نقر بأن العلاقة بين الذكاء والعمل الإبداعي ليست قوية كما يُظن. وعلى هذه الحقيقة يمكننا القول بأن تلاميذنا مهما كانت نسب ذكائهم قادرون على الدهشة والاستغراب والتساؤل وصياغة الفرضيات، وغير ذلك من النشاطات العقلية التي يتضمنها مفهوم الإبداع.

المعلم والمناخ المناسب

لايجوز للمعلم أن يترك تنمية القدرات الإبداعية للمصادفات حيث أن تلك القدرات يمكن تنميتها إذا ماتوافرت مواقف تربوية محددة وقابلة للقياس بما يناسب التعلم الذاتي والتدرب في أجواء تعلمية ملائمة.

ويمكن أن نذكر عددًا من المواقف التربوية التي تعكس الأجواء المناسبة للتعلم الإبداعي تلك التي لاتُعجز معلمنا بأي حال من الأحوال:

* إتاحة فرص استثارة الدهشة والاستغراب.
* تشجيع الأسئلة والتساؤل.
* العلاقات الديمقراطية.
* الحب والاحترام المتبادل.
* إتاحة الفرصة للتدرب على حل المشكلات.
* مواجهة المتعلم بأشكال معقولة من التحدي والإثارة.
* إتاحة الفرصة للتطبيق على عمليات عقلية عليا.
* التعلم بطريقة الاكتشاف.

أمثلة على بعض الطرق المقترحة:

١ـ إثارة الحيرة والارتباك والتوتر: عن طريق استخلاص نتائج سخيفة أو متناقضة من قضايا يسلّم بها الكثيرون.. كمثال على ذلك، يقول كتاب القراءة إن فصل الربيع يكون عادة دافئًا وجميلاً، وتكون فيه الشمس مشرقة والجو صحوًا.. نحن اليوم في فصل الربيع، ولكن هذا اليوم الذي نحن فيه بارد وعاصف وممطر لماذا؟

٢ـ إثارة الدهشة والاستغراب: ما أكثر المواقف التي يستطيع المعلم أن يخلقها لاستثارة الدهشة والاستغراب، وبالتالي الفضول والتساؤل والاستقصاء، كل ذلك قبل الشروع في التعليم النظامي التقليدي الذي قد يقتل النزعة إلى التساؤل والارتياد والاكتشاف.. مثال ذلك:

* إنطفاء شمعة عند تغطيتها بكأس زجاجية.
* جذب المغناطيس للمعدن وعدم جذبه للخشب.

ويمكن للمعلم أن يحضر أكبر عدد ممكن من المواقف التربوية التي تثير الدهشة والاستغراب لدى التلاميذ،

٣ـ تقدير قيم متوسطية: إن هذا النشاط يتطلب من التلميذ اكتشاف طبيعة العلاقة أو الترتيب أو الخط في الدالة من تقديره لقيم متوسطة بين قيم معروفة، أو بين حدود أولية وحدود نهائية في دالة تقوم على علاقة معينة أو تتبع ترتيبًا معينًا.. مثال ذلك:

ضع الأرقام المناسبة في الفراغات التالية:

١، ٢، ٤، ٧، ـــــ، ـــــ، ـــــ، ٢٢، ٢٩.

٤ـ تقدير قيم خارج القيم المعطاة: نقصد بهذا النشاط تقدير قيم دالة خارج نطاق البيانات المعروفة المسجلة، أو التقدير المتبنى للاتجاه خارج نطاق الاتجاه الذي تحدده البيانات المعطاة، وهذا النوع من النشاط يتطلب أيضًا إدراك العلاقة أو الترتيب أو النمط الذي ينظم الدالة.. مثال ذلك:

أكمل مايلي بتعبئة الفراغات النهائية:

٢، ٤، ٨، ١٦، ـــــ، ـــــ

٥ـ إدراك البنية المنطقية المتسلسلة: هذا النشاط العقلي وثيق الصلة بالنشاطين السابقين لكنه يتطلب قدرة أكبر على اكتشاف النمط العلائقي.. مثال ذلك:

رُوي أن معلمًا طلب إلى صفه إجراء الجمع التالي:

١+٢+٣+٤+٥+٦+٧+٨+٩+١٠

الإجراء: انهمك الأطفال بجهد مضن فراحوا يجمعون الأرقام العشرة المنفصلة من أجل التوصل إلى الجواب، غير أنه ماكادت تمضي بضع ثوان حتى صاح أحد التلاميذ: إن الجواب هو (٥٥)، لم يكن عمر هذا التلميذ تجاوز ست سنوات، وقد استغرب المعلم كيف استطاع إيجاد الجواب بمثل هذه السرعة.. هذا التلميذ هو الذي أصبح فيما بعد الرياضي الشهير (جاوس).

٦ـ التصنيف وإدراك المشابه والفروق واستبعاد الشاذ: هذه العمليات العقلية جميعها تساعد على تطوير الإبداع، وتسهم في تنمية قدرات التلميذ على تكوين المفهومات، والانتقال إلى المرحلة الثانية، وهي إدراك العلاقات بين المفاهيم. مثال ذلك:

(أ) صنّف الأشياء التالية في ثلاث مجموعات بحيث تضع في كل منها مجموعة الأشياء التي تلتقي بصفة مشتركة: ماء ـ خشب ـ زيت ـ هواء ـ حديد ـ جاز ـ بخار ـ حجر.

(ب) احذف الشاذ أو غير المناسب فيما يلي: أحمر ـ أصفر ـ صغير ـ أخضر.

دلالاتها .. نظرات في إشكاليات الفهم والتطبيق في المدرسة الابتدائية

٧- تحويل الأشكال: يتألف الشكل التالي من خمسة مربعات من عيدان الكبريت، انزع ثلاثة من عيدان الكبريت بحيث تبقى ثلاثة مربعات فقط:

الشكـــــــــــل:

٨- التطبيق على مواقف واستعمالات أخرى: هذه صفيحة فارغة وهي مفتوحة من جانبها العلوي؛ احصر قائمة بأكبر عدد ممكن من المجالات التي تستطيع فيها أن تستعمل هذه الصفيحة الفارغة:

١	٧
٢	٨
٣	٩
٤	١٠
٥	
٦	

٩- استكمال النقص وسد الثغرات وإعادة الترتيب: من أكثر العوامل إثارة للنشاط الإبداعي (النقص) أو (عدم الاكتمال) أو (وجود ثغرات في الأشياء التي يتعامل بها المتعلم) فلنجابه المتعلم بمعلومات أو أشكال ناقصة لاستثارته لمعرفة نواحي النقص واستكمالها حسب اجتهاده ونتائج بحثه واستقصائه. مثال ذلك:

- أي لون في هذه الصورة تقترح تغييره كي تتحسن الصورة في نظرك.

- اقترح عنوانًا أفضل من العنوان الذي وضعه الكاتب لدرس القراءة.

- أعد ترتيب أسباب الحروب الصليبية بحسب أهميتها في نظرك.

١٠- التفكير التجميعي والتفكير التفريقي: من المفيد أن يعرف المعلم أن هذا النوع يرتبط بنوع الأسئلة التي يطرحها على تلاميذه.

(أ) أسئلة الذاكرة المعرفية: للسؤال عن حقائق أو أمور معرفية تتطلب تذكرًا آليًا مثال: ما عاصمة لبنان؟.. ما فصول السنة؟.

(ب) أسئلة تجميعية: تتطلب تحليلاً أو تركيباً لمعلومات تعطى أو تستدعى، وغالبًا ماتتطلب استدلالاً وحلاً للمشكلات، لكنها في الغالب لاتحتمل سوى نمط واحد من الاستجابة المقبولة أو عدد محدود من الاستجابات المقبولة. مثال ذلك:

- ماأوجه الخلاف بين فصلي الخريف والصيف؟

- كم تسعة في العدد ٣٠؟

(ج) أسئلة تفريقية: وهي أسئلة تتطلب إجابتها خيالاً وتصورًا للأمور في اتجاهات مختلفة.. مثال ذلك:

- كيف ستصبح حياتنا لو أن فصول السنة كلها متشابهة؟

(د) أسئلة الأحكام التقويمية: وهي أسئلة تعالج أمورًا تتصل بالأحكام والقيم والاختبارات. مثال ذلك:

- هل تفضل أن تعيش في مناخٍ صيفُهُ طويل جدًا؟

بعض المقترحات: مواجهة التلاميذ بمشكلات محيِّرة. مثال ذلك:

- اقترح عناوين لفقرات أو قصص أو مقطوعات تعرض بدون عناوين.

- تقديم قصص ناقصة وتكليف التلاميذ بإنهائها بالطريقة التي يرونها.

- تشجيع الأسئلة من جانب التلاميذ.

- تشجيع مختلف أشكال التعبير الذاتي.. مثال ذلك:

- ضع عنواناً للشكل الذي رسمته.

- ارسم شكلاً تعتقد أنه يعبر عن القصة التي سردتها لكم.

تحويل الصيغ الكلامية إلى رياضة وبالعكس.. مثال ذلك:

- إذا كانت مساحة المستطيل (م) مترًا مربعًا، وطوله (ط) مترًا وعرضه (ع) مترًا ماذا تساوي (م)؟

م = ط × ع مترًا مربعًا.

(هـ) تدريب التلاميذ على تدوين الأفكار التي تستهوي خيالهم: يخصص كل تلميذ كراسًا خاصًا يسجل فيه الأفكار التي تتراءى له حتى في أحلام اليقظة، والتي يعتقد أنها جيدة أو جديدة وتستحق التسجيل.

(و) الإكثار من الأسئلة التي تبدأ بـ (لماذا؟ وكيف؟ وكيف عرفت؟).

الخاتمة :

يجدر بنا في نهاية هذا البحث أن نشير إلى أن التطبيق العلمي للطرق الإبداعية في التعليم والتعلم، ينبغي أن ينعكس أيضًا على الطرق المتبعة في تقويم نشاط التلاميذ التعليمية، لأنه يفترض في التقويم أن يفرز النشاط التعليمي والإبداعي.

مصادر البحث:

(١) الإبداع والشخصية، عبدالحليم محمد السيد.
(٢) التفاعل اللفظي في غرفة الصف، لطفي سوريال.
(٣) التعليم والتعلم الإبداعيان في الصفوف المجمعة ومدارس المعلم الوحيد، لطفي سوريال، وأحمد بلقيس.
(٤) التعليم والتعلم الإبداعيان. إدارة التدريب المستمر.
(٥) تأملات في التعلم الذاتي. س. ر. ي. المدير السابق لقسم تعليم الكبار بجامعة مانشستر بإنجلترا.
(٦) تطويرات فهيمية لتدريس اللغة العربية، ندوة التوري، التدريب المستمر.

قصة قصيرة:

آسف.. لا يوجد علاج

بقلم: إحسان كمال

نظر إليها بسخط شديد، بالأمس لم يتكلم، رغم أن طعم لحم الديك الرومي الكريه في فمه أكد أنه لم يكن [سمنًا] ذلك الذي طهي به، ماذا استخدمت إذن؟ حنظل؟.. زيت ديزل؟!، خشي أن تسخر منه، لكنه اليوم لم يستطع السكوت، سألها بغيظ:

- هل نسيت وضع السكر؟!

- كيف؟!

- الشاي مر!.

- وضعتُ قطعتين كالعادة، لكنك أنتَ.. لستُ أدري والله ماذا حدث لكَ!..

خبط الكوب أمامها بسخط وقام.. هو لم يتغير.. لكن الدنيا هي التي تغيرت، لونها في عينيه.. طعمها في فمه.. كل شيء أصبح مرًا، زوجته في فستانها الضيق أصبحت تثير اشمئزازه، مرح أولاده وصخبهم ينزل على أم رأسه كالمطارق، يترك المنزل هاربًا إلى المقهى، لكنه لايجد أصدقاءه.. احتلت كراسيهم جثثٌ عفنة، لم يعد يحس بأية متعة أو سعادة، كره كل شيء.. كره الدنيا بأسرها ولكن.. إلى أين يهرب؟.. أين المفر؟، بيوت الله؟ لكنه في المسجد الصغير، لم يتمكن من الصلاة، لم يستطع أن يركز ذهنه، ضخك فجأة من "مهرج" لم يره.. لكنه أحس به داخل جلده.. يقوم ويقعد!، لماذا لم تقدح عينا الشيخ بالشرر وهو ينظر إليه؟، فقط استفسار صامت، رد عليه بسرعة:

- حتى العبادة مللتها.. لم أعد أرى فيها أكثر من طقوس لامعنى لها!!.

بدت على الشيخ بوادر الفهم.. هز رأسه وهو يغمغم: تسير ثقيلا..!..

ودهش.. قوامه نحيف، فطن الشيخ لدهشته فراح يهز رأسه:

- ليس ثقل الشحم واللحم أعني، ولكن ثقل الأوراق، أوراق كثيرة تحملها على عاتقك وتربطها إلى ساقيك فلاتستطيع السير إلا زحفًا، تخفف منها تحس بالانتعاش. ضحك في قرارة نفسه باستهزاء، يريدني أن أتخلى عن أموالي لأصبح فقيرًا.

لكن سخطه كان في ازدياد، أحس بالأثقال تغل قدميه حتى عن الزحف، بدأ يموت ويتعفن وقلبه مازال يدق، فتح كل أدراج مكتبه وأخرج الأوراق، أوراقًا كثيرة، أغلبها ملونة.. بعضها مرسومة.. وأخرى مكتوبة.. بأيدي محامين ومأذونين وموظفي مكاتب الصحة والشهر العقاري، إنها الحقيبة عجيبة حقًا.. تلك التي اتسعت لكل هذا، وهو بسبيل الخروج أسرعت زوجته وراءه تناديه، ياللـه.. هل عَلِمَت؟.. لكن كيف؟.. على أنه لن يرجع عما نوى مهما حاولت، رغم تجاهله إياها عادت تناديه.. فاستدار إليها.. زعقت:

- اشتريت "سمكا" هذا الصباح، حاول أن تعود مبكرًا اليوم قبل أن يبرد حتى لايثير تأففك!..

لم تنتظر رده.. عادت وهي تردف لنفسها: كأغلب ماأطهوه هذه الأيام..!

اتجه صوب المسجد على الشاطىء والحقيبة في يده، سأل الشيخ:

- هل أرمي بها إلى النهر؟

لكن الأخير لم يبد عليه أنه سمع أو فهم واستمر في مناجاته، فتح يده ولكن.. ياللعجب، لم تسقط الحقيبة، جلدها انصهر.. وجلد يده أيضًا.. فالتحم الإثنان!، حاول أن يخلص إحداهما من الأخرى ولكن عبثًا، أصبحت يده والحقيبة شيئًا واحدًا، ولم يكن هناك حل غيره.. ألقى بنفسه في الماء مع الحقيبة..!

لم يسمع لارتطامه بالماء صوتًا شديدًا.. أذابت المياه اللحام فتخلصت يده من الحقيبة، وبدأ يطفو ويطفو.. حتى وصل إلى السطح.. خرج من الماء، لدهشته.. لم يكن بملابسه أي أثر

آسف.. لايوجد علاج

للبلل.. ولاقطرة واحدة..!

ماهذا المكان؟ جمالٌ مارأى ولاسمع مثيلاً له من قبل.. إلا الجنة، هل وصل إلى الجنة؟ كيف ومازال حيًّا يتنفس؟ حدائق وزهور وطيور وجداول بألوان ما أبدعها!، ظل يسير خفيفًا سعيدًا يريد أن يغنّي، فجأة.. فقدت الجداول والسماء زرقتها.. والحشائش خضرتها.. والورود ألوانها، تلون كل شيء بلون رماديٍّ باهت أولم يعد له لون على الإطلاق..!

قرصه الجوع قرصة عنيفة، غريب أن تخلو الجنة من أي شيء يؤكل، على بعد بدا له محل يخطف لألاء الماس في نوافذه الأبصار، اقترب منه.. كيف رآه ماسًا!، محل فول.. وواجهاته من زجاج!، تقدم منه مندفعًا ويده في جيبه.. ثم توقف مرة واحدة، لعنة الله على غبائه.. ألم يكن في إمكانه أن يأخذ ولو جنيهًا واحدًا من الآلاف التي كانت في الحقيبة؟، لكن البائع خاطبه بلطف:

- جوعان؟.. فلماذا لاتأكل؟

- ليس معي نقود..

- نقود؟ .. مامعناها؟

- نقدية.. فلوس.. مصاري.. برادس.. موني..!

لكن الرجل ظل على استنكاره فسأله نافد الصبر:

أريد طبقًا من الفول ورغيفًا.. ماذا أدفع لك؟..

- تكبّر لله خمسًا..

هل يسخر منه الرجل؟ عمومًا فليجرب.. وكان، لم يأبه لشعور الامتلاء وطلب طبقًا ثانيًا.. ودفع كما دفع أولاً، هذا الرجل مجنون ولاشك ولكن.. ماشأنه هو؟ هل من واجبه رد المجانين إلى صوابهم؟.

لم يقلّ ترحاب الرجل له في الغداء عنه في الإفطار، ولافي العشاء أيضًا، بالعكس.. كان أكثر سرورًا.. كأي بائع تروج بضاعته، ناوله الطبق مزهوًا:

- يبدو أنك تحب الفول جدًا..!

- (بالسذاجته): أحب كل شيء ولكني كما قلت لك.. ليس معي نقود.

- عدت للهلوسة ثانيًا!

- تعني أنه.. ياللـه.. هل تريد أن تقول أن الجميع هنا يبيعون بنفس عملتك؟!.

انتقم من الكباب والفاكهة لمعدته التي أثقلتها أطباق الفول، ترك النوم في الحدائق عندما علم أن أصحاب المنازل أيضًا يقبضون إيجارها .. تكبيرًا لله!..

عندما تمتلىء الحوصلة.. ويتم تجهيز العش يبدأ التفكير في الوليف، قال له بائع الفول الذي أصبح أعز أصدقائه:

- إذهب إلى الميدان الكبير يوم السوق تجد جميع فتيات المدينة، من تعجبك منهن تقدم للسلام عليها، فإن ردّت السلام كان معناه أنها موافقة، بعدها تطلبها من أبيها وتدفع مهرها .. مائة تكبيرة لله..!

لم يكذب الخبر واختار أجمل فتيات البلدة، بعد الزواج جاءت الذرية.. صبيان وبُنيَّة، كان يحس أنه أسعد مخلوق في الدنيا، فقط كانت هناك أشياء تثير دهشته وتساؤله.. لكن أحدًا لم يرد عليه قط، على العكس.. كانت أسئلته تثير في سامعيها دهشة أضخم من دهشته، كيف يتصور أن تعاملهم بالألفاظ يجعل الناس لايقنعون؟ هل هو يرى أن الورق أغلى من الكلمات؟ وهل يعقل أن يأخذ الإنسان أكثر من حاجته؟ ثم كيف يسأل هذا السؤال السخيف «لماذا يعمل الناس إذن؟» وهل هذا سؤال؟ هل يمكن أن يظل إنسان بلا عمل؟!!..

ظن يومًا أنه فهم سبب دهشتهم، مجبرون قطعًا ولكن.. ترى ماهو هذا القانون الرهيب أو السلطة القوية التي تضطرهم برغم سهولة الحياة الفاخرة إلى العمل بكل هذه الهمة التي لاتعرف الكلل؟، لاشك سيجيء دوره ليحاسبوه على بطالته، لكنه ظل طويلاً بعيدًا عن أعين البوليس.. أو هكذا ظن، حتى اكتشف ألا ظل هناك للقانون ولالممثليه على الإطلاق.. رغم عدم حصوله على رد ما.. لم يستطع أن يبتلع تساؤله:

- جميع المهن موجودة عداهم.. أين رجال البوليس والنيابة والقضاء؟، وكيف رغم اختفائهم يسيطر الهدوء على المدينة فلايرتفع فيها صوت قط؟ كيف يبدو الأمن مستتبًا إلى هذه الدرجة؟!.

هذه المرة جاءه الرد: كل فرد متروك لضميره يحاسبه على أعماله بدون أي تدخل من أحد..! فعلاً، رغم كرم الجميع وبذلهم وبشاشتهم، لم يكن أحد منهم ليرحب بأي تدخل في شئونه، وهو بالتالي لايتدخل في شئون غيره، وكان لهذا الطبع حسناته الكبرى، بالنسبة إليه على الأقل، لم يجبره أحد على القيام بأي عمل، بل حتى لم يسأله شخص.. لماذا لايعمل، يومًا قال أحد جيرانه بعد أن صعد السلم قفزًا:

- صحتي ضعيفة جدًا، ألا تساعدني على العمل!

فرد عليه دون أن تبدو في عينيه أية نظرة من تلك التي كان يتوقعها:

- هذا شأنك وحدك..!

حاول أن يأخذ عنهم هذه العادة لكنه لم يفلح تمامًا، يومًا كان في نزهة بالريف.. فرأى ماجعله يحدث نفسه «لك الله ياهذا البلد العجيب.. كل مايقع فوق أرضك مدهش غريب، هذا الرجل يرى جاريه، الذي إلى اليمين قد فتح قناة بين أرضه والترعة لتروي زراعته وهو مستريح، والذي إلى اليسار يدير شادوفًا، ومع ذلك يستعمل هو هذه الطريقة البدائية.. بل العقيمة؟ فليت "الدلو" كان سليمًا، الماء كله يتسرب من الثقب الصغير بقاعه قبل أن يصل أرضه، ومع ذلك يعيد الكرة مرة ثانية وثالثة وعاشرة في صبر وجلد عجيبين.. دون أن تنال زراعته إلا النزر اليسير، تقدم منه صاحبنا ناصحًا:

- حتى الصباح ستظل تعمل دون أن تسقي زرعك، لماذا لاتقلد زميلك الأول.. أو حتى الثاني؟ العرق يتصبب منه لكن أرضه تروى على أي حال.

لم يرد عليه الرجل فتذكر الطبع الغريب، مضى وتركه يسير ويسير والدلو في يده.. يذرف الدموع أسى على ذلك الجهد الضائع. في المنزل

وجد زوجته غاضبة:

ـ لماذا تحشر نفسك في شيء لايخصك... ولاتفهمه؟ هذا الاعتراض نعتبره جريمة..!

أدهشه علم زوجته بما حدث، على أنه وعدها ألا يكرر ذلك، لكنه نسي الوعد.. بل نسي نفسه في نزهة أخرى، ذلك الفلاح لاشك مجنون.. هل يمكن أن يفعل أي عاقل ذلك؟، ماأعظم خسارته، حتى إنه لو حصد محصوله وهو بعد أخضر كالفلاح الثاني.. لاستطاع بيعه، وإن جاءت أرباحه أقل من الفلاح الأول.. الذي يجني قمحه بعد تمام نضجه، أقبل عليه بلا ترو:

ـ ماالذي تنتظر أن تكسبه من هذا العشب الصغير؟ ضيعت هباء مجهود الشهور الماضية كله..! كان في وسعك أن تنتظر بضعة أسابيع أخرى.

هذه المرة أيضًا لم يرد عليه الفلاح المسؤول، وظل يعمل منجله بلارحمة ولاأسف في العشب الأخضر الضئيل، أسرع إلى منزله وهو يدعو الله ألا تكون زوجته قد علمت بما كان، لكن منظر غضبها وبكائها أكد له أنها علمت، أفهمته أن هذه آخر مرة.. وأنه إذا كررها مرة ثالثة فهو لاشك مطرود من البلد، استطردت:

ـ كل شيء مقدر ومرسوم، يسير كالساعة.. أو كتعاقب الشمس والقمر.. هل تستطيع بنصيحتك أن تؤخر هذه أو ذاك ولو لثوان؟..

ظل في المنزل أيامًا لايخرج خوفًا من الغلط، حتى أصابه الملل، عاد للخروج وقد قرر أن يلجم جماح فضوله، كان معذورًا في المرة الثالثة، أي إنسان لايمكن أن يرى هذا ويسكت، زوجته نفسها لو رأته لتقدمت ناصحة، لقد استطاع أن يعوّد نفسه على كثير من التصرفات الشاذة.. لكن شذوذ اليوم فاق المعقول، كيف يتصور كل هؤلاء الناس أن الصخرة ستتحرك بهذه الطريقة.. وكل منهم يشد على هواه؟، أكثر من عشرين رجلاً.. يجذبونها بعشرين حبلاً.. كلٌّ في اتجاه..! كلٌّ يضيع مجهودات زملائه، فما تكاد تتحرك مع أحدهم سنتيمترات إلى الشرق.. حتى يجذبها آخر إلى الجنوب، ثم يعيدها ثالث إلى مكانها الأول بجذبه إياها إلى الغرب..! لم يدهشه أبدًا أنهم خلال ساعة كاملة لم يستطيعوا تحريكها قيد أنملة، الذي يدهش حقًا أنهم يأملون غير ذلك، أليس فيهم واحد فقط يدرك عقم المحاولة؟ أخيرًا لم يستطع صبرًا فصاح فيهم:

ـ بهذا الشكل لن تتزحزح الصخرة من مكانها أبدًا، لماذا لاتتحدون جميعًا وتجذبونها ناحية واحدة؟ لن تستعصي عليكم حينذاك فتذهبون بها إلى أي مكان تريدون..

لو كانت الصخرة العتيدة سمعت أو ردت لكانوا هم سمعوا أو ردوا، ظلوا مستمرين شدًا وجذبًا، بعد فوات الوقت أدرك الهوة التي تردى فيها، أسرع إلى منزله عدوًا لكن زوجته أبت أن تفتح له:

ـ لم يعد لك منزل ولازوجة ولا أولاد، بل لم يعد لك حياة هنا..!

ماذا؟ أهي مؤامرة اشترك فيها ضده جميع البائعين في المدينة؟ يبيعون لكل الناس فلماذا يرفضون طلبه هو؟ بل هم يكادون لايرفضون.. إنهم لايردون عليه أو يعيرونه أي التفات.. كما لو كان شبحًا لايرونه أو حشرة لايحسون بها، أو ربما أصبح بين دقيقة وأخرى رجلاً خفيًا.. هل هذا معقول؟ يكاد يهلك جوعًا والمدينة ملأى بما لذ وطاب.. بالمجان تقريبًا؟ وتذكر صديقه الأول بائع الفول ولكن.. الخسيس.. يتنكر هو الآخر للصداقة، حث قدميه.. ورغم ذلك وجد أنه حتى البائعين في أطراف المدينة قد وصلتهم أخبار المقاطعة، لم يأخذ منهم سوى.. الإعراض التام..!

عجبًا.. هل يحلم؟ فرك عينيه لكن المنظر ظل كما هو، هذه الشجرة الباسقة في الزاوية على حافة الترعة.. تشبه تمامًا تلك التي ألقى بنفسه من تحتها ذات يوم منذ أعوام، وخطر له خاطر لايدري أكان مصدره رأسه أم أمعاؤه التي تتلوى.. فارغة، لماذا لايكرر ماحدث من قبل.. ربما حلّ الإشكال على أي وجه، فعلها.. ترى من الذي انتشله؟ لاأحد بجواره في المسجد القديم سوى الشيخ العجوز، بيد أنه قطعًا أضعف من أن يستطيع ذلك، ولكن هذه الحقيبة في يده.. «إنها حقيبتي.. حقيبتي التي كانت تحوي أموالي وأوراقي.. والتي ابتلعها اليم من زمن طويل، ترى هل سيعترف بسهولة أنها تخصني.. أو يدعي أنها ملكه الشخصي؟ باستطاعتي رغم السنوات العديدة أن أذكر له بعض مابها كدليل» لكن الشيخ يقدمها إليه.. من تلقاء نفسه:

ـ حاجتك.. ماكان أغناك أن تسأل كل تلك الأسئلة، لكنك مازلت متطبعًا بطبائع الدنيا، متعودًا لعاداتها، وفي نفسك أطماعها وشهواتها، وإذن فلايوجد لك علاج..!

أي شيطان أخبره هو الآخر بما كان؟، غمغم:

ـ سألت برغمي، تصرفاتهم كانت تدعو للعجب، مع ذلك نصائحي كانت في صالحهم.

ـ بل لم تكن لتغير من الأمر شيئًا، فالأرزاق في يد الله وحده.. سبحانه وتعالى هو الرزاق الكريم، يرزق من يشاء بغير حساب ويمنع من يشاء، كذلك الأعمار محدودة بمواقيتها.. ولكل أجل كتاب، ومن جاء أجله ـ مهما كانت سنه ـ لايتقدم دقيقة ولايتأخر.

ضرب بيده على جبهته: ياإلهي!.. نعم.. نعم.. فهمت.. ولكن.. الصخرة الكبيرة.. ماهي؟

هي الدنيا..!، الكل يطمع فيها لنفسه.. مثلك، متعلق بها وطباعها تجري في دمك، لم تكن زاهدًا فيها أبدًا.. وإنما كانت أزمة عابرة، ونصيحتي كانت أن تتخفف من بعض لامن كل ماتملك، والناس أولى من البحر.

رغم السنين لم يتغير في الشوارع شيء.. ومنزله هو هو. ماكادت زوجته تراه حتى شهقت بدهشة، قطعا كانت قد فقدت الأمل في عودته.. أردفت:

ـ ألأني قلت لك لاتتأخر.. تعود بعد ساعة واحدة! كيف تظن بالله عليك أني في هذه الفترة القصيرة.. استطعت طهي السمك؟!.


الجزيرة
الجزيرة
تكفيك
المسائية
تثري
مساءك
تصدران يوميا عن: مؤسسة الجزيرة «للصحافة والطباعة والنشر»: ص.ب: ٣٥٤ الرياض: ١١٤١١ هاتف: ٤٠٢٥٥٥٥ .. تلكس ٤٠١٤٧٩ جزاتي اس جي.

فضل العرب في النهوض بالثقافة الإنسانية



تأليف: جوان فرنيت
عرض وتقديم: حلمو جلّول

الكاتب الإسباني جوان فرنيت، مؤلف كتاب «فضل العرب في النهوض بالثقافة الإنسانية»، رائد من رواد تاريخ إسبانيا العلمي والفلسفي، يعمل حاليًا استاذًا للفلسفة بجامعة برشلونة، وهو مهتم بالمسائل العربية، وبخاصة الثقافية منها، وله ترجمة للقرآن الكريم باللغة الإسبانية، ولكن اهتمامه الرئيس ينصب على تاريخ العلوم في القرون الوسطى، لاعتقاده أن دراسة تاريخ العلوم هي السبيل الذي تستطيع به تحليل وفهم الحضارة الإنسانية وتطورها، إذ تُمكننا من التعمق في إدراك مجالات المعرفة والوقوف على الإسهام الحضاري لكل أمة.

الكتاب الذي نحن بصدده يؤكد حقيقة دور المسلمين، وإسهامهم الحضاري الفعّال، بتسليطه الضوء على الدور الحضاري للعرب في الأندلس وربطه بالثقافة عامة وبتاريخ العلوم على وجه الخصوص. صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب باللغة الإسبانية، وترجمه إلى الفرنسية غبريال مرتيناس، وهو أيضًا من المهتمين بالتراث الإسلامي العلمي والثقافي، ويركز اهتمامه على الفترة الأندلسية.

يهتم المؤلف بدراسة إسهامات العلماء الأندلسيين من المسلمين واليهود والمسيحيين، وهو يقوم بالإشراف على فريق بحث يعمل في هذا المجال، ونشر مايقرب من مئتي بحث، وحقق عدة مخطوطات عربية كانت سندًا له في وضع كتابه الضخم «فضل العرب في النهوض بالثقافة الإنسانية»، ويعني بالعرب كل من كتب باللغة العربية. يمتاز الكتاب بكونه يلقي نظرة تاريخية على أعمال العرب الأندلسيين في قالب تحليلي علمي يتسم بالسهولة والبساطة في أسلوب العرض، مما ييسر الفهم للقارىء العادي. والإصدار يضاهي - من حيث الأهمية - كتاب جورج سارتون «في تاريخ العلوم» الذي ينوه فيه بموضوعية؛ بأعمال العرب العلمية، وبخاصة في الأندلس، ومدى تأثرها بالحضارتين الفارسية واليونانية وغيرهما، معتبرًا أن الحضارة الإنسانية كلٌ متكامل، وأن الثقافة الإسلامية في الأندلس إضافةٌ وتتمة لما سبقها، كما أن الحضارة الغربية الحالية متأثرة بالحضارات التي سبقتها والحضارة الإسلامية واحدة منها.

يكتسب كتاب فرنيت أهمية خاصة اليوم في ظل مايثار من جدل حول دور العرب في تقدم أوروبا، ودور المسلمين في ازدهار العلوم كالجبر والهندسة وعلم الفلك، وكيفية انتقال تلك العلوم التي كُتبت بالعربية في الأندلس إلى أوروبا.. ففضلاً عما هو ثابت ومؤكد، كما هو الواقع، في مجال العلوم الطبيعية الذي أبدع فيه العرب، وساهموا به في تطور الثقافة الإنسانية، هناك جوانب لم تنل بعد العناية الكافية من الدارسين، مثل مايتعلق بكشف مساهمة المسلمين في حساب اللامتهيات وبروز الكيمياء العلمية.

في الفصل الأول من الكتاب يتحدث فرنيت عن ظهور الإسلام، ولابد أن نشير إلى أن هذا الجزء من الكتاب لم يخلُ من تجاوز للحقيقة، وافتراءات ظالمة، وادّعاءات باطلة في مايخص حياة النبي صلى الله عليه وسلم، إذ يقدمه مؤلف الكتاب على أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يكن أميًا، كما هو ثابت، وإنما كان مُطّلعًا على الرياضيات والقسمة المصرية، كما يدعي المؤلف أن الرسول الكريم كان على علم بنظرية فيثاغورث!! ويمضي فرنيت في الفصل الأول من كتابه، فيقدم نبذة تاريخية عن عهد الخلافة الراشدة، والدولة الأموية، والعصر العباسي. ويذهب فرنيت إلى أن الثقافة العربية كانت توفيقية في البداية، ثم تحررت، وتطورت. كما يرى أن لظهور الفرق الدينية والسياسية، وجماعات علم الكلام دورًا في دفع الثقافة الإسلامية إلى الأمام. وكذلك ينوه بدور «بيت الحكمة» في الترجمة



حلمو جلول

- من مواليد الجزائر ١٩٣٥م.
- ليسانس في الأدب عام ١٩٦٥م.
- ليسانس في الفلسفة عام ١٩٦٨م.
- ماجستير في الفلسفة.
- يعمل حاليًا أستاذاً في جامعة الجزائر، ونائب مدير البحث العلمي.

والتأليف، والانكباب المسلمين على دراسة الفلسفة والطب والرياضيات والعلوم الأخرى.

في مايختص بتاريخ الإمارات العربية في الأندلس نجد أن المؤلف قد اعتمد على المؤرخين الإسبان والمسيحيين. ولكنه أكد أن أبرز المؤلفات كانت للعلماء العرب الأندلسيين. ويذهب فرنيت إلى أن عبدالرحمن الناصر حين قدم إلى الأندلس اصطحب معه علماء وكتبًا من المشرق. ويورد المؤلف أسماء عدد كبير من العلماء والمؤرخين الأندلسيين، في سياق التذكير بفترة الخلافة في قرطبة، التي تعد بداية ازدهار الحضارة الأندلسية، وثلاثة قرون من الوجود العربي الإسلامي، امتدت آثارها إلى افريقيا الشمالية وفرنسا وإيطاليا وألمانيا. ويشير فرنيت إلى أنه برغم انتشار الطوائف، واندلاع الحروب، إلا أن تلك الفترة كانت من أخصب الفترات، وأعمقها أثرًا في الثقافة والعلوم، حيث ظهر علماء أفذاذ كمسلمة المجريطي، وابن السمح، وابن وافد، وابن زهر، وابن باجه، وابن الطفيل، وابن رشد، وابن ميمون، وابن العوام، وابن البيطار.. وغيرهم.

الفصل الثاني من الكتاب، خصصه فرنيت لتتبع تأثير الحضارة اليونانية على الحضارة العربية التي أثرت بدورها في الحضارة الغربية المعاصرة، ومن الأمثلة التي أوردها في هذا الصدد، انتقال الأرقام العربية إلى اللغة اللاتينية، كما يشير إلى دور مترجمي الكتب القديمة في الصناعة والكيمياء، وترجمة كتاب «المبادىء» لإقليدس، وكتب أبقراط الطبية، والنشاط الملحوظ في حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وظهور بعض النصوص النقديّة ، وماواكب ذلك من الانتقال بالترجمة إلى تقنيات جديدة لتفادي الأخطاء.

الفصل الخامس من الكتاب يركز على العلوم في القرن الثاني عشر الميلادي، ويتوسع في تناول حركة الترجمة، وبخاصة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، ويشير فرنيت إلى جهود بعض الطلبة الذين كانوا يتلقون دراساتهم في الجامعات الأندلسية، ويشاركون بترجماتهم في انتشار العلوم العربية.

ويذكر فرنيت من بين أولئك الطلبة المترجمين، جيرار دي كريموني الذي شارك - أيضًا - في نقل الفلسفة الإغريقية إلى أوروبا، وعرَّف بأرسطو، وأرخميدس، وإقليدس. وقد اطَّلع مترجمو تلك الفترة الخصبة من تاريخ الأندلس على أعمال الفلاسفة المسلمين مثل الكندي، وابن سينا، وابن رشد الذي ترك بصمات واضحة على آراء عدد كبير من فلاسفة اليونان، حتى إنهم أسسوا مدرسة فلسفة باسم «الرشدية». ويحوي الفصل الخامس من كتاب «فضل العرب في النهوض بالثقافة الإنسانية» أسماء علماء وفلاسفة كثيرين في الأندلس، لم ينل بعضهم حظه من التعريف وكشف إسهاماته. كما يضم هذا الفصل جزءاً خاصًا يتحدث فيه المؤلف عن تأثير الفلاسفة العرب والمسلمين في الأوروبيين.

الفصل السادس من الكتاب يبدأ بالإشارة إلى علم الفلك، وتأثير كتاب أرسطو «في السماء والعالم» في علماء العرب، ويبحث في كيفية دخول هذا الكتاب إلى الأندلس، وطريقة انتشاره.

ويذكر المؤلف المناهج التي كانت سائدة آنذاك في العالم، وتطورها على يد العلماء المسلمين في الأندلس، ويبرز فرنيت في كتابه إسهام العرب في ترسيخ علم الفلك، وتطويره، مشيراً إلى أن هنالك عدداً هائلاً من المفردات العربية الخاصة بهذا العلم، انتقلت إلى اللغات الأخرى، فضلاً عن الإضافات التي أحدثها العرب باختراع مناهج جديدة.

كما يفرد المؤلف جانبًا من هذا الفصل للحديث عن علم البصريات، فيشيد بابن الهيثم، وتأثيره في العلماء الأوروبيين بنظرياته عن انعكاس الضوء، وسرعته، واستخدام العدسات، وكذلك يثبت فضل ابن الهيثم وتأثيره في روجي، الذي اعترف بأسبقية هذا العالم المسلم في ميدان البصريات.

ويتوسع فرنيت في استعراض إسهامات العرب والمسلمين في مجال الكيمياء، ويقدم نبذة تاريخية عن هذا العلم، ويأتي على ذكر كتابي المجريطي «غاية الحكيم» و «رتبة الحكيم»، ويُثبت دور ابن سينا، وجابر بن حيان، والرازي، والبيروني في تأسيس المنهج التجريبي، وربط علم الكيمياء بأصوله الهرمية. ويعيد المؤلف التأكيد على «أن العلماء المسلمين كانوا السباقين إلى الكيمياء الحديثة»، ويشير إلى بعض المفردات التي أدخلها العرب في علم الكيمياء، سواء بابتكار معدات جديدة، أو بما استحدثوه من مواد.

ويرى فرنيت أن القرن الثالث عشر كان من أزهى العصور بالنسبة لانتقال العلوم من الشرق إلى الغرب، وتفاعل الأوروبيين مع عطاءات الأندلسيين، كما يشير إلى أن تأثير العرب والمسلمين في ثقافة الغرب ظل مستمراً إلى القرن السابع عشر الميلادي.



مارك توين

عميد أدباء الفكاهة الأمريكيين

بقلم: أنور جعفر

في دنيا الظرف والظرفاء، وكُتّاب الفكاهة والسخرية في الغرب، أسماء كثيرة لامعة، أمثال سرفنتس، وسويفت، وأناتول فرانس، وفولتير، وجوجول، وتشيكوف، وأوسكار وايلد، وبرنارد شو، ومارك توين.

مارك توين ـ الاسم المستعار للكاتب الأمريكي الفكه صمويل لانجهورن كليمنس ـ كان يحتل مكانة سامقة كواحد من أعظم كتاب الفكاهة والسخرية في العالم، وقد كتب عنه فرانك بلدنزا أحد الدارسين المتعمقين لحياته وأدبه: "لقد تمتع مارك توين خلال حياته بشهرة عالمية لاتوازيها قط على الأرجح شهرة أي كاتب آخر، لقد كان يترصده طالبو توقيعه والمراسلون الخصوصيون، وكان يدعى دون انقطاع إلى أي نوع من المراسيم الاجتماعية التي يمكن أن تخطر على بال، ولقد كرمته جامعتا ييل وإكسفورد، وهتف له عمال أحواض السفن، وكان مخبرو الصحف يكثرون من زيارته ويلتمسون منه النصيحة في سائر الموضوعات، فأصبح ـ والحالة هذه ـ يعتبر نفسه سفيراً غير رسمي للعالم".

ووصفه ديل كارينجي بأنه "من أبرز العظماء الذين أنجبتهم الولايات المتحدة الأمريكية، وأنه يعد بحق أشهر أديب في جيله على الإطلاق، وأكثر الكتاب الفكهين حظوة بإقبال القراء في جميع الأزمان".

طفولة بائسة

ولد مارك توين في كوخ صغير، مكون من حجرتين في قرية فلوريدا الصغيرة، بولاية ميسوري في ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٣٥م، حينما لم يكن إلى الغرب من المسيسبي غير ولايتي ميسوري ولويزيانا؛ في ذلك الكوخ المظلم كان يسكن ثمانية أشخاص هم أفراد أسرة جون مارشال كليمنس وخادمتهم، وكان كليمنس هذا محاميًا قلقا فاشلا فاتر الهمة متوعك المزاج على الدوام، مولعا بالتنقل والأسفار، يشتغل بالمضاربات المالية الخاصة بالأراضي، إلى جانب المحاماة التي يبدو أنها لم تكن تفي بمتطلبات حياته وحياة أسرته الكبيرة العدد.

ولد مارك توين سقيما نحيلا بحيث يُظن أنه لم يكن مقدرا له أن يتجاوز الشتاء الأول حيًا، وفي سنة ١٨٣٩م ساءت أحوال الأب المالية وتخلى عنه الناس في فلوريدا، وسُدَّت أمامه أبواب الرزق، فحمل عصا الترحال وانتقل بأسرته إلى قرية أكبر هي قرية هانيبال - التي قدر لاسمها أن ينتشر ويشتهر بعد ذلك بفضل كتابات مارك توين عنها إذ كانت النبع الذي استمد منه أروع مؤلفاته على الإطلاق (توم سوير) و (هاكليبري فن) - ولم يكن سكان هانيبال آنذاك يتجاوزون خمسمائة نسمة.

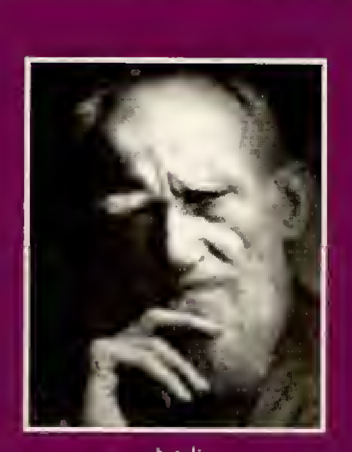
في تلك القرية تغلب مارك توين على ضعف بنيته؛ فألحق بمدرسة كانت قائمة في كوخ خشبي من جذوع الأشجار، وفي تلك السن المبكرة أصابه انحراف مزعج ميزه عن أخيه الكبير أوريون والصغير هنري، وصار مصدر متاعب لاحد لها لأمه جين لامبتن وأفراد أسرته، وقد أدت به مشاكساته تلك إلى سلسلة من الانفلاتات العجيبة، كان يمقت المدرسة أشد المقت، وعبر عن ذلك المقت بكثرة الهروب منها ومن المنزل أيضًا، وكثيرا ماكان يضبط وهو يهيم على وجهه على شواطىء نهر المسيسبي الذي استهواه وخلب لبه إلى حد أنه أشرف على الغرق أكثر من مرة وأنقذ في آخر لحظة.

في هانيبال صار ذلك الغلام النحيل الكبير الرأس الأحمر الشعر المتسخ دائمًا الممزق الثياب مشكلة مريرة، عرف بالمشاكسة وتدبير المقالب، فكم كان يدحرج الحجارة الكبيرة من على التل أمام العربات المتوجهة إلى الكنيسة يوم الأحد، وكم دبر المقالب الشيطانية للآخرين هنا وهناك في أنحاء القرية الهادئة، وكان يتعاطى التدخين، وكثيرا ماكان يعرض نفسه للمتاعب عن عمد لكي لايذهب إلى المدرسة، وفي تلك الفترة ظهرت عليه الأمارات الأولى للحساسية العصبية التي لازمته طوال حياته، والتي تمثلت في السير أثناء النوم والإحساس المتضخم بالإثم.

وفي سن الثانية عشرة من عمره أصيب بوفاة أبيه، وهنا انقطعت صلة مارك توين نهائيًا بالدراسة الرسمية المنتظمة، وكانت هذه السنوات القلائل من السادسة إلى الثانية عشرة هي كل ماحصله مارك توين من تعليم رسمي في حياته، ولكن فلتات العبقرية الكامنة في النفس لها طرقها ووسائلها التي تتيح للعبقري التعلم من كل شاردة وواردة تمر به في حياته.

علم نفسه بنفسه

لقد استطاع مارك توين الذي قُدِّر له أن يصبح أول كاتب أمريكي كبير يولد في غرب المسيسبي، وأحد أشهر كُتّاب أمريكا أن يعلّم نفسه بنفسه، وأن يواصل تثقيف نفسه تثقيفًا ذاتيا بالتهام كل كلمة مطبوعة تقع تحت أنظاره، بل وثقف نفسه بمجابهة الحياة ذاتها والتعلم في مدرستها.. يقول مارك توين: "عشت جنديا لمدة أسبوعين في أوائل الحرب (الأهلية الأمريكية) وكان يطاردني الهلع طوال الوقت، أجل وعملت في تحميل فضلات القضة في أحد المصانع قرابة أسبوعين، فحصلت أدنى مايمكن الحصول عليه من ثقافة أُميز بها الأشياء في هذا المجال، ثم اشتغلت في التنقيب عن الذهب، وعاد بوسعي أن أميز بين الخامات الغنية وغيرها بلمسة من لساني، وعقب ذلك اشتغلت لسنوات عديدة ملاحا في نهر المسيسبي


برنارد شو

فتعرفت عن كثب على جميع ملاحي القوارب النهرية وهم من طينة مختلفة عن باقي البشر، ثم أصبحت خطيبا في المحلات العامة لمواسم عدة، ودعيت إلى مختلف الموائد وذقت مختلف الأطعمة، فتجمع لديَّ نتيجة لذلك عديد من الأسرار عن طبيعة الجماهير، وهي أسرار لايمكن الحصول عليها من بطون الكتب، بل تأتي عن طريق التجربة فحسب، لقد سلخت عشرين عامًا في التأليف وخمسة وخمسين في الضياع، ولما

كانت التجارب الشخصية هي أثمن رأسمال أو ثقافة أو تعليم يمكن استخدامه في كتابة الرواية فإنني واجد نفسي حسن التهيؤ لهذه الصنعة، فأنا في الواقع أمتلك الوسيلة وثقافة واسعة كلها حقيقية وليس فيها ماهو مصطنع، إذ إنني لأعرف الأشياء من الكتب وحدها".

وإذا كانت الحياة العريضة بحلوها ومرها قد علمت مارك توين الكثير، فإن حرفة الطباعة التي امتهنها لوقت طويل كانت المعلم الأول له، إذ التحق وهو في الثانية عشرة من عمره متدربا بإحدى المطابع في هانيبال، فأتاح له

تشيكوف

عمله هذا وسط هدير آلات الطباعة والأحبار والورق وصفّ الحروف فرصة ذهبية لقراءة كل ماكان يقع في يده من كتابات وكتب، لم يكد يبلغ العشرين من عمره حتى كان قد استوعب أهم الأعمال الكلاسيكية في الأدب الإنجليزي.

ويحكي مارك توين حادثة طريفة حدثت له في صباه، فيقول: "خرجت ذات يوم إلى شوارع هانيبال كعادتي فرأيت قصاصة ورق ملقاة على قارعة الطريق فتناولتها وأخذت أقرأ مابها، وكان لهذا الحادث الصغير برغم تفاهته أقوى الأثر فيّ فيما بعد، لأن هذه القصاصة كانت عبارة عن صفحة من سيرة (جان دارك) المناضلة الفرنسية، واتفق أن هذه الصفحة كانت تسرد قصة سجنها وتعذيبها، فحركت المظالم التي قاستها الفتاة الباسلة مشاعري وجعلتني أتساءل عمن تكون جان دارك هذه؟ ولم أهتد إلى جواب بالطبع وقتها فلم أكن قد سمعت بها من قبل، ولكن منذ تلك اللحظة أخذت أبحث عما كتب عنها وألتهمه التهاما، وظل الشغف بسيرتها قويا جارفا في نفسي قرابة نصف قرن من حياتي إلى أن وضعت عنها بعد هذا الحادث بستة وأربعين عاما كتابا بعنوان "ذكريات عن جان دارك". والغريب أن مارك توين طبع هذا الكتاب ولم يضع اسمه عليه حتى لايشك الناس في جدية مقصده من تأليف هذه الذكريات عن جان دارك، إذ كان قد عرف بأنه كاتب ساخر فكه.

ويقول البرت بيجلو الذي بسط سيرة حياة مارك توين في أربعة مجلدات: "إن عثوره على هذه الصفحة من حياة جان دارك أيقظ فيه شغفا بدراسة التاريخ، وألهب فيه حب الإطلاع الذي لازمه طوال حياته".

روح المغامرة

في سن مبكرة استبدت بمارك توين روح المغامرة ولازمته هذه الروح طوال حياته التي تميزت كلها تقريبًا بطابع المغامرة وحب الأسفار في عصر مليء بالأحداث الجسام الواضحة المعالم في تاريخ أمريكا، كذلك استبدت به في سن مبكرة أيضًا حُمّى زيارة المناطق الغربية للعمل في الاستثمارات التجارية، وقد أدت به أولى إخفاقاته في هذا المجال إلى التفكير في الانتحار، ولكنه جبن عن جذب زناد المسدس، وفكر في السفر إلى البرازيل ليبدأ حياته من جديد، وفي الطريق التقى بالملاح "هوارس بكسبي" فقرر في الحال الالتحاق بخدمته لتعلم فن الملاحة النهرية تلك التجربة التي أتاحت له مع بعض ذكريات الصبا مواد شديدة الخصوبة والثراء لبعض كتبه العظيمة.

كان من الممكن لمارك توين أن يستمر في مهنة الملاحة النهرية إلى النهاية إذ كانت مهنة محببة إلى نفسه، لكن نشوب الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١م) وتوقف الملاحة في المسيسبي جعلاه يتحول من ربان سفينة إلى جندي مقاتل، ولكنه لم يلبث في الجندية طويلاً، إذ تمردت نفسه على الحرب التي رأى فيها شرا مستطيرا وحيوانية كريهة.. قال عنها: "إن تاريخ البشر لايعدو أن يكون سردا موجزا لقصة سفك دماء البشر". هجر الجندية وعلل ذلك بقوله: "كانت مشاهد القتلى تعذبني كل ليلة دون أن أستطيع التخلص منها أو إبعادها عن رأسي، وبدا لي أن نزع روح بريئة أمر حيواني كريه، ومع ذلك فقد كان هو الأساس الذي تقوم عليه فكرة الحرب، فكل حرب ليست إلا قتل مجموعة من الأغراب الذين لاتشعر نحوهم بأي عداء، ولو التقيت بهم في ظروف أخرى لكان من الممكن أن تقدم لهم يد العون أو تتقبل معاونتهم لو كنت في حاجة إليها".

أما أعنف ماواجهه من اتهام إلى الحرب ووحشيتها ولا إنسانيتها فهو دعاء الجندي الشهير، تلك المقطوعة الساخرة التي تقدم لنا صورة عارية فاضحة للعقلية العدوانية المتوحشة لكل من يسعى إلى إشعال الحروب..

يقول مارك توين: "ربّنا أعنّا على تمزيق جنودهم بقنابلنا، فتصير جسومهم شرائح

ملوثة بالدم، وأعنّا ربَّنا على أن نغرق قصف المدافع في طوفان من جرحاهم وهم يتلوّون ألما، وأعنا على تخريب بيوتهم المتواضعة، بإعصار فيه نار، وأعنا على حرمانهم المأوى فيهيمون على وجوههم مع أطفالهم الصغار بلا محب أو صديق وسط الخراب الذي نزل بأرضهم المهجورة في أسمال تمزقت شر ممزق جائعين صادين تلفحهم نار الشمس صيفا والرياح الثلجية شتاء، كسيري الخاطر وقد أضناهم التعب، ضارعين إليك أن تؤويهم القبور، ورحمة بنا نحن عبادك أعصف اللهم بآمالهم واجعل حياتهم وبالا عليهم، ومُدَّ اللهم في رحلتهم المريرة وأثقل خطاهم وارو طريقهم غدقا من دموعهم، ولطِّخ الثلج الأبيض بالدماء التي تنزف من أقدامهم الجريحة، اللهم أجب دعاءنا ولك المجد اليوم وإلى أبد الآبدين آمين".

تلك كانت رؤيته للحرب وللعدوان على الآمنين، وتلك كانت كراهيته للعنف وسفك الدماء، ولذا هجر الجندية واتجه إلى مشروعات خيالية فاشلة قضت على كل ماكان قد وفره من مال أثناء عمله ربانا في المسيسبي، فعاد إلى التشرد والصعلكة. ولاحت له وظيفة بسيطة في صحيفة "فرجينيا سيتي" بأجر لايتجاوز ٢٥ دولاراً في الأسبوع فقبلها مرغما، ولكنه صادف النجاح وسرعان ماحصل على سمعة صحافي فكه ومخبر برلماني بارع.

يقول مارك توين عن هذه الفترة: "عملت مخبرا صحفيا أربع سنوات رأيت خلالها أشياء كثيرة من الداخل، وعملت مندوبا في المجلس التشريعي دورتين، وفي الكونجرس دورة واحدة فتعرفت عن قرب إلى أعضاء ثلاث مؤسسات نموذجية كانت تضم أصغر العقول التي خلقها الله، وأكثر النفوس أنانية، وأشد القلوب جبنًا".

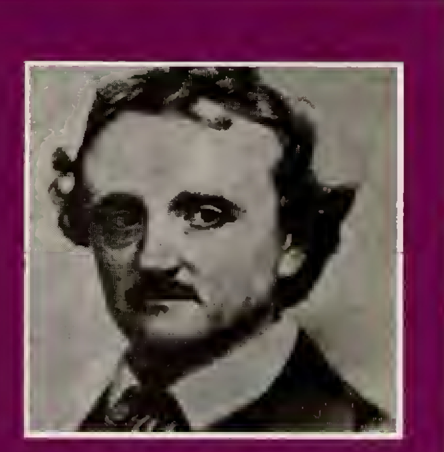
في نيفادا التي انتقل إليها مع شقيقه أريون الذي كان قد عين سكرتيرا للمقاطعة عمل مارك توين مراسلا متنقلا بينها وبين كاليفورنيا، ثم انتقل إلى صحيفة "مورننج كول" التي كانت تصدر في سان فرانسيسكو، وهناك انتحل لنفسه اسمه الذي اشتهر به في العالم أجمع (مارك توين)، وهو النداء الذي كان عساس السفينة النهرية يرفع به عقيرته في نهر المسيسبي معلنا أنها سالمة على عمق قامتين. وفي سان فرانسيسكو بزغت شمسه ووضحت بجلاء قدراته المذهلة على السخرية والفكاهة.. وفي هذه الفترة وقف بقلمه الساخر الحاد إلى جانب القضايا الإنسانية المحلية والعالمية، وقف ضد سائقي الأجرة وجشعهم واستغلالهم، ووقف مع قضية المهاجرين الصينيين، وضد استغلال الاستعمار للكنغو وشعبها، وضد استغلال عبيد الأرض (الأقنان) في روسيا.. ولكن تلك المعارك الحامية وغيرها انتهت بطرده شر طردة من الجريدة التي كان يعمل بها. لكنه أيضًا كان قد اشتهر في كل الأوساط ككاتب ساخر فكه، لكلماته القارصة أثرها القوي التي يجب أن يحسب لها ألف حساب.

مارك توين .. والأدب

دخل مارك توين عالم الأدب بعد أن صقله العمل الصحفي، وخلص أسلوبه من كثير من الشوائب والبثور التي كان يحشو بها كتاباته الصحفية الفكهة، كذلك اقتحم عالم الأدب مسلحًا بخبرة أسفاره الطويلة، وبموروث طويل من الخبرات والنماذج البشرية النابعة من البيئة الأمريكية، ذلك الموروث الثري الضخم الذي استطاع به أن يبعث الخصب في شكل القصة الأمريكية الطويلة، وبذا استحق عن جدارة أن يتميز عن الجيل الذي سبقه، واستحق أيضًا أن يبز معاصريه.

قال عنه أرنست همنجواي: "ينبع الأدب الأمريكي كله من كتاب واحد لمارك توين اسمه (هالكيبري فن)، كل الكتابات الأمريكية صدرت عنه فليس هناك شيء قبله، ولم يأت شيء بعده في مستواه".

ويقول ديل كارنيجي عنه: "لقد عاش توين ٧٥ عاما مثيرة ومات بعد أن كتب ثلاثة وعشرين كتابا، بعض هذه الكتب طواها

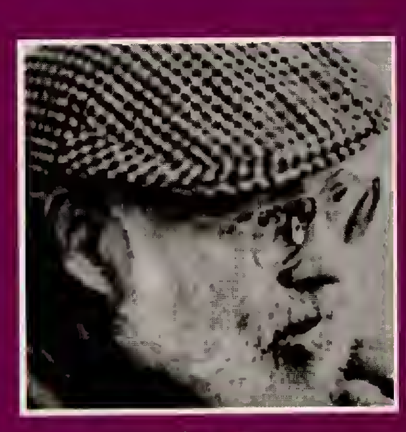


ادغار آلن بو

النسيان، ولكن كتابين منهما سيظفران بالبقاء في ذاكرة الأجيال وسيقرؤهما الصبيان والكبار في كل جيل دون أن يفقدا طلاوتهما، إنهما «توم سوير» و «هاكليبري فن» وقد ضمنهما مارك توين عصارة تجاربه بحيث يمكن القول: إنه لم يكتبهما وإنما انفجرا منه انفجارا".

والواقع أن أغلب مؤلفات مارك توين مستمدة بصورة مباشرة من اختباره الشخصي، وبهذا المعنى فإنه يمكن القول إن

كل كـتـابات ومـؤلفـات مـارك توين هي - بدرجات مـختلفـة - متـعلقة بسـيرة حياته أو مـاخبره بنفسـه من مـواقف وتجارب، ولهـذا يحـدد بعض النقـاد بداية الواقـعيـة في الأدب الأمـريكي بمارك تويـن، بل ويقـرر البـعض أن مارك توين هو رائد الرواية الأمـريكية، رغم أن مـارك توين لم يكن أول كـتـاب الرواية في أمريكا، إذ سبـقه في مـجال الرواية جيل من العمالقة أمثال: هيرمان ملفل، وأدجار ألن بو، ولكنهمـا كانا يبدعـان على النمط الأوروبي، أما مـارك توين فقد كان أمـريكيا صرفـا ابتدع



هيمنجواي

لنفسه طريقته ولغته من أرض أمريكا ولم تبهره أضواء أوروبا ولم يتأثر بها.

بعض نوادره وفكاهاته

قـال فاسـانت كورنـيل: "ضيع مـارك توين ثروة بعد ثروة في مشروعات مـختلفة وصفها أصـحـابهـا له بأنهـا كنوز لاتنفـد، وذات ليلة شاهد مارك توين رجلاً نحيلا أزرق العينين في وجهـه علامات الجـد مقبلا عليه وتحت إبطه جهاز غريب .. فكر مارك توين "إنه لاشك .. مخترع" وبالفـعل أخذ الرجل في وصف مزايا الجـهـاز الـذي يحـمله تحت إبطه عـلى حين أصـغى إليـه مـارك توين باهتـمـام بالغ، ثم هز رأسه واعـتذر إليـه فقـد لُدغ من قبل أكـثر من مرة.. ولكن الرجل صاح به "إنما أطلب منك أن تستـثـمر مالك في كنز كبـير ولك أن تأخذ أيّ نصيب تريد بمبلغ ٥٠٠ دولار فـقـط" فهز مارك تويـن رأسه ثانيـة واعتذر وهو يـقول في نفسه "هذا الاختـراع لامعنى له ولافائدة منه" وهمّ الرجل الطويل النحيل بالخروج فصاح به مـارك تـوين: "ألا تذكـــر لي اســمـك على الأقل؟" فـقـال له المخترع الحزين: "اسـمي.. الكسـندر جـرهام بل" . وهكذا ضـيّع مـارك توين بحق كنزاً لاينـفد، إذ كـان الذي يتـأبطه الرجل هو أول هاتف في العالم.

وكتب مارك توين في مـذكراته "لقيت مرة هنري أرفنج الممـثل الإنجليـزي المشـهـور في مـأدبة غـذاء، فمـال عليّ وسـألني "أسـمـعت القصـة التي يتندر بها الناس عن فـلان.. فشق عليّ أن أقـول لا ولكنـني قلتـهـا، فـبـدأ يروي القصة ثم كفّ وسألني ثانيـة فتمالكت نفسي وقلت لا.. لم أسمعها فمضى يقص ولكنه لم يلبث أن التفت إليّ وسألني للمـرة الثالثة أواثق أنت؟ فقلت له في وسعي أن أكذب من أجل المجـاملة مـرة أو مـرتين ولكنني لاأسـتطيع أن أكذب ثلاثا كائنا ماكان السبب، فقد سمعت هذه القصـة بأصاحبي لأنـني أنا الذي لفقـتـها وهذه هي الحقيقة".

قـال مارك توين يومـا لـبعض معـارفه بجـد شديد "كان ترك التدخين أسهل مافعلت وإني بذلك لخبير.. فقد فعلته ألف مرة".

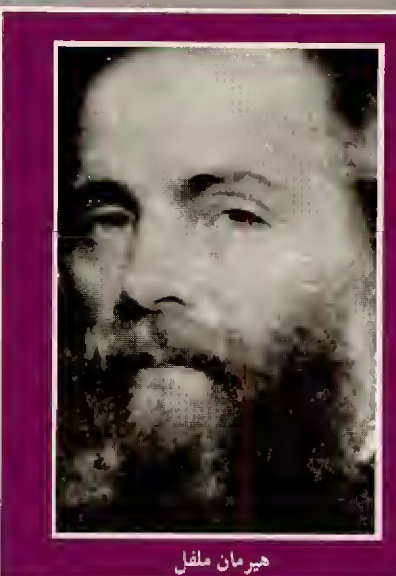
وعن التدخين حكى مارك توين هذه النادرة "يزعم الذين يتـوهـمـون أنهم يعـرفـون دخـائل حياتي أن السيجار الذي أدخنه هو أسوأ أنواع السيجـار في العـالم، ولكن الوهم ختـال، فقد دعـوت ذات ليلة عـشـرة من أصـدقـائي إلى العشاء، وكان لي صديق مشهور بأنه لايدخن سوى أفـخر أنواع السيـجار وأغـلاه، فذهبت قبل موعد العشاء أزوره وأدعوه، ولما وثقت أن العين غافلة عني أخذت مجموعة من سيجاره الفاخـر هذا ودسستـها في جيـبي، وكان على كل سيـجـار منها ورقـة مذهبـة تدل على نبل أصل هذا السيجار وفرط فخامته، فأزلت هذه الورقات من عليها وأفرغت صندوق سجائري من مـحـتـواه ووضـعت بدلا منهـا هذا النوع الفاخر، وبعد العشاء أدار الخادم السيجار على المدعـوين فـأخـذ كل منهم سيـجـارا وجـعل يدخنه بـاشـمـئـزاز وهو كـاره، وبعـد قليل استأذنوا في الانصراف معتذرين بأعذار شتى، فلما خرجت من بيتي في الصباح وجدتهم قد طرحـوا السـيـجـار الذي قدمتـه لهم بين بابي والشارع ماعدا رجلاً واحـداً وجدت سيجاره مطفأ في منفضته على مائدة الطعام، وكان هو الرجل الذي سرقت منه سجـائره الفاخرة التي قدمتها لضيوفي بعـد نزع ماعليها من علامات تدل على نبل أصلها، وقد التقيت بهذا الرجل بعد عـدة أيام فقال لي "إنك يـاسام خليق بك أن تلقى حـتـفك يومـا على يد رجل تقـدم له مثل هذا السيجار الفظيع الذي قدمتـه لنا بعد العشاء منذ أيام".

نموذج فريد للعصامية والصمود

عاش مارك توين حياة مـرحة محزنة، ورغم أنه أشـــاع المرح والضـــحك في كل مـكان حـضـره، إلا أنه كـان في ذات الـوقت يعـاني الكثير من الآلام والأحزان الدفينة، تلك المعاناة التي بدأت معه منذ طفولته ولم تدعه في شبابه ولا في كبره.

حتى وفي شيـخوخته وأوج شهـرته نجده قد تعرض للكثير من المآسي والأحزان التي زلزلته،

ولكنه ظل متماسكًا صلبًا، فقد ابنه الأول عقب ولادته، وأصيب الثاني بالالتهاب الرئوي، وفي أثناء رحلة له بالخارج توفيت أعز بناته، وفي عام ١٩٠٥م مرضت زوجته الوفية الأثيرة التي تزوجها في صدر شبابه ورافقت رحلة كفاحه المرير رغم أنها كانت ابنة أحد كبار التجار بنيويورك، وعلى ما كان بينهما من اختلاف في نظرتهما إلى الحياة والدين والمجتمع فقد نعما بحياة زوجية سعيدة هادئة لأنهما كان يتبادلان الحب العميق، قال عنها في أكثر من مناسبة: "إن السنوات التي قضيتها مع زوجتي أوليفيا كانت أشبه بالحلم" ولما مرضت كاد مارك توين يفقد عقله فراح يتنقل بها بين البلاد عسى أن يجد لها طبيبا يداويها أو يكون تبديل الهواء مفيدا لها حتى انتهى به المطاف في إيطاليا، وعبثا حاول الأطباء إنقاذها ولكنها قضت نحبها هناك، فكتب في مذكراته "في الساعة التاسعة والربع من مساء ٥ حزيران/ يونيو سنة ١٩٠٥م انتقلت إلى السماء زوجتي أوليفيا فانتقلت معها روحي وبقي جسدي على الأرض".


هيرمان ملفل

بعد هذه الصدمة الشديدة، التي تركته ذاهلاً، بأعوام توفيت ابنته الحبيبة إلى قلبه جين، ولكنه - رغم كل هذه المآسي - ظل كما هو الإنسان البسيط الذي يرسم البسمة على الشفاه، المحب للبشر، المتواضع جداً.

داعبه مرة أحد الأصدقاء بقوله: "لقد حدثتنا كثيرا عن رغبتك في الانتحار، فلماذا لاتقدم عليه؟ فأجابه مارك توين "يوم ولدت عام ١٨٣٥م ظهر نجم في السماء قيل لي إنه سيظهر مرة أخرى عام ١٩١٠م، وأنا أترقب هذه السنة بشوق لأنني أعلم أنني سأموت فيها عند ظهور ذلك النجم".

وفي ٢٠ نيسان/أبريل ١٩١٠م أصيب توين بنوبة قلبية شديدة بينما كان على ظهر باخرة تقله إلى أمريكا، وبعد إسعافه قال بصوت خافت لصديقيه اللذين كانا بجواره: "ماذا في صحف اليوم؟" ونشر أحدهما الصحيفة التي في يده وقرأ فيها ماكان مكتوبا بخط كبير "عودة ظهور المذنب هالي" وفي مساء ذلك اليوم مات مارك توين الطبيب الفكه الذي ملأ الدنيا (بقفشاته) وكتاباته الساخرة وعلى وجهه ابتسامة تنم عما كان في قلبه من سرور للحاقه بزوجته.

حقًا لقد كان هذا الكاتب العصاميّ الذي علّم نفسه بنفسه نموذجًا فريدًا في إثبات قدرة الإنسان على تحقيق طموحاته ورفعة شأنه مهما واجه من صعاب ومتاعب ومعوقات، شرط التسلح بطيبة القلب وصفاء النفس والتواضع.. وقبل هذا كله.. الإصرار والدأب.

أهم كتب مارك توين

١- مكابدة الضنك نشر عام ١٨٧٢م
٢- العصر المذهب نشر عام ١٨٧٣م
٣- مغامرات توم سوير نشر عام ١٨٧٦م
٤- جواب في الخارج نشر عام ١٨٨٠م
٥- الأمير والفقير نشر عام ١٨٨٢م
٦- الحياة على نهر المسيسبي نشر عام ١٨٨٣م
٧- مغامرات هالكيبري فن نشر عام ١٨٨٥م
٨- أمريكي من كونكتكت في بلاط الملك آرثر نشر عام ١٨٨٩م
٩- بودنهد ولسن نشر عام ١٨٩٤م
١٠- ذكريات عن جان دارك نشر عام ١٨٩٦م
١١- متابعة خط الاستواء نشر عام ١٨٩٧م
* وبعد وفاته نشر (الغريب الغامض) بناء على نصيحة زوجته لما فيه من صراحة شديدة مزعجة.

ثبت المراجع:

١- فرانك بلدنزا - مارك توين (حياته وأدبه) - ترجمة جميل سعيد - المكتبة العصرية/بيروت.
٢- ماركوس كلنيف - أدب الولايات المتحدة - ترجمة سامي فهمي القليوبي - سلسلة الألف كتاب ٥٥٨ - سجل العرب/ القاهرة.
٣- فورستر وفوك - ثلاثة قرون من الأدب ج٢ - إشراف جبرا إبراهيم جبرا - مكتبة الحياة/بيروت.
٤- ويليس ويجر - الأدب الأمريكي - دار المعارف بمصر.
٥- لويس د.أروي (الابن) - معالم الثقافة الأمريكية.
٦- هنري ودانالي توماس - أعلام الفن القصصي - ترجمة عثمان نويه - الكاتب العربي/ القاهرة.
٧- ديل كارنيجي - الخالدون - سلسلة كتابي/ القاهرة.

دائرة المعارف

اللباس في صدر الإسلام (١)

إعداد : عبدالحميد حسانين حسن علي

(أ)

الإزار: هو لباس الجسد، وهو لباس الرجال والنساء على حد سواء، ويُلبس أسفل الجسم، وذكر أصحاب "لسان العرب" و"محيط المحيط" و"ترتيب القاموس المحيط" أن الإزار هو المِلْحَفَة، وجاء أيضًا في معنى الإزار أنه كل ماواراك وسترك، وكذلك جاء في "المعجم الوسيط" أن الإزار: "ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن"(١)، والإشارات في الحديث النبوي إلى الإزار كثيرة، ومن ذلك ماجاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: «ماأسفل من الكعبين من الإزار ففي النار»(٢)، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه، لاجناح عليه فيما بينه وبين الكعبين، أما أسفل من ذلك ففي النار، لاينظر الله يوم القيامة إلى من جَرَّ إزاره بطرا"(٣).

(ب)

البَتُّ: هو من لباس الجسد، وذكر ابن منظور: أنه كساء غليظ مهلهل، مُربَّع أخضر، وقيل هو من وبر وصوف، وقال الأزهري في "التهذيب": "هو ضرب من الطيالسة يُسمى الساج، مربع غليظ أخضر"، وذكر الجوهري: "أنّ البَتَّ هو الطيلسان من خزّ ونحوه"(٤)، وفي الحديث ماروُي عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ حين سئلت عن صلاة النبي صلى الله عليه وسلم قالت: "ومارأيته يتّقي عن الأرض بشيء قط، إلا أني أذكر أن يوم مطر ألقينا تحته بتًا، فكأني أنظر إلى خَرْقٍ فيه ينبع منه الماء"(٥)، والبتُّ ليس في الثياب التي تُفصَّل وتخاط، بل هو أشبه بالرداء يوضع على الكتفين.

البِجَاد: من لباس الجسد، وجاء في "محيط المحيط"، و"الصحاح"، و"لسان العرب"، و"المعجم الوسيط" أن البجاد: كساء مخطط من أكسية الأعراب"(٦)، وقد ذكر ابن الأثير أن النبي صلى الله عليه وسلم أطلق على عبدالله بن نهم "ذا البجادين"؛ لأنه حين أراد المسير إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قطعت أمه بجادًا لها، فاتّزر بواحد وارتدى الآخر(٧)، وفي "البجاد" يقول امرؤ القيس:

كأن ثَبيرًا في عرانين وَبْلِه
كَبيرُ أناسٍ في بِجَادٍ مُزَمّل(٨).

البُرْدُ: من لباس الجسد، وهو ثوب مخطط ويستعمل للرجال والنساء، وتُعَدُّ حضرموت ونجران من أهم مصادر صناعة البرود، وتلك البرود منها الأحمر والأخضر، وهو من الأكسية غير المخيطة(٩)، وفي الحديث ماروي عن أنس بن مالك حيث قال: "كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه بردٌ نجرانيّ غليظ الحاشية"(١٠)، وفي ذلك أيضًا ماروي عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه رأى على أم كلثوم - رضي الله عنها - بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بُردَ حرير سِيَرَاء(١١).

البُرْدَة: من لباس الجسد، وقيل: إن البردة كساء يُلتَحف به، وهو كساء مربع أسود تلبسه الأعراب(١٢)، وقيل أيضًا: إنه كساء مخطط يُلتَحف به(١٣)، وجاء في "مختار الصحاح" أنه: كساء أسود مربع فيه صِغَرٌ تلبسه الأعراب(١٤)، وذكر الجوهري في الصحاح أنه كساء أسود مربّع، فيه صورٌ تلبسه الأعراب(١٥). وروي أنه جاءت امرأة ببُردَة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قالت يارسول الله: إني نسجت هذه بيدي أكسوكها، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم، محتاجًا إليها، وإنها إزاره(١٦).

البُرْقُع: من لباس الوجه، وقد جاء في "محيط المحيط" أن البرقع خريقة تثقب للعينين، تلبسها الدواب ونساء الأعراب، فتستر الوجه فقط، وجاء في "المعجم الوسيط" أنه قناع النساء والدواب، وكذلك "ترتيب القاموس المحيط"(١٧). وذكر الجوهري في "الصحاح"(١٨) أن البُرْقُع والبُرْقُوع للدواب ولنساء الأعراب، وذكر قول الشاعر النابغة الجعدي يصف خَشْفًا:

وَخدٍ كبرقوع الفتاة مُلَمَّع
وَرَوْقَين لَمّا يَعْدُوا أنْ تقشَّرَا(١٩)

البُرْنُسُ: من لباس الجسد، وهو كل ثوب رأسه منه ملتزق به، هكذا جاء في "ترتيب القاموس المحيط"، و "المعجم الوسيط"، وزاد عليه الجوهري في "الصحاح" أنها قلنسوة طويلة، كان النُسَّاك يلبسونها في صدر الإسلام" أ.هـ.، وذكر ابن منظور في "لسان العرب" أنه: كل ثوب رأسه منه ملتزق به، دُرَّاعةً كان أو مِمْطرًا، أو جُبَّة(٢٠)، وقد روي عن وائل بن حجر الحضرمي وهو من ملوك اليمن، جاء يبايع النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام، أنه صلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى الناس ثياب فيها البرانس والأكسية(٢١).

والبرنس، يصنع من الخز(٢٢) كما يتخذ من غيره من الأنسجة، وله ألوان منها الأصفر والأغبر، فقد كان أنس بن مالك - رضي الله عنه - عليه برنس أصفر من خزٍّ(٢٣)، كذلك فقد لبس أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ويدعى وابصة بن معبد البرنس الأغبر(٢٤).

(ت)

التُبَّات: من لباس الجسد، ذكرت معظم المعاجم العربية أن التُبَّات: سراويل صغير يستر العورة المغلظة، ومقداره شبر، ويكون للملاحين(٢٥).

(ث)

الثَوْب: من لباس الجسد، وهو مايلبسه الرجال والنساء من اللباس، فهو ليس لباسًا مخصوصًا بعينه، والثوب يكون من الكتان والقطن والصوف والحرير(٢٦). وقد ورد ذكر «الثوب» في أكثر من موضع في القرآن الكريم، ومن ذلك: ﴿عاليهُمْ ثياب سُندُسٍ خُضْرٌ وإسْتَبْرَق﴾ (الإنسان: ٢١)، وكذلك: ﴿وَثيَابَكَ فَطَهِر﴾ (المدثر: ٤)، وكذلك ورد في الحديث الشريف قول النبي صلى الله عليه وسلم: «البسوا ثياب البياض فإنها أطهر وأطيب»(٢٧)، ولقد لبس الرسول صلى الله عليه وسلم الثوب الأخضر(٢٨).

(ج)

الجُبَّة: من لباس الجسد، وهي ضرب من مقطعات الثياب، تلبس، وهي ثوب سابغ واسع الكمين، مشقوق المُقدَّم، يلبس فوق الثياب، وذكر صاحب "محيط المحيط" أنه ثوب مقطوع الكم طويل، يلبس فوق الثياب(٢٩).

والجبة تصنع من السندس والديباج والصوف، والروايات التي ذكرت فيها الجبة في كتب الحديث كثيرة، ومن ذلك ماروي عن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ وعليه جبة شامية(٣٠)، وكذلك ماروي عن عُبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج علينا ذات يوم وعليه جبة روميّة من صوف، ضيقة الكمين، فصلى بنا فيها ليس عليه شيء غيرها(٣١).

الجِلْبَاب: لباس الجسد، وقد ذكر الجوهري في "الصحاح" أن الجلباب بمعنى الملحفة(٣٢)، وقد ذكر قول جنوب أخت عمرو ذي الكلب، وهي ترثي أخاها القتيل:

تمشي النسورُ إليه وهي لاهيَةٌ
مَشْيَ العذارى عليهنَّ الجلابيبُ(٣٣)

كما ذكر صاحب "لسان العرب" بأن الجلباب: "القميص، وكذلك ثوب أوسع من الخمار، دون الرداء، تغطي به المرأة رأسها وصدرها، وقيل هو ثوب واسع دون الملحفة تلبسه المرأة، وقيل هو الخمار، وفي حديث أم عطية: لِتُلْبِسْها صاحِبَتُها من جلبابها، أي إزارها"(٣٤)، وجاء بهذا المعنى في معجمي: "ترتيب القاموس المحيط"، "محيط المحيط"(٣٥).

وقد أشار القرآن الكريم إلى الجلباب في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النبيُّ قُلْ لأزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ المؤْمنينَ يُدْنينَ عَلَيهنَّ من جلابيبِهنَّ﴾ (الأحزاب:٥٩)، وقد جاء في الحديث مارُوي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: "كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مُحْرِمات، فإذا حاذوا بنا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها"(٣٦).

الجَوْرَبُ: من لباس القدم، وهو لفافة الرجل، وهي كلمة معربة من الفارسية «كَورَب»(٣٧)، وفي الحديث الشريف ماروي عن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ قال: توضأ النبي صلى الله عليه وسلم على الجوربين والنعلين(٣٨).

(ح)

الحَبَرَة: من لباس الجسد، وهي ضرب من برود اليمن مُنَمَّر(٣٩)، وقد أورد الأزهري في "تهذيب اللغة" عن "الليث": "برود حبرة ضرب من البرود اليمانيّة، وليس حبرة موضعًا أو شيئًا معلومًا، إنما هو وشْيٌ، كقولك ثوب قرمز، والقرمز صبغة"(٤٠)، والحبرة كانت من اللباس المحبب لدى الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد ورد في الحديث عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قوله: كان أحب الثياب إلى النبي صلى الله عليه وسلم الحَبَرَة(٤١).

الحُلَّةُ: من لباس الجسد، أورد الأزهري تعريف أبي عبيد للحلة، فيقول: "الحلل: برود اليمن، من مواضع مختلفة منها، والحلة إزار ورداء، لاتُسمَّى حلة حتى تكون ثوبين"(٤٢) وبهذا المعنى أيضاً جاء الصحاح، وصاحب "محيط المحيط"، و"المعجم الوسيط"(٤٣).

ومصادر الحديث فيها إشارات كثيرة إلى الحلة، ومن ذلك ماروي عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في حُلة حمراء(٤٤)، وقد أهدى ملك "ذي يزن" إلى النبي صلى الله عليه وسلم حلة قيمتها ثلاثة وثلاثون بعيرًا أو ناقة(٤٥)، كما أهدى النبي صلى الله عليه وسلم حلة إلى ذي يزن وكذلك إلى النجاشي(٤٦).

الحَوْتَكِيَة: هي عِمة يتعمم بها الأعراب يسمونها بنفس الاسم(٤٧)، وفي الحديث مارُوي عن العرباض بن سارية(٤٨) ـ رضي الله عنه ـ قوله: كان

النبي صلى الله عليه وسلم يخرج علينا في الصُّفَّة وعلينا الحوتكية(٤٩).

(خ)

الخُفّ: من لباس القدم، والخُفُّ: واحد أخفاف البعير، والخف واحد الخفاف التي تلبس، والخفُّ يلبس في الرجل سُمِّي به لخفته، وهو شرعًا مايستر الكعب، ويمكن السفر أو المشي به فرسخًا فما فوق(٥٠)، وفي المثل: "رجع بخُفَّيْ حُنَيْن"، ويضرب عند اليأس من الحاجة، والرجوع بالخيبة، وفي الحديث ماروي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يُمشى في خف واحدة أو نعل واحدة(٥١).

الخِمَار: لباس الرأس، وكل ماستر شيئًا فهو خماره(٥٢)، وهو ماتغطي به المرأة رأسها، وجاء في الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ﴾ (النور:٣١)، أي تضرب المرأة بخمارها على جيبها، لتستر صدرها.

الخميصة: من لباس الجسد، عرَّف ابن منظور الخميصة بأنها ثوب خز أو صوف معلّم، ولاتسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلّمة(٥٣)، وعرَّفها صاحب "محيط المحيط" بأنها كساء أسود مُربَّع له عَلَمان، وذكر أيضًا أن الخميصة ملاءة من صوف أو خز معلمة، فإن لم تكن معلمة فليست بخميصة، وذكر أنها تسمى خميصة لأن الإنسان يشتمل بها، فتكون عند خمصه، أي وسطه، وقال الأعشى يصف زنجية:

إذا جُرِّدت يومًا حسبت خميصة

عليها وجربال النضير الدُّلامصا(٥٤)

وفي الحديث ماروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استسقى وعليه خميصة سوداء(٥٥).

الخنيف: من لباس الجسد، وهو ثوب أبيض غليظ من أردأ الكتان(٥٦)، وذكر ابن منظور أن الثوب الخنيف رديء، ولايكون إلا من الكتان، وذكر قول الشاعر:

وأباريق شبه أعناق طير الماء

قد جيب فوْقَهُنَّ خنيف

وذكر أيضًا ابن منظور أنه جاء في الحديث أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أحرق بطوننا التمر، وتخرقت عنا الخنف(٥٧).

الخَيْشَة: من لباس الجسد، وقد ذكر ابن منظور أن الخيش، ثياب رقاق النسج غلاظ الخيوط، وذكر شعرًا:

وأبصرْتُ ليلى بين بُرْدي مَراجلٍ

وأخياش عَصْبٍ من مُهَلْهَلَةِ اليَمن(٥٨)

وذكر صاحب "محيط المحيط" أن الخيشة: ثياب في نسجها تخلخل، وخيوطها غلاظ من مشاقة الكتان، أو من أغلظ العصب، أي شجر اللبلاب(٥٩)، وفي الحديث ما روي عن عتبة السلمي: استكسيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكساني خيشتين(٦٠).

(د)

الدِّرْعُ: من لباس الجسد، وهو قميص المرأة، وهو أيضًا الثوب الصغير، تلبسه الجارية الصغيرة في بيتها(٦١)، وقيل أيضًا ثوب تجوب المرأة وسطه، وتجعل له يدين وتخيط فرجيه(٦٢).

والدرع كان لباسًا ضروريًا في الصلاة بالنسبة للنساء، فكانت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ تصلي في الدرع والخمار(٦٣)، وفي الحديث ماروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم: «النائحة إن لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة، وعليها سربال من قطران ودرع من جَرَب»(٦٤).

(ر)

الرِّداء: من لباس الجسد، قيل الرداء من الملاحف(٦٥)، وقيل إن الرداء حين يلبس، فإنه يوضع على المنكبين ومجتمع العنق(٦٦). وفي الحديث ماروي عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ حيث تقول: دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي، في إزار ورداء(٦٧)، وقد لبس الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الأردية المشهورة مثل: الرداء النجرانيّ، والحضرمي(٦٨)، وكذلك ملابس الإحرام تتكون من الإزار والرِّداء(٦٩).

الرَّيطَة: من لباس الجسد، قيل إنها كل ملاءة غير ذات لفقين، أي قطعتين متضامتين كلها نسجٌ واحد وقطعة واحدة، وقيل كل ثوب لين رقيق يشبه الملحفة(٧٠)، وقد قال الشاعر علقمة بن عبيدة:

وحار بعد سواد الرأس جمته كمعقب الريط

وفي الحديث ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الريطة من لباس أهل الجنة، وذلك في حديثه عن يوم القيامة(٧١).

(س)

السراويل: من لباس الجسد، وهو لباس يستر العورة، وهي كلمة معربة عن الفارسية «شلوار» بمعنى الإزار، وقيل لباس يغطي السرة والركبتين ومابينهما(٧٢)، وقد أشارت كتب الحديث إلى السراويل، ومن ذلك ماروي عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: «كان على موسى يوم كلمه ربه، كساء صوف وسراويل صوف»(٧٣)، وأيضًا لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لباس المحرم، قال: «لايلبس القميص ولا السراويل»(٧٤).

السِّربال: من لباس الجسد، وهو القميص والدرع، وقيل كل مالُبس فهو سربال(٧٥)، وأشار "القرآن الكريم" إلى السربال بصيغة الجمع فقال تعالى: ﴿وجعل لكم سَرَابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسَكُم﴾ (النحل:٨١)، وقوله تعالى: ﴿سَرَابيلُهُم من قَطِرَان﴾ (إبراهيم:٥٠)، وفي الحديث ماروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة، وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب»(٧٦).

الهوامش والمراجع:

١ـ مادة (أزر) في لسان العرب، ترتيب القاموس المحيط، محيط المحيط، المعجم الوسيط.
٢ـ البخاري: ٢١٨٢/٥.
٣ـ ابن حنبل: ٤٨٢/٣، أبو داود: ٥٩/٤.
٤ـ مادة (ب ت ت) في الصحاح للجوهري، لسان العرب، ترتيب القاموس المحيط، المعجم الوسيط.
٥ـ ابن حنبل: ٥٨/٦.
٦ـ مادة (ب ج د) في لسان العرب، الصحاح، المعجم الوسيط.
٧ـ المعارف لابن قتيبة، ص:٣٢٢.
٨ـ ثبير: جبل مكة، عرانين: جمع مفرده عرنين وهو أول كل شيء، والمعنى كأن هذا الجبل في أوائل سقوط المطر، عليه كبير قوم، ملتف بثوب مخطط حين غشيه غثاء السيل.
٩ـ مادة (ب ر د) في الصحاح، لسان العرب، ترتيب القاموس المحيط، محيط المحيط، المعجم الوسيط.
١٠ـ البخاري: ٢١٩٦/٥، الطبقات الكبرى: ٤٥٨/١.
١١ـ البخاري: ٢١٩٦/٥، والسِّيراء: ضرب من البرود فيه خطوط صُفْر.
١٢، ١٣، ١٤، ١٥ـ مادة (ب ر د) في المعجم الوسيط، لسان العرب، مختار الصحاح.
١٦ـ البخاري: ٧٣٧/٢، الطبقات الكبرى: ٤٥٤/١.
١٧ـ مادة (ب ر ق ع) في ترتيب القاموس المحيط، محيط المحيط، المعجم الوسيط.
١٨ـ راجع أيضًا المادة السالفة الذكر في الصحاح للجوهري.
١٩ـ الخشف: بضم الخاء وكسرها وفتحها هو ولد الظبية أول مايولد، الروقان: قرنا الدابة، ويقال: رَوْق البيت مُقَدمه.
٢٠ـ انظر في ذلك بالترتيب المذكور مادة (ب ر ن س) في: المعجم الوسيط، الصحاح، اللسان.
٢١ـ ابن حنبل: ٣١٩/٤.
٢٢ـ الخزّ: اسم دابة، ثم سُمّي الثوب المتخذ من وبرها خزّ. والخزّ من الثياب مانسج من الصوف والحرير، أو من الحرير فقط.
٢٣ـ البخاري: ٢١٨٦/٥.
٢٤ـ أبو داود: ٢٤٩/١.
٢٥ـ راجع مادة (ت ب ن) في لسان العرب، المعجم الوسيط.
٢٦ـ انظر في ذلك مادة (ث و ب) في لسان العرب، ترتيب القاموس المحيط.
٢٧ـ البخاري: ٢١٩٣/٥، الطبقات الكبرى: ٤٤٩/١.
٢٨ـ الترمذي: ١١٩/٥.
٢٩ـ راجع مادة (ج ب ب) في لسان العرب، محيط المحيط، المعجم الوسيط.
٣٠ـ البخاري: ١٤٢/١ ـ ١٤٣.
٣١ـ أبو داود: ٣٨/١.
٣٢ـ انظر مادة (ج ل ب ب) في الصحاح.
٣٣ـ العذارى جمع، مفردها عذراء، وهي البكر.
٣٤ـ انظر مادة (ج ل ب ب) في لسان العرب.
٣٥ـ راجع المادة السابقة في ترتيب القاموس المحيط، محيط المحيط.
٣٦ـ أبو داود: ١٦٧/٢.
٣٧ـ مادة (ج و رب) في معاجم العربية: الصحاح، لسان العرب، محيط المحيط.
٣٨ـ الترمذي: ١٦٧/١ ـ ١٦٨، ابن ماجه: ١٨٥/١.
٣٩ـ انظر مادة (ح ب ر) في لسان العرب.
٤٠ـ انظر مادة (ح ب ر) في تهذيب اللغة.
٤١ـ سنن النسائي بشرح السيوطي: ١٩٦/٨، البخاري: ٢١٨٩/٥.
٤٢ـ تهذيب اللغة: ٤٤٢/٣.
٤٣ـ راجع مادة (ح ل ل) في الصحاح، محيط المحيط، المعجم الوسيط.
٤٤ـ البخاري: ٢١٩٨/٥، الترمذي: ٢١٩/٤.
٤٥ـ أبو داود: ٤٤/٤.
٤٦ـ المرجع السابق: ٤٥/٤، ابن حنبل: ٤٠٤/٦.
٤٧ـ مادة (ح ت ك) في اللسان، محيط المحيط.
٤٨ـ الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٧٦/٤.
٤٩ـ ابن حنبل: ١٢٨/٤.
٥٠ـ راجع الصحاح، مادة (خ ف ف)، لسان لعرب، محيط المحيط.
٥١ـ الترمذي: ١٦٢/١ ـ ١٦٣.
٥٢ـ انظر مادة (خ م ر) في ترتيب القاموس المحيط، المعجم الوسيط.
٥٣ـ انظر مادة (خ م ص) في لسان العرب، ترتيب القاموس المحيط، محيط المحيط.
٥٤ـ الدُّلامص: البَرّاق.
٥٥ـ أبو داود: ٣٠٢/١.
٥٦ـ مادة (خ ن ف) في الصحاح، ترتيب القاموس المحيط، محيط المحيط.
٥٧ـ انظر تركة النبي صلى الله عليه وسلم لحماد بن إسحاق ص:٥٨، لسان العرب مادة (خ ن ف).
٥٨ـ راجع مادة (خ ي ش) في لسان العرب، المعجم الوسيط.
٥٩ـ راجع مادة (خ ي ش) في محيط المحيط.
٦٠ـ ابن حنبل: ١٨٥/٤.
٦١ـ انظر مادة (درع) في لسان العرب.
٦٢ـ راجع أيضًا مادة (درع) في تهذيب اللغة للأزهري.
٦٣ـ أبو داود: ١٠٠/١.
٦٤ـ مسلم: ٦٤٤/٢.
٦٥ـ مادة (ردى) في اللسان، محيط المحيط.
٦٦ـ انظر المادة السابقة الذكر في تهذيب اللغة، المعجم الوسيط.
٦٧ـ ابن حنبل: ١٣٣/٦.
٦٨ـ ابن ماجه: ١١٧٧/٢، الطبقات الكبرى: ٤٥٨/١.
٦٩ـ ابن حنبل: ٣٤/٢.
٧٠ـ راجع مادة (ر ي ط) في لسان العرب، محيط المحيط، المعجم الوسيط.
٧١ـ ابن حنبل: ٣٩٨/١، الدارمي: ٤١٩/٢.
٧٢ـ راجع مادة (س ر ول) في لسان العرب، محيط المحيط، المعجم الوسيط.
٧٣ـ الترمذي: ٢٠٤/٤.
٧٤ـ البخاري: ١٤٣/١، أبو داود: ١٦٥/٢.
٧٥ـ راجع مادة (س ر ب ل) في لسان العرب، ترتيب القاموس المحيط، محيط المحيط.
٧٦ـ مسلم: ٦٤٤/٢.

* **الأخ برنس جاويد عزيز ـ باكستان:**

نرحب بك صديقًا للمجلة، ونرحب بمقالاتك ومشاركتك، التي ستجد إن شاء الله طريقها إلى النشر، إذا ماجاءت وفق الضوابط المطلوبة للنشر، أما بخصوص الطلب الوارد في خطابك، فيمكن الاتصال بالملحقية الثقافية أو الإعلامية بسفارة المملكة العربية السعودية في باكستان، فقد تستطيع أن تعينك في إجابة هذا الطلب.

* **الأخ د.ع ـ بوروبة ـ الجزائر:**

المجلة لاتقدم اشتراكات مجانية، وتعتذر عن عدم تلبية مثل هذه الطلبات، وكذلك تعتذر لعدم إمكان تلبية طلبك (الخاص)، ونتمنى لكم التوفيق إن شاء الله.

* **الأخوة: علي أحمد الحميقاني ـ البيضاء ـ شمسان ـ اليمن، خلف صالح يعقوب ـ جرش ـ الأردن، ساعدي توراد ـ العيون ـ المملكة المغربية، أحمد عبدالله الوصابي ـ الحديدة ـ اليمن، عبدالعزيز عيسى الحربي ـ قرية الثمامية ـ حائل.**

طلباتكم واستفساراتكم حول المجلدات أحيلت إلى القسم المختص الذي سيتولى الرد عليكم كتابيًا.

* **الأخ العارف فارين ـ عين وسارة ـ الجزائر:**

المجلة لاتقدم اشتراكات مجانية، أما العناوين التي طلبتها، فقد تفيدكم الملحقية الثقافية والتعليمية بالسفارة السعودية في بلادكم في الحصول عليها، أو إرشادكم إلى الجهة التي يجب مخاطبتها في المملكة بشأنها.

* **الأخوة والأخوات: يُوسرِجَل ـ أندونيسيا، شنوف لخضر ـ الجلفة ـ الجزائر، سميرة لازري ـ حسين واي ـ الجزائر، السيد ابن صديق محمد ـ تلمسان ـ الجزائر، عبدالوهاب وهدي ـ عين صالح ـ الجزائر، البركة صالح ـ ولاية تمراست ـ الجزائر:**

ليس في إمكان المجلة تلبية الطلبات الواردة في خطاباتكم، لذا نعتذر لكم، أما بخصوص الأعداد التي طلبتموها، فقد أحيلت طلباتكم إلى القسم المختص، وسوف تصلكم الأعداد قريبًا إن شاء الله.

* **الأخ مغن سري كوني ـ مالي:**

المجلة لاتقدم اشتراكات مجانية، ولكن سوف نرسل لك بعض أعداد المجلة، ومرحبًا بك صديقًا للمجلة، ولعلك تكتب إلينا مستقبلاً عن بعض القضايا التي تهم القارىء في عالمنا الإسلامي معرفتها عن بلادكم خاصة، وعن إفريقيا عامة.

* **الأخ جمال الحاج عبدالفتاح علي ـ سوهاج ـ مصر:**

استفسارك حول الاشتراكات أُحيل إلى القسم المختص الذي سيتولى الرد عليكم كتابيًا، أما الأعداد التي طلبتها فسوف تصلك قريبًا إن شاء الله.

* **الأخ المهندس مهند العواد ـ حباب ـ سوريا:**

نشكرك على إطرائك للمجلّة، ونأمل أن تكون عند حسن ظن القراء جميعًا، أما بخصوص اقتراحك حول باب «الطريق إلى الله»، فسوف نقوم بمناقشته، لمعرفة مدى إمكان الأخذ به، مع العلم أننا ننشر صور الشخصيات التي يتناولها الباب في حالة توافرها، ونأمل أن تذكر لنا بالتحديد الأعداد التي تنقصك من المجلة حتى نبعث إليك بعضها.

* **الأخ عبدالجواد علي زايد علي ـ الإسماعيلية ـ مصر:**

نشكر لك ثقتك بالمجلة، وأحلنا خطابك إلى القسم المختص حتى يرسل إليك بعض الأعداد.

* **الأخ محمد يحيى هلالي ـ دير الزور ـ سوريا:**

سوف تصلك الأعداد التي طلبتها قريبًا إن شاء الله، وقد أحلنا استفسارك حول

الاشتراكات إلى القسم المختص الذي سيقوم بالرد عليك كتابيًا، وكذلك سيتم الرد على استفسارك عن المجلدات.

*** الأخت منى داود المشولي - درعا - سوريا:**

المجلة تصل الآن السوق السورية فور صدورها، أما الأعداد التي تطلبينها فسوف يقوم القسم المختص بإرسالها إليكِ، ومرحبًا بك صديقة للمجلة، ونحن لانضيق بطلبات القراء الأعزاء واستفساراتهم.

*** الأخ محمد بن أحمد بن محمد ربعاوي - سيدي بو زيد - تونس:**

لاتوجد لدينا سلة مهملات للرسائل، فنحن نستقبلها كلها بالود والترحاب، ويسعدنا التواصل مع القارىء أينما كان، ويزيد سرورنا أن يراسلنا تلميذ في المرحلة الابتدائية، طلبًا للثقافة والعلم، تاركًا الرسوم المتحركة في التلفاز وألعاب الكومبيوتر التي ألهت حتى الكبار عن القراءة والاطلاع. وقد أحلنا رسالتك إلى القسم المختص، وسوف تصلك بعض أعداد المجلة، فمرحبًا بك صديقًا دائمًا.

*** الأخ أحمد رياض بن عبدالقادر - أندونيسيا:**

نأسف لعدم إمكاننا تلبية طلبك، وكذلك لاتقدم المجلة اشتراكات مجانية، ولكن سوف تقوم بإرسال بعض أعداد المجلة إليك قريبًا إن شاء الله.

*** الأخ بدرالدين مرزوقي - باتنة - الجزائر:**

ليس في المجلة ركن للتعارف، وهناك مجلات أخرى عديدة تهتم بهذا الركن، يمكنك مراسلتها.

*** الأخ عادل عبدالحميد ساسي - تونس:**

نشكر لك رسالتك الرقيقة، وإطراءك، ونأمل أن نكون عند حسن ظن القراء دائمًا، العدد المطلوب سيصلك إن شاء الله قريبًا، ومعه بعض الأعداد الأخرى. أما استفسارك عن المجلدات فسيتم الرد عليه كتابيًا من قِبل القسم المختص.

*** الأخ مصطفى قاسي عيسى - ولاية تيبازة - الجزائر:**

يصعب إجابة طلبك، فلو كان العنوان المطلوب محددًا أكثر، لكان الأمر أيسر، أما العناوين التي طلبتها فهي كثيرة جدًا، وليست متوافرة لدينا، قد تفيدك السفارة السعودية في بلدك في الحصول على بعضها.

*** الأخوة والأخوات: حريزي محمد - الجزائر، راجي خليل علي - الخرطوم - السودان، علياء محمد - الأردن:**

صدر العدد الأول من مجلة الفيصل في رجب ١٣٩٧هـ/ يونيو ١٩٧٧م، وهي - كما هو موضح في صدر صفحاتها - مجلة ثقافية شهرية، ومؤسس المجلة هو سمو الأمير خالد الفيصل. أما استفساراتكم عن الاشتراك، فقد أحلناها إلى قسم الاشتراكات للردّ عليها، وستصلكم قريبًا إن شاء الله بعض أعداد المجلة.

*** الأخوة والأخوات: بدر الدين موايسية، مراد خضار، شتوح الهادي، خليفة محمد، معبدي إبراهيم - الجزائر، عصمت إبراهيم وهبي - الخرطوم - السودان، حسن محمد شحاتة - طنطا - مصر:**

أحلنا استفساراتكم عن الاشتراكات إلى القسم المختص للرد عليها، أما الأعداد التي تطلبونها فسوف تصلكم قريبًا إن شاء الله، ومرحبًا بكم أصدقاء للفيصل، ومرحبًا باقتراحاتكم وإسهاماتكم.

*** الأخ محمد أحمد محمود الفاوي - قنا - مصر:**

في ظننا أن الكتب التي طلبتها توجد في المكتبات الكبرى في بلدكم، وقد تعينك الملحقية الثقافية بالسفارة السعودية بالقاهرة في الحصول على بعضها، أو إرشادك إلى دور النشر التي يمكنك مراسلتها في هذا الشأن.



تعليقًا على مقال د. شاه منظور عالم:

تطور الإنسان من الأصل الوضيع

فكرة أقدم من دارون نفسه

طالعتُ مقال الدكتور شاه منظور عالم، المعنون بـ "تطور الإنسان بين المفاهيم القرآنية والنظريات العلمية في العدد ٢٠٧ الصادر في رمضان ١٤١٤هـ من مجلتنا الغرّاء مجلة "الفيصل". ولقد استمتعت واستفدت مما جاء فيه من سردٍ علمي ونقد منطقي للنظريّات - التي تدعي العلمية - والتي تعاقبت منذ أوائل هذا القرن حتى الوقت الحالي حول نشأة الإنسان وتطوره اعتمادًا على مايستجدُّ الحصول عليه من بقايا أحافير لعظام أو جزئيات عظام يعتقد أنها كانت الأجداد الأوَل لبني الإنسان.

وقد جاء في مقال الدكتور: "يعود مفهوم الأصل الوضيع الذي ينتمي إلى طبقة الحيوان الرئيس إلى تشارلز دارون(١) Charles Darwin الذي يؤمن بتشابه الكائنات الحية، حيث جاء في كتابه "أصل الأنواع" إنها لحقيقةٌ رائعة أن جميع الحيوانات والنباتات على مرّ الأزمان ذات صلة بعضها ببعض، وأن توجد أوجه تشابهٍ مذهلة في التركيب التشريحي للإنسان وبعض الحيوانات كما هو الحال في أجنّة كلٍ من الإنسان والكلب».

والحقيقة إنني لم آت، بهذا النص كي أتصدى لما جاء فيه أو لأثبت بطلانه، فقد أجاد الدكتور شاه في ذلك، ووفّى الموضوع - ما استطاع - حقه، ولكنني أريد أن أشير إلى أنّ مفهوم الأصل الوضيع للإنسان يعود لفترات زمنية أقدم من دارون بكثير، وأنّ مثل هذا النص بمضمونه شاع بصورة ما بين الناس في القرن الخامس الهجري وقد عُورض ورفض - ولله الحمد - منذ ذلك الوقت.

ولاأريد بهذا أن أقول إن عالمًا من علماء المسلمين قد سبق دارون إلى نظريته الباطلة التي جاء بها، وإلا لكنت ممن يتّهم ذلك العالم بالسفه والسخف، بل أريد أن أؤكد أن العلماء المسلمين قد استطاعوا أن يرفضوا هذا الزعم بما أوتوه من إيمانٍ وعلمٍ أولاً، وأشير إلى قدم هذه الفكرة - على تفاهتها - ثانيًا.

ولابد من التنويه هنا بأن موضوع تطوّر الإنسان من الحيوان شيء، والتدرّج المتراصف بين الأجناس - الذي قال به ابن خلدون(٢) وابن مسكويه(٣) وغيرهم من علماء المسلمين - شيء آخر، فالتدرّج المتراصف الموجود في أصل التكوين بدءاً من الجمادات إلى النباتات إلى الحيوانات انتهاءً بالإنسان، هو حقيقةٌ ثابتةٌ من أقدم العصور إلى يومنا هذا؛ لايسع العين إنكارها، فضلاً عن العقل والفكر. فسلسلة أصناف الموجودات فيها من التناسق في طريق الصعود إلى الأعلى مايجعلها شبيهة بحبّات عقد متساوقة في التدرّج نحو الأكثر جمالاً وندرة، دالة بأجلى برهانٍ على وجود الخالق وعظيم إبداعه.

وهذه الحقيقة وصفيّةٌ مشاهدةٌ، قائمة كما هي منذ أقدم العصور التي وعاها الإنسان، يراها ويتحدث عنها جميع العلماء، بل يراها ويعجب بها جميع الناظرين العقلاء، ولاشأن لها إطلاقًا بما افترضه الدارونيون ونحوهم من تطور كل نوعٍ من النوع الذي دونه سواء بالنسبة

للإنسان أو غيره(٤).

أقــول: إنني لم أقــصــد ذلك التــدرّج المتراصف، إنّ ماقصدته هو بيانٌ لأحد العلماء المسلمين النابغين، هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني(٥) (٣٦٢هـ-٤٤٠هـ)، يعرض فيه لما سبق وأشرت إليه من نقض لمقولة تحمل بين كلماتها معنى قريبًا جدًا من افتراءات دارون ولامارك وغيرهم على بني جنسهم. هذا النقد موجودٌ في كتابه "الجماهر في معرفة الجواهر"(٦)، وبالتحديد في باب "سائر ألوان الجواهر واليواقيت". وقد جسّد البيروني في هذا النقد رفضه لفهم العامّة لآراء من أطلق عليهم اسم الطبائعيين أي إنه يعارض نظرية فئة إمّا أنها أخطأت أو أخطأ الناس في فهمها لسبب ما. وفي الأحوال كافة كانت هذه النظرية موجودة ورفضها البيروني، وأعتقد أنه لاأدل على ذلك من إيراد نصوص مقولته بحرفيتها. فهو يبرز أولا وجهة نظر العامة من الناس في تحولات الجواهر والمعادن بدءًا من أصولها الخسيسة حتى تبلغ كمالها، فيقول:

"وعند العامة أن جرم الياقوت يتردد في ألوانه بين الأكهب والأبيض والأصفر إلى أن يبلغ الأحمر. وهذا بسبب ماسمعوه من الطبيعيين أن الياقوت الأحمر بالغ غاية كماله كما الذهب الإبريز في غاية اعتداله. وظنوا أن الياقوت تردّد في ألوانه وتدرّج فيها إلى الحمرة ثم وقف لديها إذ ليس وراء الكمال شيء. وأنّ الذهب أيضًا يتردد في أنواع الذائبات من عند أبويه الزئبق والكبريت واجتاز على الرصاص والنحاس والأسرب والفضة إلى أن استوفى الصبغ والرزانة فوقف فلا يتجاوز رتبة الكمال. لذلك زعموا يزداد في التراب وزنًا ولايستحيل فيه".

ثم تأتي تتمة هذا النص حاملة نقده ووجهة نظره في الجزء الأول منه وتوضيحه لما فهم من قول الطبيعيين، فيما أسلفنا إليه، فيقول:

"ولم يعن الطبيعيون فيها إلا مايعنون في الإنسان أنه بالغٌ أقصى رتبة الكمال بالإضافة إلى مادونه من الحيوان ويذهبون فيه إلى سنخه [في نسخة أخرى وردت: شنفه] وجوهره لا أنّه صعد [في نسخة أخرى وردت:صعيدا] إلى الإنسانية من أنواعها حتى ارتقى من الكلبية إلى الدبية، ثمّ إلى القردية إلى أن يأنس".

ثم يستطرد في التوضيح لما ارتأى: "وقال أبو بكر علي بن الحسين القهستاني: كذا اليواقيت فيما قد سمعت به من طول تأثير جرم الشمس في الحجر، فإن عنى أنها أطالت التأثير في أي حجر كان حتى صار بذلك ياقوتًا. فهو يتحقق في ظنه، وإن عنى المادة المستمدة لقبول الياقوتية فهو محقق صادق كما أشرنا إليه إلى الأصل".

ولاأريد أن أحمل الجزء الثالث السابق من النص مالاتحتمله كلماته المعدودة تلك، ولكننا لو تناولناه كفكرة وربطناه مع الجزء الثاني من النص، لاستطعنا أن نستشف من خلاله أن البيروني نقض فكرة أن طول التأثير للشمس في أي حجر يحوله إلى ياقوت، ورفضها إن لم تكن المادة أصلاً مستعدة بجوهرها لتكون ياقوتا، فلو أخذنا هذا على محمل الجزء الثاني لوجدناه يقول إن الإنسان لايكون إلا إنسانًا مهما كانت الظروف البيئية المحيطة، فلا الإنسان يصبح قردًا بالتأثير المحيط ولا القرد يمكن أن يترقّى فيصبح إنسانًا. وكأنه بهذا يعارض قول لامارك(٩): "إن عدم ثبات الأنواع على حالها إنما يعود إلى الظروف المختلفة التي تتقلب على كل منها". وذلك قبل أن يتفوه لامارك بقوله هذا بما لايقل عن ثمانية قرون من عمر الزمن، وهذا مايؤكده البيروني في الجزء الأخير من هذا النص، حيث يشير إلى أن تحول الأنواع مع الزمن ماهو إلا خيال شعراء وافتراءات كاذبين على العلم، فيقول: "وجميع مافي العالم يستحيل بعضه إلى بعض بحسب امتداد زمنه، ولكنّ هذا طريق الشعراء من الإغراق في المدح والأكاذيب".

رجلُ علمٍ مسلم واحدٌ توصل قبل عشرة قرون إلى نبذ هذه الترهات، دون أن يشتت صفاء ذهنه على قلة ما أُكد له صحة ماقرر، إلا من رسوخ في العلم وإيمان في القلب.

ويمضي الإنسان في عصرنا بكل ماآتاه الله من علم وتقنية وإمكانات ليبحث عن الحقيقة - حقيقة واضحة إلا عمن حجبها بهوى نفسه - يضع الفرضية إثر الفرضية يطوح بفكره يمينا وشمالا، بين افتراضات لاأساس لها ولابناء، ثم لايجد بعد ذلك شيئاً. نحن وكل المسلمين من أصحاب العلم نتابع بشوق كل تطور يفيد الإنسانية قاطبة، ونأمل من علماء الأنثروبولوجيا الباحثين في نشأة الإنسان وتطوره أن

تقودهم أحافيرهم التي اتبعوها يومًا إلى الحق الذي لايأتيه الباطل من خلفه ولامن بين يديه، فإن وصلوا لن يملكوا لأنفسهم إلا أن يخضعوا لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤).

معن العمر
جامعة حلب ـ سوريا

الهوامش:

(١) كتاب "أصل الأنواع والانتخاب بالنسبة للجنس" أخرجه دارون عام ١٨٧١م.

(٢) ابن خلدون عالم في التاريخ والسياسة والاجتماع، ولد في تونس (٧٣٢هـ/١٣٣٢م) وتوفي في مصر (٨٠٨هـ/١٤٠٦م) وهو يقول حول التدرج المتراصف للكائنات: "ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ بالمعادن، ثم النبات، ثم الحيوان، على هيئة بديعة من التدرج!. آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات، مثل الحشائش وما لايلد له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان، مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط.. ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعدٌ بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده، واتّسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه، وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية" عن مقدمة ابن خلدون ص ٤٧ ـ ٤٨، طبعة بولاق.

(٣) ابن مسكويه هو أحمد بن محمد بن يعقوب، توفي سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م، مثقفًا ثقافة واسعة في الأدب والتاريخ والفلسفة والطب، وهو يقول في موضوع التدرج المتراصف للأجناس: "فأما اتصال الموجودات التي نقول إن الحكمة سارية فيها، حتى إذا أوجدتها وأظهرت التدبير المتقن من قبل الواحد الحق في جميعها، حتى اتصل آخر كل نوع بأول نوع آخر، فصار كالسلك الواحد الذي ينظم خرزًا كثيرًا على تأليف صحيح، وحتى جاء من الجميع عقدٌ واحدٌ فهو الذي ننبه عليه بالدلالة بمعونة الله" عن الفوز الأصغر لابن مسكويه ص ٩٠.

(٤) كبرى اليقينيات الكونية لمحمد سعيد رمضان البوطي، ص ٢٧٠.

(٥) هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، عالم في الرياضيات والفلك والجغرافيا والتاريخ واللغة والفلسفة والمعادن والجواهر، اجتمع فيه من العلم مادفع الكثيرين لإعطائه لقب الأستاذ، ولد في خوارزم عام ٣٦٢هـ، وتوفي عام ٤٤١هـ.

(٦) الجماهر في معرفة الجواهر للبيروني، طبع دائرة المعارف العثمانية الكائنة بحيدر آباد الدكن، سنة ١٣٥٥هـ، وهذه الطبعة مأخوذة عن المخطوطة الموجودة في مكتبة الأسكوريال بإسبانيا.



ملحمة «بلخير» أقل من مستوى الاحتفاء



للشاعر السعودي عبدالله بلخير قصائد طوال، دأب على تسميتها ملاحم، وآخرها قصيدته المطولة في عدد الفيصل «٢١١» الصادر في محرم ١٤١٥هـ، بعنوان «ملحمة الهجوم الفرنسي على عاصمة الخلافة دمشق». ولي معها عدة وقفات:

أولاها: أن في تسميتها ملحمة تجاوزا، لأن مصطلح الملحمة غير منطبق عليها، فهي ـ أي الملحمة ـ (قصة شعرية طويلة تدور حوادثها حول معارك ضخمة، وبطولات خارقة، خاضها شعب من أجل قضية تتصل بوجوده الإنساني والقومي، ودفاعًا عن مأثوراته ومقدساته العريقة) انظر: (المعجم الأدبي، ص ٢٦٥).

ومطولة بلخير هذه لم تعد أن تكون سردا لخواطر اعتملت في ذهن قائلها، وهو يشهد المواقع التي حدثت فيها معركة ميسلون، فليس فيها قصة مكتملة، تفضي أحداثها بعضها إلى بعض.

وحيث إن الحديث عن الملحمة وتعريفها، فإني أرى أن تكون الملحمة جامعة بين خصائص الشعر، وخصائص القصة والرواية، فتأخذ من الشعر طبيعته الإيقاعية، وخياله المجنح، والتزامه بنمط صارم من القيود الفنية، وتأخذ من الرواية والقصة السرد والحوار والبطل والعقدة والحل.

ودعك من التعريف الذي يحصر الملحمة فيما عرفه اليونان والإغريق من كونها قصة خارقة للمألوف، تصطرع فيها الآلهة، وتمتزج فيها الوثنيات والأساطير، فهذا تحجر لاداعي له، ولنا أن نصطلح على (ملحمة) عربية السمات، فنجعل من صفاتها:

أن تكون ملتزمة بالقافية الواحدة أو المتعددة، وأن تتضمن قصة طويلة واقعة أو متخيلة، وأن تتسم بسمات القصة السابق ذكرها، وأن تكون في مئات الأبيات، ومادونها لايسمى كذلك.

وهنا تظهر قضية: وهي أن القصائد الطوال ـ كقصائد عبدالله بلخير ـ لاتدخل تحت مصطلح الملحمة السابق، فماذا تسمى إذن؟!

إني أرى ـ في حال عدم اتسامها بصفات الملحمة ـ أن نسميها مطولات شعرية، فهذه تسمية تميّزها، وتجعلها فنا قائمًا بذاته.

الوقفة الثانية: وقع في هذه المطولة بعض

الأغلاط المخلة بالوزن، وأظنها طباعية؛ لأن مافيها لايخفى على شاعر مجيد مثله، وأولها في المطلع الذي جاء هكذا:

هو المجد من أفقنا يطلع

نيرا على أرضنا يسطع

وأظن الصواب (مُنيرا).

والثاني في هذا البيت:

وقد كان مما رواه الرواة

ومالم يزل يُسمع

والنقص في العجز، ولعل الصواب:

ومالم يزل في الورى يسمع

الوقفة الثالثة: ارتكب الشاعر اللحن في قوله:

فلما تجاوزت عهد الصبا

وكنت فتى بالعلا مولع

وحقها (مولعا) لأنها نعت (فتى)، ولو قال (يولع) لزال اللحن.

وفي قوله أيضًا:

وباتت دمشق على كبرياء الـ

خلافة لاتدر ماتصنع

وحقها (لاتدري)، ولكن الوزن لايقوم بها، وليته قال: (لم تدر).

الوقفة الرابعة: في المطولة ضرائر شعرية ولغوية، والشعرية في وصل همزة القطع كقوله:

ولاأرتضي ضيم مستعمر

لشبر من اوطاننا ينزع

وقوله:

وماكان بالعاقل المستفيد

من اغلاط غورو الذي يظلع

وهذا مما يجوز للشاعر، غير أن كثرته لاتسوغ.

والضرورة اللغوية في استعمال كلمة (حماس):

حماس العروبة في هامتي

وصحتها لغة: حماسة.

أما قوله:

تحدُّوا السلام بأردا سلاح

ففيه ضرورتان: أردا = أردأ، حيث سهل الهمزة، ولاغبار على ذلك.

وضمّ دال (تحدُّوا) وهي مفتوحة بعدها واو لِيْن (تحدَّوْا)، ولكن الوزن لم يطاوعه، فاضطر إلى هذا التجاوز غير السائغ.

الوقفة الخامسة: لم تخل مطولة بلخير من بعض عيوب القافية، ففي قوله:

تربى ببطحاء أم القرى

وممن لأخبارها تابعوا

وقوله:

أنازع من بين من نازعوا

قوى الاحتلال ومن صارعوا

فيهما مايسميه العروضيون (سناد التأسيس)، والتأسيس في اصطلاحهم ألف بينها وبين الروي حرف دخيل، وحيث إن الشاعر لم يلتزم إيراد هذه الألف في قصيدته، فقوافيه مثلا جاءت هكذا: برقع - أبشع - موجع....، حيث إن ذلك كذلك، كان إيراد الألف في بعض الأبيات عيبًا، ولو التزمها في كل الأبيات لخرج عن الملامة.

أما قوله:

وقفنا نقلب أبصارنا

وندعوا لمن مات فيمن دعَوْا

وقوله:

تذكرت ماقال عنك الألى

بما قد جرى فيك ممن وعَوْا

ففيهما اختلال تام في القافية، وماختمهما بالعين كافيا لكي يتفقا مع سائر الأبيات، لأن العين فيهما جاءت مفتوحة بعدها حرف لين، ولذا فالواو هي الروي؛ لأنه يصح للشاعر أن يقرن بها في قصيدة واحدة أبياتا مختومة بمثل: درَوْا - مشوْا - مضَوْا .. أما العين فإن التزامها يدخل في باب (لزوم مالايلزم).

الوقفة السادسة: لم تخل هذه المطولة من التكلف، وحيث إني لم أقصد دراستها دراسة فنية كاملة، أكتفي بإيراد هذا الشاهد الدال على المراد، وهو قوله:

وجاء دُمُرتيل من بعده

لمثل حماقاته يتبع

ليصلح أخطاء من أسلفوا

عسى أن إصلاحه ينفع

وهذان البيتان فيهما مافيهما، وذو الذوق السليم يشهد بذلك.

وبعد:

فإن مما يعذر فيه الشاعر، أنه نظم هذه القصيدة شابًا، والشباب مظنة الزلل، وفي حسباني أنها لم تعرض عليه في كبره، أو أنها عُرضت عليه، ولم يتعاهدها بالتهذيب.

وإني لراج ألا أتهم بعقوق الرواد أو محاولة النيل منهم؛ لما أوردت من نقد لهذه القصيدة، فالحق أحق أن يتبع، وليتنا نلغي من أذهاننا نظرة الإعجاب المعلّبة، التي تعشي العيون عن الوقوع على المثالب، وما أجمل أن ننظر إلى الشعر لا إلى الشاعر، وأن نعجب بالأثر لا بموجده، فذلك قائد إلى اطراح مالايسوغ، وداعية إلى رفع القيمة الفنية واللغوية.

والله من وراء القصد.

عبدالله بن سليم الرشيد
جامعة الإمام - الرياض

ويأتيك بالأمثال

لا حَجْرَةً أمْشي
ولا حَوْطَ الْقَصَا

الحجر: الناحية، والقصا: البلد، يقال قَصِي فلان عن جوارنا يقصى قصًا، أي بَعُد: قال بشر:

فَحَاطُونَا الْقَصَا ولَقَدْ رأَوْنَا
قَرِيبًا حَيْثُ يُسْتَمَعُ السِّرَارُ

والتقدير: لاأمشي حجرة أي في حجرة، ولا أحوطك حوط القصا، أي لااتباعد عنك.

يضرب بهذا مثلا لَمَنْ يتهددك فتقول له: ها أنا ذا لااتباعد، ولا اتنحى عنك، فهلم إلى مبارزتي ومقارعتي.

من طرائف النحاة

قال رجل لرجل: قد عرفت النحو، إلا أنني لاأعرف هذا الذي يقولون: أبو فلان، وأبا فلان، وأبي فلان.

فقال له: هذا أسهل الأشياء في النحو، إنما يقولون أبا فلان لَمَنْ عظم قدره، وأبو فلان للمتوسطين، وأبي فلان للرذلة!.

أول تهنئة للمسلمين من الفضاء

أول تهنئة تلقاها المسلمون من الفضاء الخارجي، هي تلك التي بعث بها صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز، أول رائد فضاء عربي مسلم، من مكوك الفضاء ديسكفري في ٣٠ رمضان ١٤٠٥هـ بمناسبة حلول عيد الفطر المبارك.

إحصائية

عندما يبلغ الإنسان سن السبعين، يكون قد أمضى منها ـ في المتوسط ـ سبع سنوات في الدراسة، وسبع سنوات في التنقل، وخمس عشرة سنة في العمل، وعشرين سنة في أوقات الفراغ، وإحدى وعشرين سنة في النوم.

تعليم

قال الحجاج بن يوسف الثقفي لمؤدب أولاده: علمهم السباحة قبل الكتابة، فإنهم يجدون مَنْ يكتب عنهم، ولايجدون مَنْ يسبح عنهم.

الشجر .. والثمار

قيل: السنة شجرة، الشهور فروعها، والأيام



بوابة الثميري بعد التوسعة، وتعد البوابة الرئيسية لمدينة الرياض ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م

أغصانها، والساعات أوراقها، والأنفاس ثمرها، فمن كانت أنفاسه في طاعة الله، فثمرته شجرة طيبة، ومن كانت أنفاسه في معصية الله، فثمرته حنظل، ويوم الحساب يتبين حلو الثمار من مرها.

حكمة

الدنيا لاتساوي نقل قدميك إليها، فكيف تعدو خلفها؟!

حامل القرآن

يُعرف حامل القرآن الكريم بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس مفطرون، وبحزنه إذ الناس فرحون، وببكائه إذ الناس ضاحكون، وبصمته إذ الناس يخوضون، وبخشوعه إذ الناس يختالون.

حدود

للغضب حد، إذا جاوزه تعدى صاحبه وجار، وإن نقص عنه جَبُنَ ولم يأنف من الرذائل.

وللراحة حد، متى زادت عليه صارت توانيًا وكسلاً وإضاعة للوقت، ومتى نقصت عنه، صارت ضارة بالقوى، موهنة لها، وربما صار صاحبها كالمنبَتّ، الذي لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى.

وللجود حد، متى جاوزه صار إسرافًا وتبذيرًا، ومتى نقص عنه صار بخلاً وتقتيرًا.

من عجائب الخلق

يبلغ عدد الحويصلات الهوائية في رئتي الإنسان البالغ، أكثر من ٣٧٥ حويصلة، وخلال ساعات اليوم الواحد يسحب هذا الإنسان نحو ١٨٠ مترًا مكعبًا من الهواء في عملية التنفس، ويتولد عن ذلك طاقة تكفي في مجموعها لرفع قاطرة سكة حديدية إلى علو مترين!.

الدعوة.. والاستجابة

سئل إبراهيم بن أدهم: مابالنا ندعو فلايستجاب لنا؟ قال: لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به، وأكلتم نعم الله فلم تؤدوا شكرها، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها، وعرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس.

مثنى

القبلتان: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى.

الحرمان: مكة المكرمة، والمدينة المنورة.

الهجرتان: هجرة الحبشة، وهجرة المدينة المنورة.

الذبيحان: إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ، وعبدالله بن عبد المطلب بن هاشم.

الثقلان: الإنس، والجن.

الصحيحان: صحيح البخاري، وصحيح مسلم.

الرحلتان: رحلة الشتاء، ورحلة الصيف.

الجديدان: الليل والنهار.

السبطان: الحسن، والحسين.

الداران: الدنيا، والآخرة.

طريق السلام



قال ذلك الرجل الذي بشره النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة أنه لايحمل حقدًا لأحد من إخوانه المسلمين.

قلبه نظيف، وإن كان قليل العمل. لكن نظافة قلبه هي نفسها عمل لايراه إلا الله. لكن يده أيضًا لاتضر مسلمًا، ولا لسانه. فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

أما هذا الرجل فقد سلم المسلمون من لسانه ويده وقلبه. فكما أنه ملتزم بفرائض الإسلام تجاه ربه، فإن كفّ الأذى أيضًا خصلة من خصال الخير. فالإيمان بضع وسبعون شعبة، أدناها إماطة الأذى عن الطريق..

الفرائض عمود هذا الدين، والصلاة أولها. وقد لاحظت أن حركات الصلاة من قيام وركوع وسجود وجلوس معاكسة للرقدة الأخيرة في ضجعة الموت، فأنت في حياتك تصلي فريضة ونفلاً بأوضاع مختلفة، وكل هذه الأوضاع تغاير الوضع في اللحد. وعندما يوضع أحدنا في قبره فإنما هي ضجعة واحدة لاقيام فيها، ولا ركوع، ولا جلوس.

أما خصال الخير الأخرى فهي بينك وبين عباد الله، فكونوا أسخياء، ولاتكونوا بخلاء. ورحم الله عبدًا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى. فلايؤذي بجدال أو لجاج، فضلاً عن عراك، أو مضايقة.. وكونوا عباد الله إخوانا.. المسلم أخو المسلم.. وإياكم وإيذاء الجيران، أو ترويع الآمنين.. هذا هو جوهر هذا الدين.

وهكذا ترى أخلاق المسلم..

إنها تختلف عن صفات الفأر، أو العقرب، أو الحية، أو الكلب العقور. إنها أُخوّة، وسماحة، ورفق ورحمة، وسلام، وتعاون، وليست مشاحنة، ومجادلة وعنفًا، وحربًا، وإيذاء.

المسلم حبيب إلى الله، وهو معتصم بحبل الله، وجميع المعتصمين بحبل الله هم إخوانه، إن كانوا فقراء أو أغنياء، سودًا أو بيضًا. وهذه الأخوة أساس متين في شريعتنا. قال تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا﴾ (آل عمران:١٠٣).

محمد علي الجفري

موسوعة الثقافة والمعلومات

استهل مُعد الموسوعة الأستاذ مهدي سعيد رزق الإصدار بمعلومات شاملة عن المملكة العربية السعودية، كما قدم عرضًا مبسطًا عن المعالم والآثار والمنظمات الدولية والدوائر الحكومية والصحف والمجلات والمكتبات العامة والبنوك في المملكة. وخصص القسم الثاني من الموسوعة لتقديم معلومات ثقافية طرحها في شكل سؤال وجواب، شملت العلومَ الدينية، والسيرةَ النبوية الشريفة، واللغةَ والأدب والتاريخ والجغرافيا، والحضارةَ والكونَ وعلمَ الفلك. وجاء القسم الثاني تحت عنوان «ثقافة متنوعة» وهنالك أقسام أخرى بعناوين «مخترعون ومكتشفون»، «قادة ومعارك»، «بلدان وعواصم»، «أسماء وألقاب»، «كتب ومؤلفون»، «فنون، إعلام، رياضة»، «من القائل؟» واختتم الإصدار بمقطوعات مختارة لعدد من مشاهير الشعراء.

الموسوعة تقع في ٣٠٠ صفحة من القطع الكبير، وقد صدرت طبعتها الثانية عن دار طويق للنشر والتوزيع، الرياض ١٤١٤هـ.

حين تميل الجدران

مجموعة قصصية للقاص محمد عباس علي، ويشتمل الكتاب على ١٧ أقصوصة، ينهج فيها الكاتب أسلوب «الرموز والإيحاءات والدلالات الأدبية والنفسية»، كما يتجه إلى تحليل خواطر الشخصيات، وحشد الموضوعات بخواطر واعية، ومضامينُ الأقاصيص - في مجملها - إنسانيةٌ، ويقدم الكاتب لمحات سريعةً من المشكلات الاجتماعية التي في بيئته، ويتخذ بعض أقاصيصه من بيئات شعبية.

الكتاب يمثل العدد رقم (١٣٩) في سلسلة إشراقات أدبية، وقد صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، ويقع في ١٣٨ صفحة من القطع الصغير.

المنهج الميسر في السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء الراشدين

قام المؤلف أحمد بادويلان بتحويل منهج الصف الأول المتوسط في مادة (السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء الراشدين) بمدارس المملكة العربية السعودية، إلى أسئلة وأجوبة، كما قام بالإجابة عن أسئلة المنهج التي تأتي في نهاية كل فصل من الكتاب المعتمد للتدريس، الذي ألفه الدكتور عبدالله الصالح العثيمين.

ذكر معد (الكتاب الميسر) أن من الأسباب التي شجعته ودفعته للإقدام على هذا الأمر، أنه لاحظ أثناء مراجعته المواد الدراسية التي يتلقاها أبناؤه في مراحلهم التعليمية المختلفة، أن أفضل طريقة للمراجعة والفهم هي تحويل الدرس إلى أسئلة وأجوبة، وهذا الأسلوب يساهم في ترسيخ المواد الدراسية في ذهن الطالب، خصوصًا في المراحل مادون الجامعية.

الكتاب يقع في ١٨٠ صفحة من القطع الكبير.. وقد صدر عن دار طويق للنشر، الرياض ١٤١٤هـ.

الأمثال والشواهد في الحديث الشريف

قام الفريق يحيى بن عبدالله المعلمي بجمع الأحاديث النبوية الشريفة التي تجري مجرى الأمثال، وتصلح للاستشهاد بها في أحوال الناس وأحاديثهم العادية استمتاعا بما تشتمل عليه من فصاحة وبلاغة، علاوة على ماتتضمنه من أحكام وآداب رفيعة. يبدأ المعلمي في إعداده للكتاب بإيراد العبارة التي يستشهد بها، ثم يبين وجه الاستشهاد بها، ثم يورد نص الحديث الشريف الذي وردت فيه، مع ذكر راوي الحديث، ويعقب ذلك بذكر المحدث الذي أورد الحديث، وإذا كان الحديث متفقًا على صحته في البخاري ومسلم يكتفي بذلك، وإذا لم يكن كذلك ذكر أسماء من أخرجه من المحدِّثين من أصحاب السُّنن والمسانيد. وكذلك يشير إلى مافي إسناد بعض الأحاديث المروية من ضعف أو ماأُشير إليه من كونه موضوعًا.

الكتاب يقع في ٣٧٥ صفحة من القطع الكبير وموضوعاته متسلسلة وفق الترتيب الهجائي.

منهاج الداعية

صدر عن سلسلة «دعوة الحق» في رابطة العالم الإسلامي. يناقش المؤلف الموجهات

المطلوبة للداعية في هذا العصر، التي تمكنه من التصدي للعمل في مجال الدعوة.

ويهدف أحمد أبو زيد في دراسته هذه إلى تصحيح بعض المفاهيم المغلوطة عن مقومات الداعية. وقد قسم الكتاب إلى خمسة أبواب، ومجموعة من الفصول والمباحث، وتحدث في الباب الأول عن ثقافة الداعية مبينًا مصادر هذه الثقافة، وخصص فصلاً مستقلاً لكل مصدر، وتناول في الباب الثاني الأخلاق التي يجب أن يتصف بها الداعية، وتحدث في الباب الثالث عن وظيفة الداعية، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد بين المؤلف أهمية هذه الوظيفة وكيفية القيام بها. وناقش في الباب الرابع موضوع الداعية وجمهور الدعوة (عامة الناس والحكام)، واختتم الدراسة بتناول متعمق لأساليب الدعوة ووسائلها.

الكتاب يقع في ١٦٠ صفحة من القطع المتوسط. وهو العدد رقم ١٣٥ في سلسلة إصدارات رابطة العالم الإسلامي.

ربيع الحرف

الإصدار الثاني في سلسلة «كتاب الرياض» التي تضطلع بها صحيفة «الرياض»، ويشتمل على مجموعة مقالات للكاتبة الصحفية السعودية نورة خالد السعد، نشرتها في زاويتها الأسبوعية «ربيع الحرف» بصحيفة الرياض. وتصدت من خلالها لمعالجة كثير من الظاهرات الاجتماعية عن طريق متابعة ورصد التحولات الاجتماعية التي تطرأ عبر مسيرة الحياة المتلاحقة، ومؤثراتها وضرورات التغيير. يحوي الكتاب ٥٥ مقالة. ومن الموضوعات التي اختصتها الكاتبة بالمناقشة أو النقد أو التقويم، تنمية الوعي وبناء الإنسان، الثروة الحقيقية ماهي؟، قيمة الوقت، التكامل في العطاء الاجتماعي، هي ومعادلة التحديد، الإنسان يهندس مستقبله، الوطن في عيون الصغار، التقاعد المبكر للمرأة، يوم المهنة، نحن والآخر، الإعلام والطفل، الجامعة والمجتمع، الفرد الفاعل، الوقاية والعلاج من المخدرات.

الكتاب صدر عن مؤسسة اليمامة الصحفية ١٤١٤هـ، ويقع في ١٦٢ صفحة من القطع المتوسط.

الحرف العربي والشخصية العربية

دراسة تلاحق حروف اللغة العربية في سيرتها الثقافية الطويلة للتعرف على نهج الإنسان العربي في شؤونه الثقافية، والاهتداء من خلاله إلى نهجه الأصيل في الحياة، أي إنه يبحث في العلاقة المتبادلة بين الحرف العربي والشخصية العربية، فالحرف كما يؤكد المؤلف حسن عباس: "يحمل مقومات الشخصية، وبذلك يتحول من مجرد اهتزازات صوتية إلى نماذج إنسانية متحضرة، ولكل حرف وظائفه، واختصاصاته، وطبيعته ومزاجه"، وهي العناصر التي تميز الشخصية.

عالج المؤلف موضوع دراسته في خمسة فصول حشدها بخلفيات تاريخية وثقافية. خصص الفصل الأول للحديث عن «فطرية» اللغة العربية، كما بحث في أصول اللغة، وتناول في الفصل الثاني أصول الإنسان العربي والحرف العربي، وفي الفصل الثالث عالج جدلية مهد الحضارة. وأفرد الفصلين الرابع والخامس لشخصية الحرف العربي والإنسان العربي.

صدر الكتاب عن دار أسامة بدمشق وبيروت، ويقع في ٢٦٨ صفحة من القطع المتوسط.

مقالات في أدب الحمقى والمتحامقين

كتاب يأتي ضمن اهتمامات المؤلف أحمد الحسين بأدب التيارات الشعبية، وإفساح المجال لمحاولات كشف الوجه الآخر للأدب والحياة.

يضم الكتاب ست مقالات، تهدف إلى التعريف بموضوع الحماقة والتحامق، وقد تتبع المؤلف نشوء هذه الظاهرة في المجتمع العربي، بدءًا من العصر الجاهلي، وصولاً إلى العصر العباسي. واستعرض مواقف الفئات الاجتماعية من الحمقى والمتحامقين في نطاق رفض المجتمع لهم، أو قبوله إياهم على أسس ومبررات دينية واجتماعية ونفسية. وشرح معاني الحماقة وماقيل في وصف الحمقى، وسجل بعضًا مما ورد عن الحماقة في الأدب والمصادر الأدبية، وشرح كيف أن التحامق يكون وسيلة للتكسب، وستارًا للنقد، ولكشف الأخطاء، أو منفذًا يتيح للمرء أن يهرب من الواقع، وقبل أن يختتم مقالاته ناقش «صراع المعقول واللامعقول في أدب المتحامقين».

الكتاب يقع في ١٦٦ صفحة من القطع الصغير، وقد صدر عن دار الحصاد للنشر بدمشق.

مسابقة مجلة
الفيصل

١ـ جوائز المسابقة :

جوائز عديدة تقدمها المجلة لأصحاب الحلول الفائزة على النحو التالي:

أ ـ ثلاث جوائز مالية تمنح لثلاثة فائزين (٥٠٠ ريال، ٣٥٠ ريالاً، ١٥٠ ريالاً)

ب ـ خمس جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عامين (٢٤ عدداً).

ج ـ عشر جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عام واحد (١٢ عدداً).

د ـ خمس جوائز عبارة عن مجموعات من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض، قيمة كل مجموعة في حدود مائة ريال.

٢ـ شروط المسابقة :

أ ـ الإجابة عن جميع الأسئلة، وإرفاق القسيمة الأصلية ـ وليس نسخة مصورة ـ للمسابقة مع ورقة الإجابات التي يوضح فيها الاسم ثلاثياً أو رباعياً ـ إن أمكن ـ وعنوان المراسلة.

ب ـ ترسل الإجابات على العنوان التالي:

مسابقة ، مجلة الفيصل،
ص.ب. (٣) الرياض (١١٤١١)
المملكة العربية السعودية

(مع ضرورة ذكر رقم المسابقة على المظروف)

جـ ـ أية إجابات تصل بعد ٤٥ يوماً (حسب التقويم الهجري) من صدور العدد لن يلتفت إليها.

د ـ من حق القارئ أن يشترك باسمه في المسابقة الواحدة أكثر من مرة شرط إرفاق قسيمة المسابقة مع كل رسالة.

تنبيه: نرجو من الإخوة المشاركين عدم لصق القسيمة على ورقة الإجابات أو قص أجزاء منها، وإنما يكفي وضعها مع ورقة الإجابات داخل المظروف.

أجوبة مسابقة العدد ٢١٠

ج١: الصالقة: التي ترفع صوتها بالندب والنياحة، والحالقة: التي تحلق رأسها عند المصيبة، والشاقة: التي تشق ثوبها عند المصيبة.

***

ج٢: العارِيّة ـ بالتخفيف والتشديد ـ عمل من أعمال البر التي ندب إليها الإسلام ورغّب فيها. قال تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان﴾ (المائدة:٢).

وقد عرّفها الفقهاء بأنها إباحة المالك منافع ملكه لغيره بلا عوض، وتنعقد بكل مايدل عليها من الأقوال والأفعال. أما شروطها فهي:

١ـ أن يكون المعير أهلا للتبرع.
٢ـ أن تكون العين منتفعًا بها مع بقائها.
٣ـ أن يكون النفع مباحًا.

***

ج٣: كانت جوامع «الأزهر، والزيتونة، والقرويين»، ـ ولاتزال ـ منارات للعلم، امتد أثرها إلى بلدان العالم الإسلامي. وقد بُني جامع الزيتونة عام ٧٣٢م، وبُني جامع

نتائج مسابقة العدد (٢١٠)

أـ فاز بالجائزة المالية الأولى، وقدرها ٥٠٠ ريال سعودي، الحسين بن الحاج مسعود، مدنين ـ تونس.

وفاز بالجائزة المالية الثانية، وقدرها ٣٥٠ ريالاً سعوديًا، أمنزوي فتيحة بنت محمد، مراكش ـ المغرب.

وفاز بالجائزة المالية الثالثة، وقدرها ١٥٠ ريالاً سعوديًا، منى يحيى شريف، بيروت ـ لبنان.

***

ب ـ فاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عامين (٢٤ عددًا)، كل من:

١ـ رأفت أحمد محمود إبراهيم، الإسكندرية ـ مصر.
٢ـ عبدالعزيز بن محمد بن علي الثبيتي، الرياض ـ المملكة العربية السعودية.
٣ـ أحمد عبدالرحيم ميرغني، ودمدني ـ السودان.
٤ـ نضال عوض فارس محمود، عمان ـ الأردن.
٥ـ حسين قرة داود، حلب ـ سورية.

***

ج ـ وفاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عام واحد (١٢عددًا)، كل من:

١ـ محمد بنيان الحجيلي، المدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية.

للاشتراك املأ هذه القسيمة
(عنوان الاشتراك من الخلف)

الاسم: ....
المهنة: ....
العنوان: ....

القرويين عام ٨٥٩م، وبُني الجامع الأزهر عام ٩٧٠م. وبذلك يتضح أن الزيتونة أقدمها بناءً.

***

ج٤: صاحب الإلياذة الإسلامية هو الشاعر: أحمد محرم (١٨٧٧ ـ ١٩٤٥م)، ومطلعها:

املأ الأرض يامحمد نورا

واغمر الناس حكمة والدهورا

وقد ولد أحمد محرم في إحدى قرى مركز الدلنجات بمصر، وسكن دمنهور، ومات بها. تتلمذ على مدرسة محمود سامي البارودي، ووقف معظم شعره على استنهاض همم قومه، والتنديد بالمحتلين في مصر والشرق. كان وثيق الصلة بالحزب الوطني وزعيمه مصطفى كامل. له ديوان شعر مطبوع.

***

ج٥: أصل المثل أن فتاة تدعى «دختنوس بنت لقيط» تزوجت عجوزًا ثريًا يدعى «عمرو بن عداس» فأبغضته وأكرهته على طلاقها. ثم تزوجت شابًا بهيّ الطلعة رقيق الحال، ثم أجدبت السنة فلازرع ولاضرع ولا مال. فبعثت إلى عمرو زوجها السابق تطلب منه ناقة تحلبها، فأجابها ساخرًا: الصيف ضيّعت اللبن. فذهبت مثلاً.

٢ـ مروة حسن عباس المهدي، الشارقة ـ الإمارات العربية المتحدة.

٣ـ زينب نور الهدى زكي أمين، الشرقية ـ مصر.

٤ـ محمد آصف سيد الهاشمي، الطائف ـ المملكة العربية السعودية.

٥ـ يسرى عمر الجزائري، دمشق ـ سورية.

٦ـ أبو فراس محمد باوزير، جدة ـ المملكة العربية السعودية.

٧ـ محسن محمود سيف الدين، الشرقية ـ مصر.

٨ـ حمزة إبراهيم حسين، عمان ـ الأردن.

٩ـ هدى الدين قدور بنت عبدالفتاح، حلب ـ سورية.

١٠ـ محمد عيد عبداللطيف محمد علي، ودمدني ـ السودان.

***

د ـ كما فاز بجائزة مجموعة من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، كل من:

١ـ علي عثمان حماد الصائغ، الرياض ـ المملكة العربية السعودية.

٢ـ خير الله أحمد شريف الشريف، دمشق ـ سورية.

٣ـ أنس كمال سعدي أبو طالب، عمان ـ الأردن.

٤ـ محمود محمد الكيلاني، الدقهلية ـ مصر.

٥ـ محمد زعل عقلا الحربي، الظهران ـ المملكة العربية السعودية.

أسئلة مسابقة العدد (٢١٣)

السؤال الأول: عُرفت الردة في الإسلام بأنها: رجوع المسلم البالغ العاقل عن الإسلام إلى الكفر باختياره دون إكراه من أحد. اذكر أربعة أمثلة تدل على الردة.

***

السؤال الثاني: كانت قبلة المسلمين في الصلاة نحو بيت المقدس، ثم جاء الأمر الإلهي بتحويلها إلى الكعبة المشرفة. في أي صلاة تحوَّل المسلمون إلى الكعبة؟.

***

السؤال الثالث: امرأة مسلمة قالت لمن جاءها خاطبًا: "فإن تُسلم فذاك مهري، لاأسألك مهرًا غيره". وهي أيضًا أم صحابي جليل. من هي؟

***

السؤال الرابع: عرف العالم الرِّق منذ أقدم الأزمنة، وبذل المصلحون مجهودات كثيرة عبر التاريخ لوقف تجارة الرقيق. اذكر اتفاقيتين من أهم الاتفاقيات التي عقدت في هذا الشأن.

***

السؤال الخامس: كانت الإطارات الأولى الخاصة بالعربات تُصنع من الحديد ثم من المطاط المصمت. من أول مخترع للإطارات التي تُملأ بالهواء؟

اللغة الخالدة

قال تعالى: ﴿ كتابٌ فُصِّلت آياتُه قرآنًا عربيًا لقومٍ يعلمون ﴾ (فصلت آية: ٣)
صدق الله العظيم

صـــديقِيَ .. لاتعـجب إذا الفــرعُ أمـحــلا … وَعــــبْـــرَ ظلامِ الـفـــرع نجمٌ تبـــتـــلا

صـــديقِـيَ، لاتعـــجب فـكم عقَّ خـــافق … دمـــــــاه، وكـم بـالـزيـف فِـكْـرٌ تجـلـلا..!

أرادوا لشــمس الضـــاد تبـقى كـسـيـفـة … وودّوا لهـــا أن تـضـــمــحـلَّ وتـأفـــلا..!

فَـــمِن قـــائلٍ: مـــا الضـــاد إلا خُـــرافـــةٌ … وإنّ لـهـــا فـي مـــربـع الـريـح مـــوئـلا

وليـس لهـــا في روضـــة الـعلم غـــرســـةٌ … تـضيء بـنور الـفكـر للفكر مـــشــعَـــلا

ومـن مُـــدّعٍ بغــيًـــا، بـأنّ لســـانهـــا … جــفـــا شـــرعـــة الإبداع رفـــدًا ومنهـــلا

وعـــابوا أغـــاريدًا حـــســـانًا لحـونهـــا … من الشـــعـــر والأنـغـــام، لـله أرســـلا

إذا الـبلبـلُ النشـــوان غنّى فـــتـــونَـهـــا.. … اســتــحــالـت فـتــونُ الأرض للأرض بُلبُـــلا!

نســوا أُمـــةً قـــالت لهـــا الشـــمس أشــرقي … على ســورة الفــصـحى، فــقــالت: بلى، بلى

نســوا يوم كـــان الغــربُ في الجـهل مـظلمًـا … فـــبـــدّدت الفُـــصـــحى الظـلامَ فـــأذهلا

فـلولا لـســـانُ العُـــربِ لـم يزهُ عـــالـم … ولـولاه مـــــــاولّى الـظـلامُ، ولا انجـلـى

فلولا لســـانُ العـــرب مـــاأشرق الحـجـــا … ومـــافـــاض عـــقـل بـالإخـــاء ومـــاعـــلا..!

صـــديقيَ، فـلتـــبق الـيـــراعـــة مُـــزْنـة … تـروِّي لـســـان الـضـــاد غـــيــثًـــا مكـللا

صـــديقيَ فلتـــبق الـيـــراعـــة كــوكـــبًـــا … يـزيل ظـلام الشك ولْتـــبْـقَ فـــيـــصـــلا

إذا الـنـبـعُ لايـرويك فـــــيـض عـطـائه … فـــلا كــــان للإيمان أهلاً، فـــلا، فـــلا!

شعر - هشام عدرة

الحركة الثقافية في شهر

- نقوش ثمودية في القصيم
- المعلمي في مجمع اللغة العربية في القاهرة
- وفاة التفتازاني والشناوي
- مرفأ فرعوني في الجيزة
- اكتشاف مدينة إيلة

السعودية

مركز لترميم المخطوطات في المكتبة الوطنية

قرر مجلس أمناء مكتبة الملك فهد الوطنية في اجتماع عقده - مؤخراً - برئاسة صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض إنشاء مركز لترميم المخطوطات.

وتقرر تشكيل لجنة من أساتذة الجامعات ومعهد الإدارة العامة لبحث إمكان إنشاء معهد أو مركز للبحوث في مجال المكتبات.



الأمير سلمان بن عبد العزيز

ووافق المجلس على إيفاد عشرة من منسوبي المكتبة إلى إسبانيا وفرنسا وألمانيا وتركيا واليابان لدراسة علم المكتبات وتاريخ الجزيرة العربية.

إعلان لمبادىء حقوق الطفل في الإسلام

أقرت الندوة الدولية لحقوق الطفل ورعايته في الإسلام في ختام اجتماعاتها بمدينة جدة في الحادي والعشرين من شهر محرم الماضي ١٤١٥هـ إعلاناً يعبر عن المبادىء الإسلامية العامة لحقوق الطفل.

وكانت المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، ومجمع الفقه الإسلامي قد اقترحا إصدار ميثاق بهذا الشأن، إلا أنه رؤي تعديل التسمية لتصير إعلاناً، حيث يستلزم الميثاق التصديق عليه من الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي.

وتضمن مشروع الإعلان عدة مبادىء رئيسة هي: الأسرة، حقوق الجنين، حقوق الوليد، حق النسب، حق الحضانة، حق الرعاية: اجتماعياً، وصحياً، وثقافياً، حق الملكية، حق التعليم، حقوق الطفل في الظروف الاستثنائية.

أشار مشروع الإعلان إلى نقطة مهمة تتمثل في أن حقوق الطفل في بعض المجتمعات الإسلامية قد تدنّت ثقافياً وصحياً وتعليمياً، نتيجة لتأثير ضغوط اقتصادية واجتماعية وسياسية، منوهاً بأن علاج هذه السلبيات يكمن في العودة إلى التمسك بالقيم السماوية الرفيعة في مناحي الحياة كافة.

وأكدت الندوة حرص الدول الأعضاء في المنظمة على المساواة في المعاملة بين الأطفال، ومنع أشكال التمايز بينهم، كما أكدت على الالتزام بالإعلان العالمي لحقوق الطفل.

يذكر أن الندوة شاركت فيها إحدى عشرة دولة إسلامية هي: السعودية، مصر، سلطنة عمان، الكويت، تونس،

السودان، باكستان، بنجلاديش، السنغال، جامبيا، وإيران. إضافة إلى تركيا التي شاركت بصفة «ضيف».

دليل لأدباء الخليج وبرامج ثقافية مشتركة

قررت اللجنة الثقافية العامة بدول مجلس التعاون خلال اجتماعها في شهر محرم الماضي ١٤١٥هـ في الرياض تنفيذ عدد من البرامج الثقافية والفنية المشتركة في بلدان المجلس، إضافة إلى إصدار دليل لأدباء دول المجلس وفنانيها.

شملت التوصيات التي صدرت في ختام اجتماعات اللجنة إقامة عدد من الملتقيات والندوات والمعارض خلال عام ١٩٩٥م المقبل من بينها: الملتقى الأدبي الرابع (في الكويت)، المعرض الثالث لرسوم الأطفال (في دولة الإمارات العربية المتحدة)، ندوة ثقافة الطفل (في المملكة العربية السعودية)، الملتقى الفكري الثالث (في سلطنة عمان). فضلاً عن دورة دراسية في المملكة العربية السعودية لمديري إدارات الثقافة.

وتقام عام ١٩٩٦م نشاطات مماثلة من بينها: الندوة الثقافية للتراث الشعبي (في قطر)، المهرجان الشعبي الثالث (في البحرين)، المعرض الدوري الرابع للفنون التشكيلية (في الكويت)، والمعرض الثالث للخط العربي (في سلطنة عمان).

نشاط ثقافي مكثف في الطائف

تشهد منطقة الطائف خلال صيف العام الجاري مجموعة من النشاطات الدينية والثقافية والفنية المتنوعة.

بدأت هذه النشاطات منذ منتصف شهر صفر الماضي ١٤١٥هـ بافتتاح معرض الكتاب السابع، ومعرضي التربية الفنية والطائف السياحي.

كما أقيمت محاضرات دينية، ومسابقات في مجال تحفيظ القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، ويستضيف نادي الطائف الأدبي كل يوم ثلاثاء ـ على مدار أشهر الصيف ـ محاضرات وأمسيات شعرية وقصصية ونقدية وتاريخية.

تشمل النشاطات أيضًا إقامة مهرجان الشباب الثاني بمنطقة الرُدَّف، ومسابقة ثقافية وأخرى أدبية، إضافة إلى مسابقتين عامتين للجمهور.

كما تنظم الرئاسة العامة لرعاية الشباب المعرض الثقافي الخامس بالطائف، الذي يتضمن مجموعة من النشاطات المتنوعة، من بينها عروض للفنون الشعبية وبخاصة شعر الرد، ومعارض متنوعة.

تأتي هذه النشاطات في إطار برامج الصيف التي اعتادت المنطقة تنظيمها للمصطافين.

مجلات ودوريات جديدة

زخم جديد من الإصدارات الصحفية بدأ ينزل تباعًا إلى أسواق المملكة ليضاف إلى المجلات والنشرات المتخصصة الموجودة فيها.

ففي الدمام صدر عن فرع الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون العدد الأول من مجلة «دارين» التي تعنى بالفكر والثقافة والفنون، كما صدر العدد الأول من «المجلة الطبية العربية» وهي مجلة علمية متخصصة تصدر باللغة الإنجليزية، وتوزع مجانًا في جميع أنحاء العالم على الأطباء والاختصاصيين، وتركز على التقدم الطبي الحديث من وجهة نظر عربية، حيث يشارك في تحريرها أساتذة من المملكة ومصر والإمارات وكندا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، ويرأس تحريرها د. عمر عبدالهادي استشاري أمراض القلب.

كما صدر في المنطقة الغربية من المملكة العدد صفر من مجلة «استجواب» وهي مجلة شاملة، وإن كانت ستركز ـ كما قال القاص عبدالله باخشوين ـ على تقديم وجه مشرق للثقافة المحلية.

وقرر نادي مكة الثقافي الأدبي إصدار دورية كل أربعة أشهر تحمل مسمى «البلد الأمين» لاحتضان الثقافة والأدب ورعاية المواهب، والتعريف بنشاطات النادي.

وفي الرياض أصدرت وزارة المعارف العدد صفر من «رسالة المعارف» التي تعتزم الوزارة إصدارها بشكل مستمر، وتصدرت العدد كلمة لوزير المعارف الدكتور عبدالعزيز الخويطر.

عبد العزيز الخويطر

وأصدرت بلدية الطائف العدد صفر من مجلتها الفصلية «تراحيب المطر» التي تهتم بالشؤون البلدية وخدمات المصطافين وغير ذلك. ويتولى الإشراف على المجلة رئيس البلدية د. عمر عوض المشعبي، ويرأس تحريرها عثمان أبو بكر مالي.



وقررت إدارة مستشفى الصحة النفسية في الأحساء إصدار مجلة دورية تعنى بشؤون الصحة النفسية: معرفة، ووقاية، وعلاجًا، ولم يتحدد بعد مسمى المجلة أو موعد صدورها.

ستون عامًا من عمر "المنهل"

احتفلت الزميلة مجلة "المنهل" بدخول عامها الستين في خدمة الفكر، والثقافة، والأدب، والعلوم، والمعارف.

عبد القدوس الانصاري

وكان الأديب السعودي الراحل عبد القدوس الأنصاري قد أصدر العدد الأول من "المنهل" في ذي الحجة من عام ١٣٥٥هـ، وواصل نجله نبيه بعد وفاة والده مسؤولية الإصدار، حيث يتولى حاليا رئاسة تحرير المجلة.

ورغم أن "المنهل" بميزان السنين قد اكتهلت، إلا أنها بميزان المعرفة ازدادت شبابًا وتوهجًا، وصارت شاهداً حيًا على تاريخ ستة عقود من الثقافة، والفكر، والأدب، والعلوم، فكل عدد صدر منها شكّل إضافة جديدة إلى مسيرة المجلات الثقافية العربية، التي تقف المنهل - بتاريخها الطويل - في مقدمتها.

نقوش ثمودية في القصيم

اكتشفت في منطقة جبل سواج غرب القصيم مجموعة من الآثار من بينها نقوش ثمودية سليمة لم تمسّها يد، تمثل أشكالا لحيوانات وطيور، إضافة إلى كتابات.

وفضلا عن تلك النقوش، عثر بالمنطقة على أساسات جدران دائرية الشكل يعتقد أنها كانت برك مياه حفرت لخدمة حجاج البصرة، خاصة مع تزامن هذا الكشف مع اكتشاف وجود آبار مياه طمرتها الرمال في الموقع نفسه.

مسابقات أدبية

أعلنت مؤخرًا أسماء الفائزين بجوائز المسابقة الثقافية السنوية الرابعة عشرة لنادي الطائف الأدبي في مجالات: الشعر، والقصة القصيرة، والدراسات الأدبية والبحث، وواكب ذلك إعلان نادي مكة الثقافي الأدبي، والمكتب الرئيس لرعاية الشباب في القصيم عن مسابقتين أدبيتين.

ففي مسابقة نادي الطائف الأدبي. أعلن عن حجب الجائزة الأولى في مجال الشعر، وفاز بالجائزتين الثانية والثالثة على التوالي كل من: سماح يوسف عن قصيدته "حكاية العمر"، وأحمد حسن شاهين عن قصيدته "اسمحي لي".

وفاز بالمراكز الثلاثة الأولى في مسابقة القصة كل من: قماشة عبد الله سيف

محاضرات وندوات

* **"بين الإسلام والغرب" عنوان محاضرة ألقاها في المركز الإعلامي السعودي في لندن د. فرحان أحمد نظامي.**

* "موقف المسلم من الفتن" عنوان محاضرة ألقاها في جامع الأمير خالد بن سعود بحي العريجاء في الرياض الشيخ محمد صالح العثيمين.

* **"الإعلام الكويتي بعد التحرير ومجتمع التواصل" عنوان ندوة نظمتها اللجنة الثقافية بقسم الإعلام بكلية الآداب في جامعة الكويت، أدارها د. ياسين الياسين، وشارك فيها كل من: د. نبيل الجردي، ومحمد جاسم الصقر.**

* "الإبداع القصصي لأدباء النوبة" عنوان ندوة نظمها المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة، شارك فيها: صبري موسى، فاروق خورشيد، إبراهيم فتحي، وإدوار الخراط.

* **نظمت الجامعة الثقافية اللبنانية الفرنسية أمسية شعرية في نادي فوش في باريس للشاعر اللبناني هنري زغيب.**

* "تجربتي في مجلس النواب"، موضوع محاضرة ألقتها في مركز الفقه الإسلامي بجامعة لندن، النائبة الأردنية توجان فيصل.

* **"الاعتماد على النفس" عنوان محاضرة ألقتها في مقر جمعية فتاة الخليج الخيرية في الخبر، سارة التركي.**

* نظم نادي مكة الثقافي الأدبي أمسية أدبية تحدث فيها

الجابر عن قصتها "أكان ذلك حواراً"، ومحمد عبد الرحمن يونس عن قصته "القمة ورصاصات"، وناصر سالم الجاسم عن قصته "حالة بوح".

وحجبت الجائزة الأولى في مجال الدراسات والبحث، فيما نال الجائزة الثانية مناصفة كل من: عبد الله سليمان السحيمي عن بحثه "عبد السلام هاشم حافظ"، وطاهر محمد العتباني عن بحثه "ديوان الحمى بين الهم الذاتي والهم الجماعي"، وتقاسم المركز الثالث كل من جمال الدين الخضير عن بحثه "حركية الزمان عند الصيخان" وأحمد مختار مكي عن بحثه "قراءة في ديوان الطائر الغريب"، ومنحت جوائز مادية وعينية أخرى لعدد من الفائزين.

وتضمنت المسابقة الخامسة لنادي مكة الثقافي الأدبي ثلاثة مجالات هي الشعر والقصة والدراسات الأدبية.

واشترط النادي أن تكون القصيدة أو القصة موجهة للطفل، وأن تكون الدراسة الأدبية حول أدب الأطفال، وتحددت نهاية شهر ربيع الأول الجاري ١٤١٥هـ موعداً نهائياً لاستقبال المشاركات.

وتحددت موضوعات المسابقة الأدبية للمكتب الرئيسي لرعاية الشباب في القصيم في المجالات الآتية: المقالة الأدبية، والشعر، والقصة القصيرة.

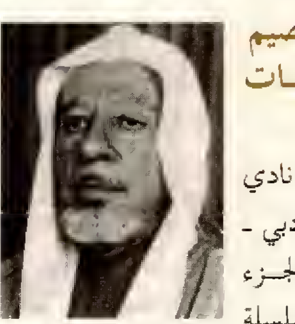
ومن شروط المسابقة أن تعالج المقالة مشكلة من مشكلات المجتمع، وأن تتناول القصائد أحد الموضوعات الاجتماعية أو الإنسانية أو الوطنية، فيما لا يقل عن ٢٠ بيتاً، وأن تعالج القصة قضية إنسانية من قضايا المجتمع. وتحدد يومُ الثالث من شهر ربيع الأول الجاري موعداً نهائيا لاستقبال المكتب للمشاركات.

الفائزون بجائزة أبها للبحث العلمي

وزعت في الأسبوع الثاني من شهر محرم الماضي جائزة أبها للبحث العلمي المقدمة من صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير.

وقام د. حمد الشغرود مدير تعليم أبها بتسليم الطلاب الفائزين جوائزهم، وهم: ماجد عبد المحسن الثميري، ماجد سعد الدين عبد القادر، محمود ماهر العبيد، منصور سحمي أحمد الغامدي، وآثار محمود عماد.

نادي القصيم و"دراسات إسلامية"


الشيخ د. مناع القطان

أصدر نادي القصيم الأدبي - مؤخراً - الجزء الثالث من سلسلة "دراسات إسلامية" حاوياً بعض البحوث والدراسات التي ضمتها الملتقيات الثقافية للنادي.

كانت الورقة الأولى محاضرة "العلمانية وآثارها في العالم الإسلامي" التي ألقاها الشيخ مناع خليل القطان، وكشف فيها

الدكتور عبدالرحمن الشبيلي، حضرها مجموعة من رجال الفكر والعلم والأدب.

* **أقام اتحاد المحامين العرب ندوة في القاهرة لمناقشة كتاب د. مصطفى الفقي «تجديد الفكر القومي»، أدار الندوة فاروق أبو عيسى، وعقب عليها عيسى درويش، ود. جابر عصفور، ود. يونان لبيب رزق.**

* "عالم المرأة في البحر المتوسط" عنوان ندوة نظمها المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد بإسبانيا، شاركت فيها: إقبال بركة، د. سحر عبدالعزيز، أميمة إبراهيم، د. ماريا ساينر مارتين، وعدد من الأديبات والمهتمات بشؤون المرأة في إسبانيا، أدار الندوة مدير المعهد د. جمال محمد عبدالكريم.

* **نظمت مديرية ثقافة شبين الكوم في مصر أمسية شعرية شارك فيها مجموعة من الشعراء من بينهم: علية الجعار، إيمان بكري، شفيق سلوم، أحمد الصعيدي، فريد طه، د. يسري العزب، ومحمد بغدادي، وأدارها كمال البحيري، وسيد الجندي.**

* "الاضطرابات الحركية للجهاز الهضمي" موضوع ندوة نظمتها في فندق المدينة المنورة شيراتون، الجمعية السعودية للجهاز الهضمي، شارك فيها عدد من الأطباء والأساتذة المتخصصين في هذا المجال.



عن مظاهر الصراع بين الإسلام والتحديات المعاصرة التي تستهدفه، فيما تناول د.علي النملة في محاضرته "الاستشراق وآثاره الخطيرة" الفكر الاستشراقي ومخاطر الانبهار به، وتحدث د. صالح الحسن عن "مراتب السنة عند الفقهاء وطرق معرفتها"، وقدم د. عبد الله عليوة الورقة الرابعة بعنوان "الوقف: دراسة قرآنية بلاغية"، وعالج د. عبد الجواد طبق في الورقة الأخيرة التي جاءت بعنوان "من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم" قضية الإعجاز النظمي للقرآن الكريم.

يجيء هذا الإصدار في إطار حرص النادي على تنويع القنوات والجسور والوسائل التي يقدم الثقافة من خلالها إلى الجمهور.

كتب جديدة

دليل المؤلفات الإسلامية في المملكة العربية السعودية، (ببليوجرافيا للكتب الإسلامية التي صدرت في المملكة من ١٤٠٠هـ إلى ١٤٠٩هـ)، إعداد محمد خير رمضان يوسف، صدر عن دار الفيصل الثقافية في الرياض.

حفنة سطور: شهادة إسلامية على قضايا الأمة، تأليف د. حلمي القاعود، صدر عن دار المعراج الدولية للنشر في الرياض.

الجن بين الإشارات القرآنية وعلم الفيزياء، تأليف عبدالرحمن الرفاعي، تقديم د. محمد عبده يماني، صدر ضمن سلسلة إعجاز القرآن الكريم العلمي والسنة النبوية الشريفة من دار العبيكان.

أثر العبادة التربوي في تكوين الشخصية وتحديد السلوك، تأليف أسماء محمد فضل، صدر عن نادي مكة الثقافي الأدبي.

رسالة إلى الخطباء، تأليف إسماعيل بن مرشود.

الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، تأليف شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق د. عبد الرحمن بن عبد الكريم اليحيى، صدر الكتابان السابقان عن دار طويق للنشر والتوزيع.

البيان والتعريف بما في القرآن من أحكام التصريف، تأليف د. محمد حسين الحبيب الشنقيطي، صدر عن دار القبلة في جدة.

مبادىء تعلم وتعليم اللغة، تأليف المستشرق دوجلاس براون، ترجمه إلى اللغة العربية الدكتوران إبراهيم حمد القعيد، وعيد عبدالله الشمري، وصدر عن مكتب التربية العربي لدول الخليج.

المختار في أصول السنة، تأليف الإمام أبي علي الحسن بن أحمد بن عبدالله بن البنا الحنبلي البغدادي (ت٤٧١هـ)، حققه د. عبدالرزاق بن عبدالمحسن العبّاد، وصدر عن مكتبة العلوم والحكم في المدينة المنورة.

الإمارات

كشف أثري

عُثر في منطقة جمبرا في دبي على عدد من البيوت السكنية المشيدة من الحجر والجص، والمغطاة من الداخل والخارج بطبقة من الجص النقي.

كما عثر في الموقع نفسه على وحدات زخرفية جصِّية على هيئة زخارف هندسية وبنائية كانت تستخدم في زخرفة الغرف والجدران الداخلية وواجهات البيوت وتزيينها، فضلاً عن العديد من الأدوات الفخارية المزينة باللون الأخضر، التي ترجع تاريخيًا إلى القرنين الخامس والسادس الميلاديين.



مجلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار الفيصل الثقافية

من الكتب الجديدة

التجربة الأنثوية، (مختارات من الأدب النسائي العالمي)، إعداد صنع الله إبراهيم، صدر عن اتحاد كتاب الإمارات وأدبائها.

الكويت

كتب جديدة

العرب وعصر المعلومات، تأليف د. نبيل علي.

القوى الدينية في إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة، تأليف د. رشاد الشامي.

صدر الكتابان السابقان ضمن سلسلة "عالم المعرفة" عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

مصر

جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية

أعلنت أسماء الفائزين بجوائز الدولة التقديرية والتشجيعية لعام ١٩٩٣م في مجالات الفنون والآداب والعلوم الإجتماعية.

منحت الجائزة التقديرية للآداب للدكتور محمود علي مكي أستاذ الأدب الأندلسي بجامعة القاهرة، والدكتور يوسف خليف أستاذ الأدب العربي بجامعة القاهرة، والكاتب لطفي الخولي.

وفاز بجائزة العلوم الاجتماعية د. إبراهيم نصحي قاسم أستاذ التاريخ بجامعة عين شمس، د. أحمد مصطفى أبو زيد أستاذ الأنثربولوجيا بجامعة الإسكندرية، وفؤاد عبدالمنعم رياض نائب رئيس الجمعية المصرية للقانون الدولي.

وحصل على جائزة الفنون د. محمد زكي حواس أستاذ العمارة بجامعة عين شمس، والفنان التشكيلي منصور فرج منصور، والمخرج السينمائي يوسف شاهين.

وجاءت نتائج جائزة الدولة التشجيعية كالتالي: **جائزة الفنون:** المعماري مجد أنطون مسرة، المصورد. إسماعيل شوقي خليفة، الممثل المعروف يحيى الفخراني، المخرج المسرحي محمد عبد المعطي.

وفاز في مجال الآداب: الشريف خاطر عن ترجمته لمسرحية "الخزان العظيم" وماهر قابيل عن كتابه للأطفال "أبي التجار السواقي"، وسعيد محمد بكر عن روايته " الفيافي"، والشاعر محمد فريد أبو سعدة عن ديوانه "الغزالة تقفز في النار"، والناقد أحمد إبراهيم الهواري عن كتابه "إسماعيل أدهم ناقدًا" ومجدي أحمد بندق عن مسرحيته " غيلان الدمشقي".

وحصل على جائزة العلوم الاجتماعية كل من: زينب حسن عوض الله عن كتابها "الأداء التسعيري والتمويلي لبورصة الأوراق المالية"، والدكتورة هدى مجدي السيد عن بحثها "الحماية الفعلية في إطار تحرير الاقتصاد"، والدكتور نبيل إبراهيم سعد عن كتابه "الضمانات غير المسماة في نطاق القانون الخاص".

المعلمي عضواً في مجمع اللغة

الفريق يحيى المعلمي

انضم إلى عضوية مجمع اللغة العربية في القاهرة الأديب السعودي يحيى عبدالله المعلمي.

والمعلمي أحد الذين برزوا بحماستهم في التصدي لدعاة العامية، وهو من مواليد عام ١٣٤٧هـ، ورغم دراساته في مجال الشرطة، وتقلده أعلى المناصب في هذا المجال إلا أنه فضّل التفرغ للأدب والتأليف، حيث صدر له عدد من الكتب في مجالات الدراسات القرآنية، والأحاديث النبوية، والنحو، والأدب، واللغة، وعلوم الشرطة من أبرزها "مكارم الأخلاق في القرآن الكريم"، "الأعلام في

العنوان

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٦٥٣٠٢٦ - ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٤٧٨٨٤ -
فاكسملي: ٤٦٤٧٨٥١

الأسعار:

السعودية ٨ريالات - الكويت ٦٥٠ فلسا - الإمارات ٧دراهم - قطر ٧ريالات - البحرين ٧٥٠ فلسًا - عُمان ٧٥٠بيسة - الأردن ٥٠٠فلس - اليمن ٢٥ريالاً - مصر جنيهان - السودان ٣ جنيهات - المغرب ٦دراهم - تونس ٦٠٠مليم - الجزائر ١٠دنانير - العراق ٤٠٠فلس - سورية ٢٠ليرة - ليبيا ٨٠٠درهم - موريتانيا ١٠٠أوقية - الصومال ٢٠٠٠شلن - جيبوتي ١٥٠فرنكًا - لبنان مايعادل ٤ريالات سعودية - الباكستان ٢٠ روبية - المملكة المتحدة جنيه استرليني واحد.

الاشتراكات السنوية:

للأفراد ١٥٠ريالاً سعوديًا، للمؤسسات ٢٥٠ ريالاً سعوديًا.

الإعلانات:

يتم الاتفاق عليها مع إدارة المجلة.



القرآن الكريم"، "الأمثال والشواهد في القرآن"، "الأمثال والشواهد في الحديث الشريف"، "الأمن في الإسلام" وغيرها، وترجمت بعض مؤلفاته إلى اللغات: الأوردية، والإنجليزية، والفرنسية، والروسية.

يذكر أن المجمع يضم في عضويته أعضاء سعوديين آخرين منهم الشيخ حمد الجاسر، والأديب عبد الله بن خميس، والشاعر حسن القرشي.

وفاة التفتازاني والشناوي

فقدت الأوساط الإسلامية والثقافية علمين من أعلامها بوفاة الداعية والباحث الإسلامي الدكتور أبو الوفا التفتازاني عن عمر يناهز ٦٤ عامًا، والشاعر مأمون الشناوي عن عمار يناهز ٨٠ عامًا.

أبو الوفا التفتازاني

وُلد د. أبو الوفا التفتازاني في محافظة الشرقية عام ١٩٣٠م، وما كاد يبلغ العشرين من عمره حتى كان قد حصل على إجازة في الآداب من جامعة القاهرة عام ١٩٥٠م، أتبعها بالماجستير عام ١٩٥٥م، ثم الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية عام ١٩٦١م.

ومارس الفقيد التدريس حتى وصل إلى منصب نائب رئيس جامعة القاهرة، كما عمل بجامعات: قطر، الكويت، وبيروت العربية، وحصل عام ١٩٨٦م على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية، وعلى وسام الامتياز من الرئيس الباكستاني عام ١٩٨٩م، كما اختير لعضوية مجلس الشورى، ومؤتمر الحوار الوطني الذي بدأ أعماله قبل وفاته بأيام.

أما الشاعر مأمون الشناوى فهو من مواليد مدينة الإسكندرية عام ١٩١٤م، ونشأ في أسرة ذات علم وحسب، فوالده كان رئيسًا للمحكمة العليا الشرعية، وعمه الشيخ مأمون الشناوي شيخ الجامع الأزهر الأسبق، وشقيقه الشاعر الراحل كامل الشناوي، أحد أبرز الشعراء الرومانسيين في الأربعينيات والخمسينيات الميلادية.

بدأ مأمون الشناوي نشر نتاجه الشعري عبر جماعة "أبوللو" التي أسسها د. أحمد زكي أبو شادي، واستقطبت الشعراء الرومانسيين، واتجه في الثلاثينيات الميلادية للعمل في الصحافة عبر مجلة "روز اليوسف"، حتى تركها عام ١٩٣٩م، ثم عمل مساعدًا لسكرتير التحرير ومشرفًا على الصفحة الفنية في مجلة "آخر ساعة"، وكان أحد الذين شاركوا الأخوين أمين في تأسيس "أخبار اليوم"، وفي منتصف السبعينيات وإلى الثمانينيات حرر في جريدة "الجمهورية" بابًا ثابتًا بعنوان

رسائل جامعية

* "الصورة الفنية في شعر ابن حمديس الصقلي" عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تقدم بها مبارك محمد العصيمي.

* **"الرؤى عند أهل السنة والجماعة والمخالفين" عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تقدم بها سهل بن رفاع العتيبي.**

* "تحقيق الممتع شرح المقنع لابن المنجي: من أول كتاب الغصب إلى نهاية كتاب الموصى عليه" عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في المعهد العالي للقضاء التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، تقدم بها عبدالله عبدالكريم محمد اللاحم.

* **"أثر الجوانب الابتكارية للتصميم الداخلي لدور الحضانة ورياض الأطفال بمدينة الرياض على النمو الاجتماعي عند الطفل" عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في كلية التربية للبنات في الرياض، تقدمت بها حصة بنت صالح الغصون.**

* "التمعدنات وعناصر مجموعة البلاتين المصاحبة لها في الصخور المافية وفوق المافية في شمال غرب الدرع العربي في

"جراح القلوب".

وللشاعر الراحل أكثر من خمسمائة قصيدة شدا بها مطربون كبار، وهو حاصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٨٠م، وجائزة مصطفى وعلى أمين الصحافية، ووسام من الرئيس المصري السابق أنور السادات.

دار نشر تتحدى الأزهر!

تحدت إحدى دور النشر الخاصة قرار مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر بمصادرة ومنع طبع أو تداول كتاب د. لويس عوض "مقدمة في فقه اللغة العربية"، وأعادت طباعته مضيفة إليه مقدمة لنسيم مجلي ومجموعة من الوثائق المتعلقة بظروف حظر نشر الكتاب وتداوله.

وكانت الهيئة المصرية العامة للكتاب قد قامت بطبع الكتاب المذكور عام ١٩٨٠م، إلا أن الأزهر طالب بسحبه من السوق ومنع تداوله "حفاظًا على مشاعر المسلمين، ومنعًا لهذه الافتراءات أن تنتشر، ويلتبس على القراءماهو علم، وماهو حقد وكيد". وأيدت محكمة جنوب القاهرة الابتدائية قرار الأزهر في جلستها التي عقدت بتاريخ ١٩٨٣/٦/٣٠م.

وقد قامت دار النشر الجديدة بإعادة طبع الكتاب برقم الإيداع القديم نفسه المطبوع على الطبعة الأصلية لهيئة الكتاب، وبادر ورثة د. لويس عوض إلى إبلاغ النائب العام عن هذه الطبعة الجديدة التي صدرت دون استئذانهم.

مجلة للإعجاز القرآني

تعتزم جمعية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة في مسجد د. مصطفى محمود إصدار مجلة "إعجاز القرآن والسنة".

تنشر المجلة دراسات وبحوث العلماء والباحثين في هذين المجالين من شتى أنحاء العالم الإسلامي.

ويذكر أن هيئة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة التابعة لرابطة العالم الإسلامي كانت قد اتخذت خلال اجتماعها السادس في مكة المكرمة في شهر محرم الماضي ١٤١٥هـ قرارًا بإصدار مجلة محكمة سنوية باللغتين العربية والإنجليزية تحت مسمى "الإعجاز" يقوم بتحكيم موضوعاتها مختصون شرعيون وكونيون (راجع عدد صفر ١٤١٥هـ رقم ٢١٢ من الفيصل).

الآثار الإسلامية تواجه خطر الانهيار

حذر تقرير علمي من تعرض ٦٢٢ أثرًا إسلاميًا في مدينة القاهرة لخطر الانهيار بسبب المياه الجوفية.

وأشار التقرير الذي أعدته أكاديمية البحث العلمي بالقاهرة بالتعاون مع مكتب تنسيق الكوارث الدولي في جنيف إلى أن مياه الرشح بدأت تهاجم الآثار بدرجات مختلفة تتراوح بين تسرب المياه الجوفية إلى الجدران، ووجود برك من مياه الصرف تحت بعض تلك الآثار.

وأوضح التقرير أن الآثار الإسلامية الموجودة في وسط القاهرة تتعرض لمخاطر

المملكة" عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في كلية علوم الأرض بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة، تقدم بها عبدالعزيز محمد ذياب الغامدي.

* **"صورة النخلة في الأدب العربي" عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، تقدم بها أحمد العريني.**

* "الصحافة والسلطة في الوطن العربي" موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الإعلام بجامعة القاهرة، تقدم بها حماد إبراهيم حامد.

* **"المراكز الإعلامية ودورها في الإعلام الخارجي" عنوان رسالة ماجستير نوقشت في قسم الإعلام بكلية الدعوة فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في المدينة المنورة، تقدم بها عيسى محمد القايدي.**

* "وصف حركة وسلوك المنشأة في الأماكن المزدحمة" موضوع رسالة دكتوراه تعالج تعميم حلقات الرجم في منى، نوقشت في كلية الدراسات العليا بجامعة تكساس في أوستن بالولايات المتحدة الأمريكية، تقدم بها سعد بن عبدالرحمن القاضي.



أكثر من غيرها، بسبب زيادة معدلات التغذية من شبكات الصرف الصحي والحدائق.

جائزة الفنجري لعمارة وجائزة محفوظ للرواشدة

د. محمد عمارة

أعلنت ـ مؤخرًا ـ أسماء الفائزين بجائزة مسابقة المستشار د. شوقي الفنجري لخدمة الدعوة والفقه الإسلامي لعام ١٩٩٤م، وجائزة نجيب محفوظ للرواية العربية لعام ١٩٩٤م.

فاز بجائزة الفنجري في مجال البحث حول موضوع "الإسلام هو الحل ولكن كيف؟" الداعية والمفكر الإسلامي د. محمد عمارة.

وتحدد موضوعات الجائزة للعام المقبل ١٩٩٥م "دور الزكاة في تنمية المجتمع" وأحسن بحث عن "تاريخ المسلمين في أفريقيا ومشكلاتهم".

أما جائزة محفوظ التي نظمها المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة، ففاز بالمركز الأول الروائي الأردني رمضان الرواشدة عن روايته "الحمزاوي". وحل الروائي المصري وجيه الشربكلي في المركز الثاني عن روايته "وقائع ماحدث"، وجاء ثالثًا الأديب الأردني إبراهيم نصر الله برواية عنوانها "مجرد ٢ فقط".

مرفأ فرعوني بالجيزة وآثار مهمة بالإسكندرية

عثر في محافظة الجيزة على أطلال جدار يمتد ٦٥ مترًا، يعتقد أنه جزء من مرفأ نهري استخدمه المصريون القدماء في إحضار الصخور والعمال لبناء هرم خوفو (الهرم الأكبر).

يقع الجدار على مسافة بضعة كيلو مترات غرب النيل، ويرتفع مترين على أساس من الحجر الجيري، تعلوه طبقة غير كاملة من كتل البازلت، وصُقلت الأحجار ليمكن تركيبها مع بعضها، وكان الجدار مدفونًا تحت طبقة من التربة الخصبة كثافتها ثلاثة أمتار تراكمت من فيضان النيل على مر القرون.

ويعوق عمل الآثاريين أن المنطقة التي عثر فيها على الجدار هي ملكية خاصة، ويجري فيها حاليًا عمل لبناء أربعمائة شقة، مما يعني ضرورة التفاهم مع الملاّك، وتعويضهم عن قيمة الأرض التي تصل إلى ثلاثة ملايين جنيه مصري.

إلا أن بعض الآثاريين شككوا في كون هذا الكشف جزءًا من ميناء، مشيرين إلى أن الجدار أثري بالفعل، لكن لاأحد يدري هل بُني في العصر اليوناني الروماني أو

رسائل جامعية

* "الأوضاع السياسية والاقتصادية وأثرها على المجتمع الأندلسي في عصر المرابطين والموحدين" عنوان رسالة دكتوراه، نوقشت في كلية التربية بجامعة المنصورة في مصر، تقدمت بها سلوى عبدالخالق.

* **"سورة يونس عليه السلام: دراسة تحليلية موضوعية" عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في الأقسام الأدبية بكلية التربية للبنات في الرياض، تقدمت بها نورة محمد فهد الجليل.**

* "معوقات إسهام الخدمة الاجتماعية في مواجهة مشكلة تعاطي المخدرات" عنوان رسالة دكتوراه، نوقشت في الأقسام الأدبية بكلية التربية للبنات بالرياض، تقدمت بها حصة يوسف عبدالعزيز العبد الكريم.

* **"تفسير آيات أشكلت، لشيخ الإسلام ابن تيمية: دراسة وتحقيقاً" عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، تقدم بها عبدالعزيز بن محمد الخليفة.**

* "اتجاهات الدراسات اللغوية المعاصرة في مصر" عنوان رسالة دكتوراه، نوقشت في كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى في

الفرعوني.

من ناحيــة أخرى، عـثـر في مـدينة الإسكندرية خلف سينما "راديو" بمحطة الرمل وسط المدينة على عــتب علوي مصور عليه الملك رمسيس الثاني، وقد نقشت بجانبه ألقابه العديدة.

كـما اكتشـفت في الموقع أجزاء من أعمدة جرانيتية ضخمة من الطراز الدوري المعروف في العمارة اليونانية، تعود إلى العصر الروماني الذي بدأ عام ٣٠ قبل الميلاد.

وعثر في موضع سينما "ديانا" بمحطة الرمل أيضًا على تاجين من العصر الروماني.

متاحف جديدة

من المقرر أن تقام خمسة متاحف في مناطق العريش والطور وسانت كاترين وطابا والقنطرة في شبه جزيرة سيناء لتعرض فيها الآثار المصرية التي كانت إسرائيل قد استولت عليها إبان احتلالها سيناء.

وكانت مصر قد تلقت قبل شهر خمسمائة صندوق مملوء بآثار تعود إلى عصور مختلفة، تمثل الدفعة الثالثة من الآثار المستردة.

جمعية لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة

تسعى مجموعة من الفنانين بالتعاون مع بعض قيادات المركز القومي للفنون التشكيلية إلى تأسيس جمعية فنية هي الأولى من حيث توجهاتها لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة.

ينتظر أن تحمل الجمعية اسم «أصالة»، وأن تتضمن أهدافها نشر الوعي الجمالي والثقافي بين المتذوقين، وإيجاد مقر دائم لتسويق أعمال الفنانين، وتنظيم معارض محلية ودولية للمنتجات التشكيلية والتقليدية المتنوعة.

من أبرز الأسماء التي تشارك في الجمعية: د. أحمد نوار، عزالدين نجيب، محمد عثمان، نبيلة سليمان وآخرون.

أطلس للمحليات الطبيعية بجنوب سيناء

يعتزم جهاز شؤون البيئة بالتعاون مع هيئة المساحة الجيولوجية إعداد أطلس لمحميات نبق، ورأس محمد، وأبو جالوم في جنوب سيناء.

يرمي الأطلس إلى نشر الوعي بالمحميات الطبيعية، والحفاظ عليها، والتعريف بما تضمه من أنواع نادرة لكائنات بحرية وبرية ونباتية، ينبغي العمل على حمايتها من خطر الانقراض.

كما يضم الأطلس خرائط جيولوجية وطبوغرافية، وأخرى للوديان وكميات المياه الجوفية والحياة البرية والبحرية، وأنواع الطبقات والشعاب والصخور في تلك المحميات.

يواكب إعداد الأطلس تنفيذ خطة لإنشاء ثلاثة متاحف مفتوحة تقدم عروضًا بصرية وسمعية عن تاريخ كل محمية وماتضمه من كائنات.

المؤتمر السنوي للجمعية الفلسفية

اختتم في الأسبوع الأول من شهر صفر الماضي ١٤١٥هـ في مدينة الإسكندرية المؤتمر السنوي للجمعية الفلسفية المصرية.

شاركت ـ للمرة الأولى ـ في اجتماع هذا العام الذي استمر خمسة أيام الجمعية الفلسفية العربية، حيث ناقش المؤتمرون في الأيام الثلاثة الأولى نحو ثلاثين بحثًا دارت حول مدرسة الإسكندرية الفلسفية عبر العصور، وإسهاماتها في مجال

مكة المكرمة، تقدم بها عبدالرحمن حسن العارف.

*** "درجة العقلانية في القرارات التعليمية كما تراها الهيئة التعليمية في المدارس الثانوية بجدة" موضوع رسالة ماجستير نوقشت في جامعة أم القرى في مكة المكرمة، تقدمت بها نوف محمد العبدالله السبهان.**

* "الكفاءة الداخلية والخارجية للدراسات العليا في كلية البنات التابعة للرئاسة العامة لتعليم البنات بالرياض" موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية التربية بجامعة الملك سعود في الرياض، تقدمت بها هيا عبدالعزيز العواد.

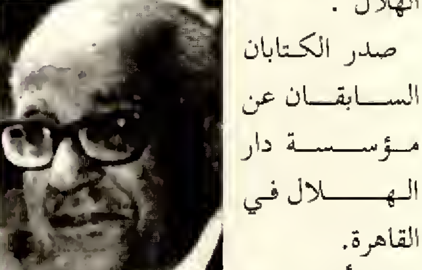


الفلسفة، وخصص اليومان الأخيران للجمعية الفلسفية العربية، التي ناقشت عشرين بحثًا لمجموعة من الباحثين العرب تدور حول ثلاثة من كبار الفلاسفة الذين فقدتهم الأمة العربية وهم الدكاترة: محمد ثابت الفندي، ومحمد عزيز الحبابي، وزكي نجيب محمود.

كتب جديدة

* اعترافات سيد القرية، رواية لمحمد جبريل، صدرت ضمن سلسلة "روايات الهلال".
* هموم المسرح وهمومي، تأليف د. علي الراعي، صدر ضمن سلسلة "كتاب الهلال".

صدر الكتابان السابقان عن مؤسسة دار الهلال في القاهرة.


عبد السلام محمد هارون

* الألف المختارة من صحيح البخاري، اختيار وشرح عبدالسلام هارون، صدر عن دار الجيل للطباعة والنشر.
* أخلاقيات العمل الإعلامي، تأليف د. حسن عماد مكاوي، صدر عن الدار المصرية اللبنانية للنشر.
* مشكلات التصوف المعاصر، تأليف د. سعد الدين السيد صالح.
* أدب وأدباء، تأليف د. علي شلش، صدر ضمن سلسلة "إقرأ".

صدر الكتابان السابقان عن دار المعارف في القاهرة.

* تصنيف مكتبة الكونجرس، تأليف جون فيليب، ترجمة د. محسن العريني، صدر عن مكتبة غريب في القاهرة.
* مشوار العمر، مذكرات الفريق أول كمال حسن علي، صدرت عن دار الشروق.
* يوميات الحب والغضب، تأليف فريدة النقاش، صدر عن دار شرقيات بالقاهرة.

لبنان

مجلتان جديدتان

انضمت ـ مؤخراً ـ إلى ركب الصحافة الفصلية مجلتان جديدتان، الأولى ثقافية تحمل اسم "أبواب"، والثانية تهتم بالنشر والمكتبات تحت مسمى "الجديد في عالم الكتب والمكتبات".

تصدر «أبواب» عن دار الساقي، التي لم تحدد أهداف مجلتها أو أبعادها مكتفية بالإشارة إلى أنها "مجلة فصلية عربية تعنى بالأفكار والثقافة"، كما عمدت ـ امتداداً لتقليد استنته مؤخراً بعض المجلات الثقافية اللبنانية مثل "دراسات عربية" ـ إلى إغفال ذكر اسم رئيس التحرير.

أما "الجديد في عالم الكتب والمكتبات" فتصدر عن دار الشروق للنشر والتوزيع، ويرأس تحريرها فتحي البس.

واحتوى عددها الأول على موضوعات تتعلق بالنشر والمكتبات، ومراجعات لأحدث الإصدارات، إضافة إلى محور خاص عن الناقد د. إحسان عباس.

د. إحسان عباس

كتب جديدة

* الهادي إلى لغة العرب، (قاموس عربي ـ عربي)، ٤ مجلدات، صدر عن دار لبنان في بيروت.
* الريادية في الثقافة والتربية، تأليف مفيد أبو مراد، صدر عن دار الجيل في بيروت.
* ذخيرة العجائب العربية (معجم للعجائب)، إعداد سعيد يقطين، صدر عن المركز الثقافي العربي في بيروت.
* الخراج منذ الفتح الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري، تأليف غيداء خزنة كاتبي، صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت.
* منهج البحث وتحقيق النصوص، تأليف د. يحيى وهيب الجبوري، صدر عن دار الغرب الإسلامي في بيروت.
* مفاوضات السلام: المسار والخيارات والاحتمالات، تأليف برهان الدجاني، صدر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت.
* الجسر، رواية الكاتب الألباني إسماعيل كاداريه، ترجمها إلى اللغة العربية د. عفيف دمشقية، وصدرت عن دار



الآداب في بيروت.

* أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر، تأليف علي حرب، صدر عن دار الطليعة في بيروت.

سورية

اكتشاف
آثار أشورية

اكتشف على تل أثري في شمال شرقي سورية قصر أشوري كبير يتألف من ٤٣ غرفة، ومعبدان عثر في داخلهما على تمثالين الأول من الفخار والثاني من المرمر.

ضمت الكشوفات أيضًا لقى أثرية عليها ختم أسطواني يصور صراع البطل الأشوري مع التنين، وهي أسطورة أشورية قديمة، فضلاً عن مجموعة من الأواني الأثرية متنوعة الأشكال.

ويعود تاريخ هذه الكشوفات إلى القرون: السابع والثامن والتاسع قبل الميلاد.

كتب جديدة

* أصداء حطين وصلاح الدين في الشعر العربي، تأليف د. عمر الدقاق.

* **ذاكرة لرحلة الأنقاض، ديوان للشاعر علاء الدين عبدالمولى.**

* الفحص عن أساس التفكير الفلسفي، تأليف تيسير شيخ الأرض.

صدرت الكتب الثلاثة السابقة عن اتحاد الكُتّاب العرب.

* **ماوراء الأوهام، تأليف أريش فروم، ترجمه إلى اللغة العربية صلاح حاتم، وصدر عن دار الحوار في اللاذقية.**

* شيء ما، ديوان للشاعر محمد عيسى، صدر عن دار الينابيع في دمشق.

* **عمل الدعاة الإسلاميين في العصر العباسي، دراسة لخير الله سعيد، صدرت عن دار الحصاد في دمشق.**

* تهافت الفكر الجدلي وقضايا معاصرة، تأليف د. عبداللطيف الفرفور.

* برج بابل وشدو البلابل، تأليف عبدالغني النابلسي، تحقيق أحمد الجندي.

صدر الكتابان السابقان عن دار المعرفة في دمشق.

الأردن

اكتشاف مدينة إيلة
ومهرجان يحمل اسمها.

تزامن ـ مصادفة ـ إعلان وزارة الشباب عن موافقتها على إقامة مهرجان شعري سنوي في مدينة العقبة تحت اسم «مهرجان إيلة الشعري" مع اكتشاف الآثاريين جزءًا من سور مدينة إيلة الرومانية القديمة التي تعود إلى ألفي عام في منطقة الوحدات الغربية في العقبة.

أهم ماتم اكتشافه من إيلة، هو جزء من سورها طوله خمسون مترًا، وعمقه متران، يعلوه برج مستطيل الشكل، إضافة إلى مبان كثيرة من الطوب ترجع إلى الفترات النبطية والرومانية والبيزنطية، إلى جانب مجموعات من الفخار والزجاج توضح تاريخ المدينة التجاري.

يقام المهرجان الشعري في شهر مارس من كل عام اعتبارًا من العام الميلادي المقبل ١٩٩٥م، ويهدف إلى إثراء التجربة الشعرية المحلية من خلال استقطاب الشعراء العرب والأردنيين، وتسليط الضوء على الفنون والحرف الشعبية، وتنمية المواهب في مجالات الإبداع المختلفة.

ويذكر أن إيلة بناها الأنباط في القرن الأول قبل الميلاد، ثم احتلها الرومان عام ١٠٦م، وتطورت المدينة في العصرين الروماني والبيزنطي، ثم جاء المسلمون وبنوا على بعد بضع مئات من الأمتار منها مدينة إيلة الإسلامية.

صحيفة يحررها الأطفال

صدرت في عمان أول صحيفة من نوعها في العالم العربي مخصصة للكُتّاب الصغار من الأطفال والفتيان والفتيات.

تحمل الصحيفة اسم "الكاتب الصغير"، ويرأس تحريرها الكاتب الشاب محمد غوشة (٢٢ عامًا) الذي سبق أن فاز بحثه عن القدس بجائزة مؤسسة عبدالحميد شومان، ويساعده في التحرير بعض الكتاب الصغار سنًا الذين برزوا في صفحات الأطفال الأسبوعية.

محاضرات وندوات

* "بين الإسلام والغرب" عنوان محاضرة ألقاها في المركز الإعلامي السعودي في لندن د. فرحان أحمد نظامي.

* "موقف المسلم من الفتن" عنوان محاضرة ألقاها في جامع الأمير خالد بن سعود بحي العريجاء في الرياض الشيخ محمد صالح العثيمين.

* "الاعتماد على النفس" عنوان محاضرة ألقتها في مقر جمعية فتاة الخليج الخيرية في الخبر، سارة التركي.

العنف والعدالة والقانون



بقلم: ياسر الفهد

لاشك أن كثيرين يتفقون معي على أنه ليس هناك في الدنيا ماهو أبغض وأسوأ من العنف الذي ربما يسبب من الشقاء للإنسان وللبشرية أكثر مما يسببه أي عامل آخر.

فعندما يختلف شخصان، لسبب أو لآخر، يستمر الخلاف لفترة ما ثم يأتي وقت يجد فيه هذا الخلاف طريقه إلى التسوية والحل، بشكل أو بآخر، فيتصالح الطرفان، إما بالحوار، أو بتدخل وسيط، أو بالاحتكام إلى القانون، وفي نهاية المطاف يأخذ كل ذي حق حقه، أو يتنازل أحد المتخاصمين تنازلا طفيفا لصالح الآخر، ثم تُطوى صفحة الخلاف ويسدل الستار عليه نهائيا.

أما عندما يلجأ أحد الطرفين، أو كلاهما، إلى العنف، فإن الخلاف يتصاعد، وقد تتحول نتائجه إلى عواقب وخيمة لايمكن التكهن بمداها، وربما تصل إلى حد الجريمة أو التسبب بأضرار صحية أو مادية فادحة.

والشيء نفسه ينطبق على المستوى الجماعي، وعلى صعيد الأمم والشعوب، فعندما تختلف دولتان، يمكن إذا احتكمتا إلى الحوار والعقل والوساطة والمفاوضات، أن تضعا حدا لخلافهما وتتفقا على حلول وسط، أما عندما يكون العنف هو الفيصل بين الطرفين، وتطلق المدافع طلقاتها المدمرة، وتنشب الحرب بكل ماتجره من ويلات ومآسٍ ومحَن، فيجري سفك الدماء وإزهاق الأرواح وهدم كل ماشادته سواعد البناء، وبالتالي تترمل النساء ويتيتم الأطفال ويعم الفقر وتنتشر الأوبئة.

العنف، أذن، خطر داهم وبلية عظمى، وهي تشكل أكبر تهديد لمستقبل البشرية. والشكل الوحيد المقبول له، هو العنف الدفاعي الذي يقصد منه درء عنف عدواني، وبهذا يكون العنف وسيلة لوقف العنف. إننا اليوم، نجد القادة السياسيين، في جميع أنحاء العالم، وكذلك علماء النفس ورجال القانون، منهمكين في البحث عن الوسائل التي يمكن اللجوء إليها لوقف العنف بشتى أشكاله، ومنه العنف الذي يُطلق عليه اسم الإرهاب. فأين نحن من هذه المعركة ضد العنف، ومادورنا فيها؟

إن الحد الأدنى في هذا المجال، وأبسط مايمكن القيام به، أن يدلي كل كاتب بدلوه، ويعرض مايخطر على باله من آراء حتى يسهم ولو بدرجة طفيفة في توضيح أسباب العنف وطرق مكافحته، والظلم من أكبر أسباب العنف، فالمظلوم، كثيراً مايلجأ إلى العنف من أجل استرداد حقه المهضوم وكرامته المهدورة. وعندما يستعيد صاحب الحق ماخسره، يختفي عنده دافع العنف. ولكن هل يكفي رفع الحيف وإحلال العدالة وإعطاء كل ذي حق حقه للقضاء على العنف؟ الجواب حتما بالنفي، لأن هناك أسبابا أخرى تقف وراء العنف. فهناك العنف العدواني الذي يمارسه أناس عدوانيون يريدون أن ينالوا أكثر من حقوقهم الأصلية. مثل هؤلاء يتوجهون إلى العنف، لا لرد الحيف الذي قد يقع عليهم، وإنما لأنهم يطلبون لأنفسهم أكثر مما يستحقون.

وهنا نجد أن العدالة لاتكفي لردع هؤلاء وثنيهم عن انتهاج سبيل العنف، فلابد في هذه الحالة من اللجوء إلى القانون الذي يجب أن يوقف كل إنسان عند حده ويعاقبه عندما يتجاوز هذا الحد.

ومع ذلك، وحتى لو نشرنا العدالة في المجتمع، وطبقنا القوانين الصارمة الرامية لمكافحة العنف، تبقى هناك أسباب أخرى، كالتطرف والتعصب والمرض الجسدي أو النفسي، يمكن أن تؤدي إلى ارتكاب أعمال العنف التي قد تصل إلى حد القتل.

وفي مثل هذه الأحوال يكون الإرشاد والعلاج الطبي والنفسي، السبيل الذي يمكن أن يعيد المصابين بمثل هذه الحالات إلى جادة الصواب وإلى الطريق السوي.

ومهما تكن أسباب العنف، تظل العدالة والقوانين وجميع أشكال المعالجة غير كافية لاجتثاثه من جذوره. وهنا يبرز دور التربية والإعلام. فالتربية الناجحة تستطيع أن تنشىء جيلا سويًا مسالما، ولكن تأثير التربية بعيد المدى جداً.

والحل الأسرع يكمن في الإعلام. وهكذا نعود مرة أخرى إلى دور الكاتب الذي تقع على عاتقه مهمة إنسانية عظيمة، وهي مهمة توعية الناس وتوجيههم نحو المسالمة والحوار والمصالحة بدلاً من العنف والعدوان.